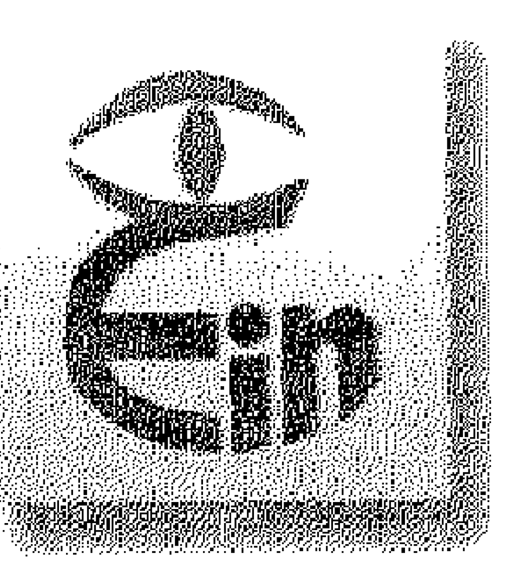


دكتورة سهير محمد نعينع

الحروب الصليبية المتأخرة

حملة بطرس الأول لوسنيان على الاسكندرية

٧٤٧هـ / ١٣٦٥م

الحروب الصليبية المتأخرة
حملة بطرس الأول لوسنيان الصليبية
على الإسكندرية ١٣٦٥م/ ٧٦٧هـ

تاليف
د . سهير محمد إبراهيم نعينع
استاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد
بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى
٢٠٠٢



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
ËIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

– ٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع – تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693

المحتويات

صفحة

إهـــداء

إلى الإسكندرية ... التاريخ والحضارة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أهمية الموضوع ، وسبب اختياره - أهم الأبحاث السابقة على الموضوع ، وتقسيم لها - دراسة تحليلية نقدية مقارنة لمصادر الموضوع من عربية وأجنبية - خطة البحث وتبويبه العام .

اهتم القدامى من مؤرخين وجغرافيين - وتبعهم فى ذلك المحدثون - بالتأريخ للعواصم والمدن الإسلامية الكبرى ، فوصفوا هذه المدن ودرسوا ألوان النشاط البشرى فيها من النواحى السياسية والحربية والاقتصادية والحضارية ؛ وتتعدد الأمثلة طوال العصور الوسطى الإسلامية عن تواريخ المدن الإسلامية شرقًا وغربًا .

وقد حظيت الإسكندرية بطائفة من المؤلفات التى كتبت عنها [1]، ولعل أهمها جميعًا ما أفرده النويرى السكندرى فيما سجله عنها فى كتابه " الإلمام بالإعلام " وهو الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا بقلمه فيما ضمنه من وقائع غارة بطرس دى لوزنيان ملك قبرص على الإسكندرية ، وتخللت كتابته الكثير من تاريخ الإسكندرية منذ نشأتها حتى الوقعة المذكورة .

إلا أن ما ضمنه النويرى السكندرى - وإن كان يمدنا بصورة حقيقية وملموسة عن وقائع تلك الغارة - يفتقد فى بعض نواحيه تكملة هذه الصورة من جانبها الغربى والذى يكملها ما سجله لنا المؤرخ الشاعر الفرنسى - والمعاصر للوقعة - جيوم دى ماشو ، بالإضافة إلى

---

(١)راجع : جمال الدين الشيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، فصلة من المجلة التاريخية المصرية (١٩٥٢م) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٢م ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ و هـ (١) فى ص (٢٠٦) .

كتابات غيرهما من المعاصرين والمتأخرين من أمثال ابن كثير وابن حبيب والمقريزى وابن تغرى بردى وابن إياس فى الجانب الإسلامى ، وكل من فيليب دى ميزيير ومخيراس وأمادى واسترامبالدى فى الجانب الغربى .

والملاحظ أن هذه الكتابات جميعها - باستثناء ما دونه كل من النويرى السكندرى وماشو - جاءت مبتورة أحيانًا وموجزة إيجازاً مخلاً فى أحيان أخرى ، مما لا يفى بالغرض من الموضوع .

وقد اهتم المحدثون بتسجيل تلك الوقعة فى كتاباتهم ، إلا أنها - كما سوف نشير أيضًا فى حينه - لم تأت مستوفية لجميع جوانب الموضوع ، إذ اقتصروا جميعًا فى التأريخ لهذه الحملة على إفراد فصل من الفصول فى كتبهم ، أو مجرد مقالة من مقالاتهم تتعرض للموضوع فى جانب أو آخر من جوانبه .

ومن هنا نبتت لدينا فكرة التعرض لحملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية فى دراسة متكاملة تسد نواحى النقص الموجودة فى كل من المصادر المعاصرة والمتأخرة ودراسات المحدثين.

وتعد حملة الملك بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية فى ١٣٦٥م/٧٦٧هـ أعظم حدث وقع فى تاريخ الحركة الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى[(١)]. فكانت بمثابة تذكرة أخيرة للحروب الصليبية فى الشرق الأدنى الإسلامى [(٢)]، وهى أيضًا آخر الحملات الصليبية التى وجهت ضربتها مباشرة إلى الدولة المملوكية فى مصر والشام . ولم تتعرض مدينة فى العصور الوسطى للدمار الشامل ، مثل الذى نزل بمدينة الإسكندرية بعد اجتياح القبارصة لها ونهبها فى الغارة المذكورة . وقد حظيت هذه الغارة وأخبارها باهتمام طائفة محدودة من مؤرخى العصور الوسطى سواء فى مصر أو فى الغرب ، وتأرجحت الكتابة عنها بين الإسهاب والإيجاز أو مجرد الإشارة إليها . وقد أرّخ لهذه الغارة ثلاثة من المعاصرين

---

(١) Atiya (Aziz Suryal), The Crusade in the Later Middle Ages, Oxford 1938, p. 345 .

(٢) كالة (باول) : صورة عن وقعة الإسكندرية فى عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م ، من مخطوطة " الإلمام " للنويرى السكندرى ، ترجمة وتعليق درويش النخيلى وأحمد قدرى محمد أسعد ، فى : مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ، دراسات أثرية وتاريخية (٣) ، مطبعة إسكندرية ، ١٩٦٩م ، ص ٣٨ .

حسبما أسلفنا : أحدهما مصرى سكندرى الإقامة كان شاهد عيان للأيام الأولى للغارة هو النويرى السكندرى " صاحب الإلمام "(١) والذى يعد كتابه أوفى وأكمل مصدر عربى عن هذه الوقعة ، أما المعاصر الآخر فهو الشاعر الفرنسى جيوم دى ماشو الذى سجل فى ملحمة شعرية بعنوان " الاستيلاء على الإسكندرية "(٢) وقائع تلك الغارة ، وإن كان ديوانه هذا لا يتسم بطابع التاريخ البحت فى رأى الكونت لويس دى ماس لاترى ناشر ديوانه (٣). وأما الثالث فكان معاصراً ومشاركًا فى الحملة والإعداد لها وهو فيليب دى مزيير الذى كان واحداً من أحد ثلاثة أقطاب من الداعين للحملة وهم الملك بطرس دى لوزنيان ملك قبرص وبطرس دى توماس، المندوب البابوى وبطريرك مدينة القسطنطينية اللاتينى وفيليب دى مزيير نفسه الذى كان يشغل منصب مستشار الملك لشئون قبرص . وقد أرخ لهذه الحملة من خلال كلامه عن حياة أبيه الروحى وأستاذه بطرس دى توماس الذى مات فى فاماجوستا بعد عودة الأسطول القبرصى من جرح أصابه أثناء المعركة ، فتألم فيليب دى مزيير لموته وشرع يؤلف كتابه "Vita petri Thomasii " باللغة اللاتينية ، ولم نتمكن من الرجوع لهذا الكتاب إلا أننا اعتمدنا فى كلامنا عنه بما جاء فى كتاب يورجا الذى يؤرخ لهذا الداعية(٤) الصليبى . وجاءت دراسة يورجا هذه من أكثر ما كتب عن فيليب دى مزيير وحملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية. هذا وقد وصف يورجا كتاب فيليب دى ميزير " حياة القديس بطرس دى توماس " بأنه ذو

---

(١) النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد ، المالكى) : كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية سنة سبع وستين وسبعماية ، ثلاث نسخ مصورة محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت رقم : أ - ٧٣٨م (عن النسخة المحفوظة بمكتبة بانكى بوربالهند تحت رقم ٢٣٣٥عربى) . ب - ٦٦٧م (عن نسخة برلين رقم ٩٨١٥ فى قائمة أهلواردت ، ورقم ٦٠ - ٣٥٩ فى قائمة فترشتين) . جـ - ٧٣٧م (عن النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٢٨٥٥٨ عمومية تاريخ ، ورقم ١٤٤٩ خصوصية تاريخ) - (وطبع الكتاب - عن هذه النسخ الثلاث - طبعة أولى ، بتحقيق عزيز سوريال عطية . وشاركه فى تحقيق الجزء الأول المستشرق إتيان كومب) فى سبعة أجزاء ، بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرأباد الدكن بالهند ، ١٣٨٨ - ١٣٩٦هـ / ١٩٦٨ - ١٩٧٦م) .

(٢) Machaut (Guillaume de) , La Prise d'Alexandrie ou Chronique du Roi Pierre Ier de Lusignan, upliée par M.L. de Mas Latric, Genéve 1877 .

(٣) Mas Latrie, dans: Machaut, P. viii (intro) .

(٤) Jorga (Nicolas), Pilippe de Méziéres (1327-1405) et la Croisade de XIVe Siécle, Paris 1896 .

طبيعة جدلية . وقد استقينا أيضًا بعض المعلومات الخاصة بفيليب دى مزيير من مراجع أخرى مثل كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية عن الحروب الصليبية المتأخرة[١]. ومقالة الدكتور عبد الحميد حمدى عن فيليب دى مزيير[٢]. هذا ، بالإضافة إلى المؤرخ الفرنسى المعاصر Froissart الذى أشار إشارات سريعة إلى الملك بطرس دى لوزنيان ورحلته إلى أوربا وإشارة أخرى سريعة عن حملته وذلك من خلال تأريخه لتاريخ بعض الدول الأوروبية فى عصره[٣] . ومن المؤرخين المعاصرين أيضًا المؤرخ الدمشقى ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣م أى بعد الوقعة بسبع سنوات فى كتابه " البداية والنهاية " وكتابه الآخر " الاجتهاد فى طلب الجهاد " [٤]، ولكن كلامه عن الوقعة لا يتعدى صفحات قليلة ضمنها كتابيه . ويضاف إليه المؤرخ المعاصر ابن حبيب . فى كتابه " تذكرة النبيه "[٥] المتوفى ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧م ولم يتعد كلامه عن الوقعة بضع صفحات .

---

(١) Atiya (Aziz Suryal), The Crusade in the Later Middle, Ages, Oxford 1938 .

(٢) Hamdi (Abdel Hamid), " philippe de Méziéres and the New Order of the Passion, 3 Parts", in : Bulletin of the faculty of Arts, Alexandris Unversity : Part I, Vol, XVII (1963); Parts II, III, Vol. XVIII (1964), Alexandria University Press, Alexandria 1964, 1965 .

(٣) Froissart (Sir John), Chronicles of England, France, Spain and the Adjoining Countries. Translated from the French by Thomas Johnes, 2Vols. New York 1901 .

وراجع عن فراوسار : مقدمة مترجم كتابه (PP. iii - ix) ؛ وانظر ترجمة له فى :
Paris (Gaston) et Jeanroy (A.), Extraits des Chroniqueurs Français, Quatorziéme Édition, Paris 1928, p. 165 et seq.; idem : Chrestomatie du Moyen Age, Quinziéme Édition, Paris (n.d.), pp. 238 - 39; Uden (Grant), A Dictionary of Chivalry, London 1968, pp. 96 - 7 .

(٤) ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل) : البداية والنهاية ، جـ ١٤ ، الطبعة السادسة ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، وله أيضًا : الاجتهاد فى طلب الجهاد ، الطبعة الأولى مطبعة أبى الهول ، القاهرة ١٣٤٧هـ (وطبعة أخرى ، بتحقيق وتعليق عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١م) .

(٥) ابن حبيب (الحسين بن عمر) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، جـ ٣ ، حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٦م .

أما المصادر الغربية القريبة من المعاصر فهى تكاد تقتصر على الجانب الغربى المسيحى بما سجله الكاتب القبرصى ليونيتوس مخيراس فى كتابه " تاريخ بلاد قبرص العزيزة "[(١)] . وفيه يتعرض للحملة بشيء من الإيجاز لا يقاس بالتفاصيل المسهبة عند كل من النويرى السكندرى وماشو .

وقد قام ديوميد استرامبالدى – فى القرن السادس عشر – بترجمة تاريخ مخيراس إلى اللغة الإيطالية ، ونشر هذه الترجمة رينيه دى ماس لاترى[(٢)] Réné de Mas Latrie – وهو ابن الكونت لويس دى ماس لاترى L. de Mas Latrie فى نشرة واحدة مع كتاب آخر باللغة الإيطالية أيضًا عن تاريخ قبرص لفرنسيس أمادى[(٣)] المتوفى بالبندقية سنة ١٥٦٦م / ٩٧٤هـ ، وهو تاريخ عام لجزيرة قبرص بدأه أمادى بفتوحات المسلمين . ومن المصادر العربية المصرية القريبة من المعاصرة أو المتأخرة قليلاً كتاب السلوك للمقريزى[(٤)] الذى ولد قبل الوقعة بسنة واحدة وتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م ، وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى[(٥)] المتوفى سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م ، وكتاب بدائع الزهور لابن إياس[(٦)] المتوفى سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م . ولم تهتم كل هذه المصادر الثلاثة بغارة الملك بطرس دى لوزنيان وما يتعلق بها من

---

(١) Makhairas (Leontios), Recital Concerning the sweet Land of Cyprus entitled "Chronicle", edited with a translation and nots by R.M.Dawkins, 2 Vols., Oxford 1930 .

(٢) Strambaldi (Diamède), Chroniqu de Strambaldi, Publiée par René de Mas Latrie, Paris 1893 .

(٣) Amadi (François), Chronique d'Amadi, Publiée par Réne de Mas Latrie, Paris 1891.

(٤) المقريزى (تلقى الدين أحمد بن على) : السلوك لمعرفة دور الملوك ، جـ ٣ ، ق ١ ، حققه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٠م .

(٥) ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ١١ ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .

(٦) ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد ، المصرى ، الحنفى) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ١ ق ٢ ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

وقائع تالية إلا من خلال سرد أحداث سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م وما بعدها فى صفحات قليلة أو إشارات سريعة .

وعلى هذا فقد اعتبرنا المصادر الثلاثة المعاصرة - النويرى السكندرى وماشو وفيليب دى مزيير والمصدر القريب من المعاصرة وهو مخيراس هى المصادر الرئيسية فى الموضوع . أما غيرها من المصادر العربية والإفرنجية فهى مصادر متأخرة نسبيًا ثانوية بالنسبة لوقائع غارة الملك بطرس على الإسكندرية .

أما عن النويرى السكندرى فلم تهتم كتب التراجم التى تم تأليفها بعد النويرى السكندرى بالترجمة له ، سوى ما كان من كلمات معدودة تعرّف به عند كل من ابن حجر فى " الدرر الكامنة " (١)، والسخاوى فى " الإعلان بالتوبيخ "(٢) وحاجى خليفة فى " كشف الظنون"(٣) ، مع إغفالهم عنوان كتابه " الإلمام بالإعلام " ، وإطلاق ابن حجر والسخاوى " صفة الكائنة العظمى " على الوقعة التى أرخ لها النويرى السكندرى . واكتفاء حاجى خليفة بأن للنويرى كتابًا فى الوقعة المذكورة . ولكننا نجد الترجمة الوافية للنويرى السكندرى فيما سجله عن نفسه فى مواضع متفرقة من كتابه ، ومنها نستدل على اسمه كاملاً وهو محمد بن قاسم بن محمد النويرى السكندرى ، وعلى مسقط رأسه (النويرة) بصعيد مصر ، وسبب نزوحه إلى الإسكندرية التى دخلها فى ذى الحجة سنة ٧٣٧هـ / يوليو ١٣٣٧م واستمد منها نسبته الأخرى السكندرى ، وتزوجه بالثغر ، وحرفة النسخ التى كان يمتهنها ، ثم خروجه من الإسكندرية هاربًا بنفسه وعياله إبان غارة القبارصة على الإسكندرية ، ثم رجوعه إليها ، وتاريخ بداية تأليفه لكتابه وفراغه منه (٤).

---

(١) ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل ، بيروت (بدون تاريخ) ، ١٤٢/٤ .

(٢) السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، عنى بنشره القدسى ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٣٤٩هـ ، ص ١٢٢ .

(٣) حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله ، المعروف بكاتب جلبى) : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، عنى بتصحيحه شرف الدين يلتقايا ورفعت بيلكة الكليسى ، مطبعة وكالة المعارف ، استانبول ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م ، ١ / العمود رقم ٢٨٢ .

(٤) راجع : النويرى السكندرى : الإلمام ، ٢١٩/٢ - ٢٢٢ ؛ ٥٠/٤-٥١ ؛ ولكن انظر أيضًا : تعليقات الدكتور درويش النخيلى فى : كاله (باول) : صورة عن وقعة الإسكندرية فى عام ٧٦٧هـ /=

ولقد حفز النويرى السكندرى على تأليفه كتابه - كما يذكر فى ترجمته لنفسه - طول إقامته بالإسكندرية ومحبته لها ولأهلها ، وحبًا فى المرابطة بثغر من ثغور الجهاد . وإنصاف إلى كل ذلك السبب الجوهرى ، وهو ما نزل بالإسكندرية من خراب ودمار خلال غارة الملك بطرس دى لوزنيان عليها ، فألف كتابه " ليقف عليه من يأتى من المسلمين بعد عصره ويعلموا منه ما وقع بها من أحداث ، وحتى يكون هذا دافعًا لمن يأتى من ملوك مصر للعمل على حفظها من غارات الفرنج بتقوية حاميتها وتعزيز حراستها " [١].

وقد نص النويرى السكندرى على أنه ابتدأ فى تأليف كتابه فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٧هـ / فبراير ١٣٦٦م أى بعد الوقعة بنحو خمسة أشهر ، ثم نص على أنه انتهى منه فى ذى الحجة من سنة ٧٧٥هـ / مايو ١٣٧٤م . ولكن تحليل النصوص عنده يؤكد أنه لم يفرغ منه إلا بعد شهر رجب سنة ٧٧٩هـ / نوفمبر ١٣٧٧م ؛ إذ هو يسوق طائفة من النصوص تؤيد ذلك ، ولعله كان قد انتهى من جمع مادة كتابه ومن تسجيلها فى شهر ذى الحجة من عام ٧٧٥هـ / مايو ١٣٧٤م ثم شرع يضيف ما استجد من حوادث حتى شهر رجب من سنة ٧٧٩هـ [٣].

كل هذا يجرنا إلى تحديد تاريخ وفاة النويرى السكندرى ، وهو تاريخ مجهول حتى الآن مثل تاريخ مولده الذى لم يذكره النويرى فى ترجمته لنفسه ، ويرجح الدكتور النخيلى أنه

= ١٣٦٥م ، من مخطوطة : الإلمام " للنويرى السكندرى ، ترجمة وتعليق درويش النخيلى وأحمد قدرى محمد أسعد " للنويرى السكندرى ، فى : مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ، دراسات أثرية وتاريخية (٣) ، مطبعة إسكندرية ، ١٩٦٩م ، ص ٥٨ - ٦٣ ، وهـ ٢٣ الواقع أوله فى ص (٥٨) ؛ وانظر له أيضًا فى مقدمته على : كاتب هندى مجهول ، كتاب مرآة العجايب فى وقعة الإسكندرية ، (من مخطوطة الهند لكتاب " الإلمام " للنويرى السكندرى ، يتضمن نصوصًا لم تنشر من قبل) ، (وهى النسخة المعروفة بنسخة المتحف البريطانى بلندن ضمن مجموعة برقم Or. 1738 والمخطوطة برقم (606) ، الطبعة الأولى ، مطبعة التونى ، الإسكندرية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ص ١٤ - ٢٢ .

(١) الإلمام ، ٢ / ٢٢٢ .

(٣) راجع تحليلات النخيلى بهذا الشأن ، فى : كاتب هندى مجهول ، كتاب مرآة العجايب ، ص ١٩ - ٢٢ ، من المقدمة . ولكن قارن : عزيز سوريال عطية : دراسة نقدية تحليلية لكتاب " الإلمام " ، فى دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٥ .

توفى فى أواخر سنة ٧٧٩هـ أو أوائل سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م . فهو لو كان حيًا بعد حوادث شهر رجب سنة ٧٧٩هـ أو بعد استهلال سنة ٧٨٠هـ لكان قد دون وقائع هذه الفترة كما فعل من قبل بعد حوادث سنة ٧٧٥ هـ التى أشرت إليها منذ قليل[١] .

وقد قام الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية بنشر كتاب " الإلمام بالإعلام " ما بين سنتى ١٩٦٨م ، ١٩٧٦ ؛ ولكنه تغاضى عن الكثير من النصوص الخاصة بالفترة التالية للوقعة[٢]. وجدير بالذكر أن سيادته قدم بحثًا قيمًا عن النويرى السكندرى ومؤلفه ، عبارة عن خلاصة دراساته عن هذا الموضوع وكتابه . هذه الدراسات التى امتدت أكثر من نصف قرن من الزمان ، وقد أفدنا منها فى رسالتنا هذه [٣].

ويدور الموضوع الرئيسى فى كتاب الإلمام حول الغارة التى شنها الملك بطرس دى لوزنيان ملك قبرص على الإسكندرية فى المحرم سنة ٧٦٧هـ / أكتوبر ١٣٦٥م . وقد أورد النويرى السكندرى هنا تفاصيل مسهبة لا نجدها فى المصادر العربية المعاصرة أو القريبة من المعاصرة أو المتأخرة . إلا أن ما جاء به النويرى السكندرى من أخبار هذه الوقعة يبدو كالشامة إلى جانب ما استطرد به حسب تعبير كل من ابن حجر والسخاوى[٤] فقد خرج النويرى كثيراً عن سياق الكلام فى الوقعة ، فأتى كتابه موسوعة حاوية لمعلومات شتى فى المعارف والعلوم وفنون القول المختلفة ، وألجأه هذا المنهج إلى تقطيع أوصال الكلام عن الوقعة ، فنجده متناثراً فى صفحات كتابه . ولكنه مع ذلك لا يتقيد بالتتابع المنطقى للأحداث ، بمعنى أنه يبدأ كلامه مشيراً إلى غارة الملك بطرس دى لوزنيان ، ثم يورد أحداثًا أخرى وقعت بعد

---

(١) فى : المصدر نفسه ، ص ٢٢ - ٢٤ من المقدمة . ولكن قارن : عزيز سوريال عطية : دراسات نقدية تحليلية لكتاب " الإلمام " ، فى دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٥ .

(٢) راجع مقدمة الدكتور النخيلى على المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩ - ٤٢ .

(٣) انظر عزيز سوريال عطية : أحد مصنفى الموسوعات السكندريين فى القرن الرابع عشر الميلادى / القرن الثامن الهجرى : دراسة نقدية تحليلية لكتاب " الإلمام " للنويرى الاسكندرانى " ترجمة وتقديم جوزيف نسيم يوسف ، مقال منشور فى : جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ، ١٩٨٣م.

(٤) انظر : ابن حجر : الدرر الكامنة ، ١٤٢/٤ ؛ السخاوى : الإعلان بالتوبيخ ، ص ٢٢ .

الغارة ، ثم يعود للكلام عن الوقعة ذاتها وهكذا[١] . وسوف نحاول من خلال بحثنا هذا أن نرتب مضمون كلامه عن الوقعة من غير أن نتقيد بما جاء فى كتابه من تقديم وتأخير ينعدم معه التسلسل المنطقى للأحداث فى أحيان كثيرة .

ويتلخص ما جاء به النويرى فى ذكره للمنامات التى تنبأت بالوقعة وترجمة سريعة لبطرس دى لوزنيان ، والأسباب السبعة المشهورة التى دفعت بطرس إلى الإغارة على الإسكندرية ، وطواف بطرس بممالك أوربا داعيًا لحملته ، واستعداده لهذه الحملة طوال أربع سنوات فى سرية تامة ، ومنها إعداد المراكب فى رودس . وكل هذا يمثل مقدمات غارة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية . أما عن الوقعة نفسها ، فقد أورد التفاصيل المسهبة عنها بدءًا بظهور مراكب الفرنج بميناء الإسكندرية ثم الاستيلاء عليها ، وفرار أهلها منها ، وتعرضها لعمليات السلب والنهب والتدمير والحرق والقتل طوال الثلاثة أيام الأولى من الحملة ، ثم رحيل بطرس عنها بمراكبه المحملة بالمغانم والأسرى . ويستكمل الموضوع عناصره بتلك النتائج التى يوردها النويرى للوقعة وصداها سواء فى العالم الإسلامى بشرقه وغربه وفى العالم المسيحى الأوروبى، وما تبع ذلك من حوادث متصلة بالوقعة أيضًا خاصة مفاوضات الصلح الى ظلت تدور بين قبرص ومصر ، والدور الذى قام به كل من البنادقة والجنوية والكتيلان فى هذه المفاوضات .

ويحفل كتاب الإلمام بالإعلام بالمصادر العديدة تختص بالعلوم والمعارف التى أوردها فى كتابه على سبيل الاستطراد ، ولا شك أن مهمته كناسخ قد ساعدته على التعرف على كل هذه المصادر [٢].

أما مصادره عن الوقعة ذاتها ، فهو نفسه المصدر الأول والأعلى للموضوع خاصة فى اليومين الأولين قبيل الوقعة وفى يوم الوقعة نفسها والتى فر فيها بنفسه وعياله من

---

(١) انظر :عزيز سوريال عطية : دراسة نقدية وتحليلية لكتاب " الإلمام " ، فى دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن النويرى كمؤرخ وتقييم التراث الذى خلفه ، انظر : عزيز سوريال عطية : دراسة نقدية تحليلية لكتاب " الإلمام " فى دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٩٥ - ١٩٦ ، ٢٣٥ - ٢٣٦ .

الإسكندرية ؛ فقد كان شاهد عيان وصف كل ما شاهده ثم رواه . أما بعد رجوعه إلى الإسكندرية ، فقد اعتمد علي شهود العيان أيضًا من أهل الثغر ممن بقوا إلى نهاية الوقعة ، فاستمد منهم المعلومات عما لم يتمكن من مشاهدته بنفسه قبل هروبه علاوة على روايتهم عن الأحداث فى بقية أيام الوقعة ، بالإضافة إلى الأسرى الذين عادوا بعد فك أسرهم من قبرص أو الأراضى الأوروبية وزودوه بمعلومات جديدة عن الوقعة قبل أسرهم ، واعتمد على هؤلاء الأسرى أيضًا فى التعرف على أحوالهم فى أسرهم ، وأحوال البلاد التى نقلوا إليها ، ثم ما سجله من أخبار كانت ترد من مختلف أنحاء العالم الإسلامى عن طريق التجار والحجاج ، بالإضافة إلي ما دونه عن غارات القبارصة على الشام وآسيا الصغرى بعد الوقعة ، وأيضًا المناوشات التى حدثت فى الإسكندرية نفسها ، وكذلك أخبار المفاوضات التى كانت تدور بين مصر والقبارصة ، ولعله استمدها من السجلات والوثائق الرسمية .

أما جيوم دى ماشو وكتابه الذى يؤرخ فيه للملك بطرس والحملة . فيحيط الغموض بتاريخ مولده . إلا أن الكونت لويس دى ماس لاترى فى مقدمته التحليلية على كتاب ماشو يرجع سنة ١٢٨٤م / ٦٨٣هـ تاريخًا لمولده بقرية ماشو فى مقاطعة شمبانيا بفرنسا ، ومن اسم هذه القرية استمد لقبه دى ماشو ، وهو ما سجله فى ديوانه فيقول : " إننى أدعى جيوم ، ولقبى هو دى ماشو " (١).

وينحدر ماشو من أسرة متوسطة الحال ، ولكنه أصبح معروفًا فى فرنسا وخارجها نظرًا إلى تعدد مواهبه . فقد كان موسيقيًا وشاعرًا ومؤرخًا ، والتحق بخدمة ملوك فرنسا وأمرائها ، فأصبح من رجال البلاط والإدارة ، وتوفى ماشو فى مقاطعة شمبانيا بفرنسا فى سنة ١٣٧٧م / ٧٧٩ هـ وهو فى نحو الثانية والتسعين من عمره (٢).

ولقد قام ماشو بكتابة حوليته المنظومة باللغة الفرنسية القديمة بدافع من شعور مزدوج هو إعجابه البالغ بالملك بطرس دى لوزنيان الذى ازدادت شهرته بما قام به من رحلات إلى أوربا

---

(١) فى Machaut, p. xii (Preface) :

Je, Guillaumes dessus nommés,

Quide Machautsui sournmmés.

(٢) فى : Machaut, p. xviii (Preface) ؛ وراجع ترجمة سريعة عن الشاعر " ماشو " فى :

Bossuat (Robert), La Poésie Lyrique au Moyen Age, 5e Édition (n.d.), p. 81.

للدعوة إلى حملته المشهورة ضد المسلمين ، إلى جانب دافع آخر هو تلك الصدمة العنيفة التى أحدثها اغتيال الملك نفسه .

ويعتبر كتاب " الاستيلاء على الإسكندرية " أهم مؤلفات ماشو وآخر أعماله الكبيرة . وعلى الرغم من أن قيمته الأدبية هى دون المتوسط كما يذكر ناشره ، إلا أن له أهميته التاريخية الكبرى : إذ هو يسجل فيه أهم حدث فى حياة الملك بطرس دى لوزنيان وهو غارته على الإسكندرية . ويقص فيه علينا سيرة هذا الملك ، فترك لنا بذلك وثيقة معاصرة قيمة عن تاريخ جزيرة قبرص والشرق اللاتينى ، وهو عبارة عن ديوان شعر يضم حوالى تسعة آلاف بيت من الشعر . وقد بدأ ماشو كتابته فى عام ١٣٦٩م / ٧٧١هـ وهو فى سن الخامسة والثمانين ، وأنهاه فى عام ١٣٧٢م أو ١٣٧٣م / ٧٧٤ أو ٧٧٥هـ . وقام على نشر الكتاب مع مقدمة تحليلية باللغة الفرنسية الحديثة الكونت لويس دى ماس لاترى فى سنة ١٨٧٧م عن خمس مخطوطات منها أربع نسخ محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ، والخامسة محفوظة فى المكتبة الخاصة بالمركيز دى فوجيه[١] Marquis de Vogué . ويستهل ماشو كتابه بتاريخ محدد هو ٩ أكتوبر سنة ١٣٢٩م / ٢٥ ذى الحجة ٧٣٠ هـ تاريخًا لمولد بطرس دى لوزنيان ، وينهيه بتاريخ ١٧ يناير سنة ١٣٦٩م / ٧ جمادى الآخرة ٧٧٠هـ وهو تاريخ مقتل الملك بطرس دى لوزنيان ، وإن كان يسبق هذا تحديد آخر خاطىء لهذه الوفاة هو ٢٨ يناير ١٣٦٩م . ١٨ جمادى الآخرة ٧٧٠هـ[٢] ، سوف أشير فى موضعه إلى السبب الذى حدا بوقوع ماشو فى هذا الخطأ .

أما ما يحتويه الجزء الأعظم من الحوادث التى تقع بين هذين التاريخين ، فهو ما سرده ماشو عن غارة الملك بطرس على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م/ ٧٦٧هـ ، بالإضافة إلى مقدماتها والأحداث التالية عليها حتى سنة وفاة الملك بطرس سنة ١٣٦٩م / ٧٧٠هـ ومن ذلك رحلات بطرس إلى الغرب لإعداد تحالف بين القوى المسيحية فى أوربا ، وهو ما لم تثبت الحوادث نجاحه فيها تمامًا ، ثم مسير الأسطول والجيش الذى جمعه بصعوبة بالغة بفضل تفانى الذين ساعدوه مثل فيليب دى مزيير وبطرس دى توماس ، وما أمدته به البابوية من أموال وبفضل

---

(١) فى : . Machaut, p. xxviii (Preface)

(٢) راجع ما جاء فى الفصل الخامس من هذه الدراسة ، ص ٢١٩ .

الإسهام الفعلى لفرسان الإسبتارية فى رودس ثم الهجوم على الإسكندرية والاستيلاء عليها ونهب المحلات والمخازن التى استولى منها الأوربيون على توابلها وأقمشتها الثمينة التى عادوا بها إلى بلادهم ، وأسر العديد من سكانها من الأطفال والنساء والرجال ، ثم اضطروا الملك إلى الجلاء عن الإسكندرية بعد اعتراضات كثيرة ، ثم حملاته اللاحقة على بلاد القرمان فى جنوب آسيا الصغرى وعلى الشام الموجهة ضد الأتراك والمماليك حسب التغييرات المفاجئة التى تعترى مفاوضات السلام ، وما يقابلها من صعوبات ، وهى المفاوضات التى كانت تجرى فى قبرص أو فى القاهرة والتى تتوسط فيها المدن الإيطالية بين الطرفين .

وإذا نحن طرحنا جانبًا بعض الأحداث التى أوردها ماشو والتى تتسم بعدم الدقة وبعض الغموض ، فإن الرواية التى ساقها تعتبر رواية مقبولة ومتماسكة تتوالى فيها الأحداث التفصيلية والدقيقة ، وهى الأحداث التى ينص ماشو فى أكثر من موضع على أنه استقى مادتها من شهود عيان تمتاز معلوماتهم بالجودة سواء فيما يتصل بغارة بطرس على الإسكندرية أو الأحداث السابقة عليها واللاحقة لها . ولكن تجدر الملاحظة هنا أن بداية مقدمة الكلام عن بطرس دى لوزنيان ومولده إنما كانت بداية أسطورية عن ميلاده والذى يشرك فيها الكاتب عن طريق لمحة شعرية أكثر الآلهات (الأولمب) الذين قاموا على تربيته وتعليمه . وأيضًا يمكن أن يقال فيما يتعلق بالنهاية التى اختتم بها ماشو روايته عن حياة الملك بطرس دى لوزنيان بأن فيها من الاضطراب وعدم التناسق ما فيها ، خاصة فيما ذكره عن اغتيال بطرس والملابسات المحيطة بهذه الحادثة . فهو يحدد تاريخ الاغتيال بالثامن والعشرين من يناير ١٣٦٩م / ١٨ جمادى الآخرة ٧٧٠هـ فى حين أن الثابت - كما يذكر الناشر أن مقتل الملك بطرس إنما تم فى يوم ١٧ يناير سنة ١٣٦٩م / ٧ جمادى الآخرة ٧٧٠هـ ، ويعلل ماس لا ترى هذا الخطأ من جانب ماشو بأن مقتضيات القافية فى أبيات شعره الأخيرة اضطرته إلى وضع التاريخ الخطأ بدلاً من التاريخ الصحيح ، وهو ما لاحظه أيضًا بالنسبة إلى بعض الكلمات التى تغير من المعنى المقصود نزولاً على أحكام القافية[(١)] .

على كل حال ، فمن الثابت أن ماشو لم يشهد وقعة الإسكندرية ، بل هو لم يذهب قط إلى الشرق ، فكان لذلك تنقصه التفاصيل الحقيقة عن الأحداث . إلا أنه قدم خلال شعره دراسات

---

(١).فى : Machaut, p. xxvi (Preface) .

هامة فى الموضوع ؛ إذ كان على اتصال بالمعاصرين ممن شهدوا الوقعة وشاركوا فيها من رجال السلاح من مقاطعة شمبانيا الذين خدموا مع كثير من الغربيين فى الجيوش القبرصية ، واستقى منهم بعد عودتهم المعلومات الشفوية [١]، وقد نص ماشو على اسم كل من جان دى ريمس[٢] Jean de Reims وجوتييه Gautier ودى كونفلان[٣] de Conflans ، بالإضافة إلى ما كان يجمعه من معلومات تلقاها ممن كان يكاتبهم من أصدقائه ممن شاركوا فى الوقعة أيضًا . ويبدو إلى جانب هذا أنه قد اطلع على الخطابات المتبادلة بين الملك بطرس وبعض الشخصيات الفرنسية البارزة . ثم هو إلى هذا قد أكمل هذه المعلومات عن الهجوم على الإسكندرية من ذكرياته وملاحظاته الخاصة التى كونها من اتصاله بكثير من الأشخاص الذين كانوا يعرفون منطقة الشرق ، ومن تعرفه على الموظفين والخدم الذين جاءوا مع الملك بطرس إلى أوربا ، فقد كان على صلة ببعض حجاب الملك بطرس خاصة برمونت دى لافولت فارس دى فيفاريه . ومن الراجح أنه رأى بيرسيفال دى كولونى وهو حاجب آخر للملك الذى أقام مرتين فى باريس والبلاط حيث كان معروفًا فى سنة ١٣٦٤م/٧٦٦هـ خلال رحلة بطرس الأولى إلى الغرب ، وسنة ١٣٦٧م / ٧٦٩هـ حينما كلفه الملك بإعداد المبارزة مع فلوريمونت[٤] . وربما استمد منه ماشو معلومات عن مدينة الإسكندرية فيما قبل الوقعة ، إذ كان بيرسيفال الكولونى قد زار الإسكندرية قبل الوقعة حيث أخذ أسيراً بها وتمكن من التعرف على مواطن الضعف فيها [٥]. ومن المرجح أن ماشو قد قابل الملك بطرس نفسه عند وجوده فى فرنسا سنة ١٣٦٤م خلال رحلته الأولى التى أشرنا إليها . ولعل هذه المقابلة قد تمت فى باريس أو فى مدينة ريمس كما يذهب إلى هذا دى ماس لاترى ناشر ماشو . ومن المرجح ، أيضًا ، أن ماشو قد تعرف فى هذه المقابلة على ما كان من حياة الملك بطرس إبان السنوات الأولى من حكمه .

---

(١) فى : Machaut, p. xix (Preface) .

(٢) فى : Machaut, pp. 179 - 180 .

(٣) Mas Latrie, dans: Machaut, pp. xxiii- xxiv (Preface) .

(٤) Mas Latrie, dans : Machaut, p. xix (Preface) .

(٥) انظر ما جاء هنا فيما بعد ، الفصل الرابع ، ص ١٧١ .

ومن الملاحظ فى هذا الصدد أن المعلومات أو الملاحظات التى سجلها ماشو عن هذه السنوات الأولى تعد صحيحة بشكل عام ، إذ تؤيدها حوليات جزيرة قبرص ووثائقها الأصلية (١).

وهكذا تتلخص مصادر ماشو فى تلك المعلومات الشفوية التى استقاها من المحاربين من أهل مقاطعة شمبانيا أو البيانات المكتوبة التى استمدها من أصدقائه وممن كان يكاتبهم ، وأكملها بملاحظاته الخاصة فيما يختص بالهجوم على الإسكندرية . ويرى دى ماس لاترى أن ما سجله ماشو عن وقعة الإسكندرية كان معروفًا بشكل كاف داخل فرنسا مثل كتاباته الأخرى فى المعارف المختلفة . إلا أنه يبدو أن كتابه عن الهجوم على الإسكندرية لم يستخدمه كتّاب العصور الوسطى من أمثال مخيراس القبرصى واسترامبالدى الإيطالى وغيرهما . وما قد يكون هناك من تشابه أحيانًا فى ذكر بعض الوقائع أو النصوص إنما يرجع إلى أنهم قد استمدوا معلوماتهم من وثائق العصر .

أما ليونتيوس مخيراس فنلاحظ أول ما نلاحظه عند الترجمة له أن تاريخ مولده ووفاته غير معروفين تمامًا . إلا أن دوكنز Dawkins فى مقدمته على كتاب مخيراس يرى أن عام ١٣٨٠م / ٧٨٢ هـ (٢) ، هو أقرب تاريخ يمكن تحديده لمولده بعد مناقشة تحليلية لبعض نصوص الكتاب ، ولكنه لم يذكر لنا أى تاريخ لوفاته ، إلا أننا قد لاحظنا أن مخيراس ينهى كتابه بسنة ١٤٥٨م / ٨٦٣هـ وهى سنة اعتلاء الملكة شارلوت ابنة الملك يوحنا الثانى عرش قبرص، مما يصح معه أن نرجح أن مخيراس قد توفى بعد هذا التاريخ بقليل وهو يناهز السابعة والثمانين من عمره ، على الرغم من أن الفقرة الأخيرة من كتابه والتى تحتوى على هذا التاريخ تشير إلى وفاة الملكة شارلوت نفسها من غير تحديد لتاريخ الوفاة وهو سنة ١٤٨٧م / ٨٩٣هـ، مما حدا بالناشر دوكنز إلى اعتبار هذا النص الأخير الخاص بوفاة الملكة شارلوت كلامًا مضافًا إلى آخر نص فى كتاب مخيراس ، وإلا لكان مخيراس قد تجاوز السابعة بعد المائة من عمره عند هذا التاريخ الأخير (٣) ، وهو أمر بعيد الاحتمال .

---

(١) فى : Machoaut, p. xix (Preface).

(٢) فى : Makhairas, II , p. 16.

(٣) فى : Makhairas, II, p. 21 .

وكان ليونيتوس مخيراس مواطنًا قبرصيًا يونانيًا أرثوذكسيًا شديد الإعجاب بملوك أسرة دى لوزنيان الفرنسية ، على الرغم من كونهم ملوكًا يخالفون القبارصة فى الأصل والعقيدة . وهو ينحدر من ناحية فى قبرص ينسب إليها أيضًا ديرماخيرا إلى الجنوب الغربى من نيقوسيا[١]. وهو ينص فى بعض كلامه على لقبه العائلى (مخيراس) ، وهناك نصوص كثيرة فى كتابه تدل على أنه ينتمى إلى أسرة كان لها وضعها الاجتماعى الممتاز فى قبرص[٢]. وتحديد تاريخ مولده بسنة ١٣٨٠م - كما سبقت الإشارة إليه - دليل على أنه لم يكن معاصراً لعهد بطرس الأول دى لوزنيان وبالتالى لغارته على الإسكندرية فى سنة ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ .

ولقد تقلب مخيراس فى عدة وظائف منها عمله فى سنة ١٤٠١م/ ٨٠٤هـ ككاتب أو سكرتير - لسير جون دى نورس الذى شوه جثة الملك بطرس الأول بعد مقتله ، وعمل أيضًا فى سنة ١٤٢٦م / ٨٣٠هـ فى وظيفة حفظ النبيذ بأمر من الملك جانوس عندما كان القتال يدور بين المماليك فى حملتهم على قبرص فى تلك السنة وبين القبارصة عند خيروكيتا الواقعة فى الشمال الشرقى من ليماسول ، وشارك فى السفارة التى أنفذها الملك جون الثانى فى سنة ١٤٣٢م/ ٨٣٦هـ إلى إبراهيم بك القرمان الأكبر صاحب العلايا بآيا الصغرى ؛ وهناك إشارة عند الكلام على هذه السفارة تدل على أنه كان يجيد اللغة الفرنسية [٣].

ويؤرخ مخيراس فى كتابه لموطنه جزيرة قبرص ولملوكها باللغة اليونانية العامية بلهجة قبرصية محلية تندر فيها اللغة اليونانية الفصحى وتمتزج بها بعض الكلمات الفرنجية [٤]. وقد قام بأحدث نشرة لتاريخ مخراس فى سنة ١٩٣٢م/ ١٣٥١هـ الأستاذ ر. م. دوكنز R. M. Dawkins فى جزئين ، يتضمن الجزء الأول النص اليونانى القبرصى مع ترجمة له باللغة الإنجليزية بالإضافة إلى مقدمة الناشر التحليلية ، ويحتوى الجزء الثانى على الحواشى الذى علق فيها دوكنز على النص الأصلى . وقد اعتمد الناشر على مخطوطتين لنشر الكتاب :

---

(١) Dawkins, in : Makhairas, II, pp. 4-5 .

(٢) Dawkins, in : Makhairas, II, p. 15 .

(٣) Dawkins, in : Makhairas, II, pp. 15-16 .

(٤) Dawkins, in : Makhairas, II, p. 1.

إحداها تكاد تكون كاملة ومحفوظة بالمكتبة الوطنية فى البندقية ويرجع تاريخ نسخها إلى القرن السادس عشر ، والثانية ناقصة فى عدة مواضع ومحفوظة بمكتبة بودليان فى أكسفورد ويعود تاريخ نسخها إلى سنة ١٥٥٥م / ٩٦٣هـ [١].

ويستهل مخيراس تاريخه بمقدمة يتكلم فيها على بعض القديسين ، ويقصرها بشكل أساسى على التاريخ الكنسى لجزيرة قبرص ، ثم يستعرض بالتفصيل حكم أربعة ملوك من أسرة دى لوزنيان هم بطرس الأول ، وبطرس الثانى ، وجيمس الأول وإبنه جانوس ، وذلك خلال الفترة من سنة ١٣٥٩م إلى سنة ١٤٣٢م / ٧٦١ - ٨٣٦ هـ . ويوجز مخيراس بعد ذلك الكلام على حكم الملك جون الثانى مع إشارة سريعة إلى تولية ابنته شارلوت العرش فى سنة ١٤٥٨م / ٨٦٣هـ مع ورود تلك الإضافة إلى أصل كتابه والتى أشرنا إليها منذ قليل عن وفاة تلك الملكة فى سنة ١٤٨٧م / ٨٩٣هـ .

ويترجم مخيراس للملك بطرس الأول دى لوزنيان فى شطر كبير بداية من توليته العرش فى سنة ١٣٥٩م / ٧٦٠هـ إلى وفاته فى سنة ١٣٦٩م / ٧٧٠هـ . ويتخلل هذا كلامه على غارته على الإسكندرية فى سنة ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ فى إيجاز ملحوظ ، وما سبق هذه الغارة من استعدادات وما أعقبها من مفاوضات وأحداث .

وقد استمد مخيراس مادة كتابه من مصادر ثلاثة رئيسية ، هى المصادر المكتوبة ، والمصادر الشفوية ، وما سجله بنفسه من أحداث عصره . ولا يعنينا هنا من كل ذلك إلا ما كان له علاقة بفترة حكم الملك بطرس الأول دى لوزنيان خاصة ما كان يتصل بغارته على الإسكندرية .

أما عن المصادر المكتوبة ، فهو يسجل الاحتفال بتتويج بطرس الأول نقلاً مما وجده مدونًا أو مكتوبًا من غير تحديد لهذه المصادر ، وهى إما بعض الكتب التى أشار إليها ، أو السجلات والوثائق الرسمية نفسها التى من الراجح أنها تعرضت لوقائع غارة بطرس على الإسكندرية[٢] .

---

(١) Dawkins, in : Loc. cit .

(٢) Dawkins, in : Makhairas, II, pp. 12 - 14 .

وعندما يؤرخ مخيراس لجيمس الأول الذى تولى بعد بطرس الثانى ، يشير إلى الكتاب الذى ألفه الفارس سير جون دى ميمار Sir John de Mimars المعاصر لبطرس الأول من غير أن يحدد عنوان هذا الكتاب . وهناك من التفاصيل المستمدة بلا شك من هذا الفارس عن حياة بطرس الأول وأعماله خاصة غارته على الإسكندرية .

ويرى دوكنز أن هناك كتابًا آخر - مجهول العنوان أيضًا - بقلم ديمتريوس دانييل اليونانى Dimitrois Daniel المولود حوالى سنة ١٣٥٥م / ٧٥٦هـ ، وهو السكرتير الشاب للملكة ليونورا أرملة بطرس الأول وأم بطرس الثانى ، اعتمد عليه مخيراس من غير أن يذكر هذا الكتاب . وكان ديمتريوس بحكم وظيفته فى البلاط على صلة بالوثائق الرسمية ، ومن هنا يرى دوكنز أن ما جاء به مخيراس من تفاصيل للأحداث التى وقعت قبل مولده خاصة ماجاء عن الشطر الأخير من عهد بطرس الأول إنما هو تلخيص دقيق من كتاب ديمتريوس دانييل عزز به تاريخه مع غيره من المصادر التى أدمجها فى بعضها فوسّع بذلك مادة كتابه .

أما عن المصادر الشفوية . فمنها المعلومات التى أمده بها فيليب الكاهن مربى بطرس الثانى ابن بطرس الأول وعم مخيراس نفسه ، هذا إلى ما نقله من معلومات شفوية استمدها من نساء كن يعملن بالبلاط وامتد بهن العمر وروين له ما كان يحدث فى الستينات من القرن الرابع عشر خاصة ما كان من غراميات الملك بطرس الأول ، ولعلهن أشرن مع عم مخيراس وغيره من شيوخ عصره إلى ما كان من أعمال بطرس الأول خاصة وقائع غارته على الإسكندرية [(١)].

على كل حال نلاحظ أول ما نلاحظ أن النويرى السكندرى وماشو كمعاصرين للأحداث يتفقان إلى حد كبير فيما أورداه من وقائع وتفاصيل وافية عن غارة الملك بطرس ذاتها ، وفيما جاءا به من مقدمات لهذه الغارة من حيث الاستعداد لها وما سجلاه من أحداث بعدها . ولا شك أن ذلك يرجع أول ما يرجع إلى اعتماد النويرى على ما شاهده بنفسه من بعض الوقائع ثم ما استقاه من أفواه من بقى بالإسكندرية من أهلها خلال الوقعة أو ممن عادوا من الأسر أثناء مفاوضات الصلح بين مصر وقبرص .

---

(١) Dawkins, in : Makhairas, II, pp. 14 - 15 .

أما ماشو ، فهو وإن لم يشهد الوقعة إلا أن مصادره فى هذه الناحية تكاد تنحصر فى المشاركين فى الوقعة وفى شهود العيان من المحاربين فى جيش الحملة والذين عادوا إلى فرنسا بعد الوقعة ، فقصوا عليه ما شاهدوه وشاركوا فيه . هذا ، علاوة على اتصالاته الشخصية بأمثال جون دى ريمس وبيرسيفال الكولونى حاجبى الملك بطرس والمكاتبات التى دارت بينه وبين أصدقائه ممن شاركوا فى الأحداث وعلى الرغم من اختلاف كل من النويرى وماشو فى الهدف الذى دونا من أجله أحداث هذه الحملة ، فالنويرى كتب كتابه تأثراً لما حدث بالإسكندرية وما انتابها من تدمير وخراب على أيدى القبارصة بعدما كانت من أجمل مدن الدنيا [١]. أما ماشو فقد أرّخ لحملة الملك بطرس إعجابًا منه بشخصية بطرس وتخليداً لذكراه. إلا أن كتاباتهما جاءت متفقة فى كثير من الأحيان ، وإذا أوجز أحدهما فى ناحية أو لم يذكر حدثًا معينًا نجد أن الآخر قد أتى به فى إسهاب ؛ أو بمعنى آخر أن ما أورده كل من النويرى وماشو إنما يكمل بعضه البعض .

وسوف أقصر هنا الدراسة المقارنة على كل من النويرى السكندرى الذى يمثل الجانب الإسلامى المعاصر وماشو الذى يمثل الجانب الغربى المعاصر أيضًا ، مع الإشارة إلى المصادر الأخرى مثل فيليب دى مزيير ومخيراس وآمادى واسترامبلادى ، إلى جانب ابن كثير وابن حبيب والمقريزى وابن تغرى بردى فى بعض نقاط الاختلاف أو الاتفاق .

أما عن التفاصيل فنرى اتفاق النويرى وماشو فى جوانب كثيرة فيما يتصل بالاستعدادات التى سبقت الوقعة ذاتها . ومن ذلك ارتحال الملك بطرس إلى أوربا - أو أرض الرومانية كتعبير النويرى - لإقناع ملوكها بالمشاركة فى مشروعه الصليبى . وينص النويرى هنا على أن الرحلة قد امتدت أربع سنوات [٢]، ولكنها استغرقت فى الواقع نحو ثلاث سنوات . إذ خرج بطرس الأول من قبرص فى ٢٤ أكتوبر ١٣٦٢م / ٤ من المحرم ٧٦٤ هـ فيما ينص عليه كل من فيليب دى مزيير ومخيراس [٣]. ولا يذكره ماشو بالتحديد ، ولكنه ينص على أن الملك بطرس قام فى ثالث سنة من حكمه بزيارته للغرب للدعوة إلى حملته . وينفرد ماشو هنا

---

(١) Breccia : (E.) Alexandrea and AEgyptum, Bergamo, 1914, p. 50 .

(٢) راجع النويرى السكندرى : الإلمام ، جـ ٢ ، ص ١١٠ .

(٣) انظر ما جاء فيما بعد فى الفصل الثانى ، ص ١١١ - ١١٢ .

بإيراد تفاصيل مسهبة عن زيارة بطرس إلى كل من البابوية فى أفينيون وباريس وريمى وانجلترا وألمانيا وباقى المدن الأوربية ، ويتفق أيضًا كل من ماشو والنويرى على أن الملك بطرس قبل إغارته على الإسكندرية قد اتخذ من جزيرة رودس قاعدة لإسطوله لأنها دار صناعة الفرنج كما فى كلمات النويرى السكندرى .

ويؤكد كل من ماشو ومزيير ومخيراس أن وجهة الحملة قد ظلت فى طى الكتمان حتى اللحظة الأخيرة من الإقلاع . وهنا ينفرد ماشو بأن عملية الإعلان رسميًا عن وجهة الحملة إنما تمت بعد الإبحار من قرامبوزة Crambousa حيث توقفت المراكب بعيداً عنها ، ويحدد هذا بيوم الأحد الخامس من أكتوبر ١٣٦٥م / ١٧ من المحرم سنة ٧٦٧هـ وبعد صلاة الأحد مباشرة.

إلا أن النويرى السكندرى والمقريزى قد ذكرا أن الأخبار قد تسربت إلى الإسكندرية عن اعتزام الملك بطرس غزوها ، ولم يلق هذا اهتمامًا جديًا من الأتابكى يلبغا الخاسكى الذى استبعد ذلك .

أما عن أحداث الوقعة نفسها ، فنلاحظ أن النويرى السكندرى ينفرد عن غيره من المعاصرين والمتأخرين بتحديد يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة ٧٦٧هـ / الثامن من أكتوبر ١٣٦٥م تاريخًا لبداية ظهور أسطول القبارصة فى مشارف مياه الإسكندرية . ولكن النويرى وماشو اتفقا على تاريخ ظهور الأسطول على ساحل الجزيرة ، وذلك فى صباح يوم الخميس ٢١ المحرم سنة ٧٦٧هـ وهو الموافق - عند ماشو - عيد القديس دنيس أى يوم ٩ أكتوبر ، وقد اتفق معهما مخيراس فى ذلك التاريخ الأخير . إلا أن فيليب دى مزيير يختلف عن هؤلاء فى تحديد الساعة التى وصل إليها الأسطول إلى ساحل الجزيرة فيحدد ذلك بالساعة السادسة من مساء اليوم نفسه .

وقد اتفق ماشو والنويرى السكندرى فى ذكر الأجناس المشتركة فى الحملة . واختلف النويرى ومخيراس فى تحديد عدد مراكب أسطول الحملة ، أما ماشو فلم يهتم بذكر عدد مراكب الأسطول ، ونرى أن النويرى السكندرى يحدد هذا الأسطول بسبعين مركبًا ويتفق فى هذا كل من ابن تغرى بردى وابن إياس ، ولكن المقريزى يضيف إلى هذا العدد عشر قطع أخرى . ويفهم من كلام مخيراس أن الأسطول الذى تجمع فى رودس واتجه به الملك بطرس صوب الإسكندرية قد بلغ ١٦٥ مركبًا . وهو رقم يعززه ما جاء به آمادى فى هذا الصدد.

ويذكر النويرى أن عدد رجال الحملة قد بلغ ستة عشر ألفًا وهو ما لم يذكره ماشو . إلا أن فيليب دى مزيير المشارك فى الحملة وفى الإعداد لها حدد عدد أفراد الجيش بحوالى عشرة آلاف من الرجالة غير ألف فارس وغيرهم من الرماة والمنجنيقية ، وأربعة آلاف من الخيالة ، وهو ما يقترب كثيراً مما ذكره النويرى السكندرى .

وقد اتفق ماشو والنويرى على أن أسطول الحملة قد رسا فى الميناء الغربى ، وهو ما اتفق عليه أيضًا كل من فيليب دى مزيير ومخيراس .

واتفق النويرى وماشو على أن يوم الجمعة ٢٢ من المحرم / ١٠ أكتوبر هو يوم نزول الفرنج إلى ساحل الإسكندرية ، وهو نفس ما اتفقت عليه المصادر الأخرى من غربية وإسلامية مثل فيليب دى مزيير ومخيراس واسترامبالدى وابن كثير وابن حبيب والمقريزى وابن تغرى بردى وابن إياس . ولكن هناك بعض الاختلافات فى تحديد الساعة التى نزل فيها المقاتلون إلى البر . فنرى النويرى السكندرى لايذكر ساعة نزولهم ، ولكنه يحدده بوقت الضحى أى عند ارتفاع النهار وقبل انتصافه ، ويتفق معه المقريزى فى هذا . أما ماشو فقد أغفل هذا التوقيت إلا أنه مع هذا يحدده بصباح اليوم التالي على الاحتفال بعيد القديس دنيس ، أى صباح يوم الجمعة العاشر من أكتوبر . ولكن ناشره دى ماس لاترى فى حاشية له يورد بأن فيليب دى مزيير الذى شارك فى الوقعة يحدد بكل دقة الساعة التى أمر الملك بطرس النزول فيها إلى الشاطىء، وهى الساعة التاسعة صباحًا ، أما مخيراس فلا نجد عنده أية إشارة تحدد ساعة النزول .

وأما عن المعركة التى دارت بين رجال الحملة والمغاربة وحامية الإسكندرية فى منطقة الجزيرة فقد أورد فيها كل من النويرى السكندرى وماشو تفاصيل مسهبة يكمل بعضها الآخر وتزيد من وضوح الصورة ، وخاصة بعض مشاهد البطولات الفردية ، ثم المشهد الأخير وهو فرار الأهالى فى اتجاه باب البحر للاحتماء بأسوار المدينة وصعوبة إغلاق باب البحر من كثرة الجثث الملقاة أمامه .

أما عن اقتحام الأسوار إلى داخل المدينة ، فقد حدده النويرى السكندرى بوقت العصر من يوم الجمعة المذكور ، وهو ما لم يقم ماشو بتحديده ، وقد ذكره فيليب دى مزيير على أنه الساعة الثالثة وأورده مخيراس على أنه الساعة الرابعة بعد الظهر .

ويتميز كل من النويري السكندري وماشو بإيراد تفاصيل مسهبة عن عملية اقتحام أسوار المدينة وعما فعله الفرنج بها من نهب وقتل وتحريق وتدمير وأسر . وإذا تتبعنا تفاصيل عملية الاقتحام هذه نجد أن ماشو يأتي بتفاصيل من جانبه لم يذكرها النويري السكندري . ومن ناحية أخرى نلاحظ أن النويري السكندري قد أتى بتفاصيل لم يوردها ماشو . إلا أننا إذا جمعنا كلام كل منهما نجدهما يكونان صورة متكاملة عن أحداث الاقتحام والقتل والفرار : فماشو يصور لنا العملية الأولى لاقتحام الأسوار من ناحية باب البحر وفشلهم فيها ، ثم ما كان بعد ذلك من اجتماع الملك بطرس بقادته للمرة الأولى وما دار بهذا الاجتماع حول تخوفهم من الفشل في اقتحام المدينة والإذعان أخيراً لرغبة الملك بطرس في القيام بالمحاولة الثانية ، التي تمت بالفعل ، ولكنها تمت هذه المرة من ناحية باب الديوان وفشلهم في البداية ثم نجاحهم أخيراً بفضل اكتشاف فتحة في أسفل السور .

أما النويري فهو يكمل الصورة من جانبه ، معللاً نجاح الفرنج في اقتحام المدينة بعدم وجود حراسة في تلك الناحية من السور ، وذلك لغلق باب الديوان الذي يلي البلد (الباب الداخلي) خوفًا على البضائع الموجودة في ميناء .

ثم تأتي بعد ذلك مشاهد القتل التي تمت بوحشية وقسوة وعدم التفرقة في ذلك بين مسيحي ومسلم ، والتي أسهب كل من النويري السكندري وماشو في ذكرها . ولكن النويري السكندري يتميز عن ماشو بذكر تفاصيل عملية فرار أهالي الإسكندرية من أبواب البر (باب السدرة وباب رشيد وباب الزهري) وقيام أهالي الإسكندرية بحرق باب رشيد وباب الزهري لتسهيل عملية الفرار لهم ولتمكين دخول جيوش النجدة من القاهرة . ثم بعد ذلك يسهب ماشو في وصف محاولة الملك بطرس لتحطيم الجسر المقابل لباب السدرة وعملية التشديد في وضع الحراسة على الأبواب المنفتحة ، وتوالي عمليات تتبع الأهالي في جميع شوارع الإسكندرية ، ثم المعركة التي دارت بين الملك بطرس وجنوده وبين بعض المتسللين من الجند، إلا أنه قد بالغ فيها بشكل واضح ربما بقصد إظهار بطرس الفارس المغوار الذي يرضي غرور الغرب في هذا العصر .

وينفرد النويري السكندري دون جدال بإيراد ما حاق بالإسكندرية من تخريب وتحريق وقتل بشكل لا نجده في أي مصدر آخر غربي أو عربي . فقد أورد مشاهد القتلى وعدد ما حرق وما خرب بالإسكندرية على أيدي القبارصة في أكثر من مشهد يثير الأسى والحزن والاشمئزاز في النفوس .

ومن ناحيـة أخرى نرى ماشو يسهب فى تصوير الاجتماع الحربى الثانى الذى أمر الملك بطرس بعقده ، وما جاء فيه من تفاصيل وقرارهم الأخير بالإنسحاب . ومظاهر الحزن والأسى التى انتابت الملك القبرصى نتيجة لقرارهم هذا الذى وضعوه موضع التنفيذ الفعلى . ويكمل النويرى السكندرى الصورة بإيراده تفاصيل عن تحميل سفن الأسطول بالمغانم والأسرى وإلقاء ما فاض عن سفنهم فى البحر من متاجر الإسكندرية وكنوزها المنهوبة . وينفرد النويرى السكندرى أيضًا بذكره خبر عودة ابن عرام إلى الإسكندرية قبل مغادرة مراكب الحملة لمياه الإسكندرية ومحاولة تعطيل أسطول الملك بطرس عن الرحيل بالسعى فى المفاوضات الأولى بشأن استرداد الأسرى وفشله فى هذه المحاولة ، بعد أن أقلع الأسطول يوم الخميس ٢٨ المحرم سنة ٧٦٧هـ الموافق ١٦ أكتوبر ١٣٦٥م . وكذلك ينفرد النويرى السكندرى بذكره ردود الفعل الإسلامية فى كل من المشرق والمغرب الإسلاميين . أما ماشو فقد أورد ردود الفعل فى الغرب الأوروبى وما تلا هذا من مفاوضات الصلح بين مصر وقبرص وما كان يقطعها من غارات يقوم بها الملك بطرس على سواحل بلاد الشام وآسيا الصغرى ، وهذه المفاوضات أو المحادثات التى توسطت فيها المدن الإيطالية إلى جانب القطالونيين ، إلا أنه أنهى كتابه بمقتل الملك بطرس وقبل عقد الاتفاق الأخير على الصلح ، وتعتبر معلومات ماشو عن واقعة مقتل الملك بطرس غير دقيقة ويعتريها الاضطراب كما يذهب فى ذلك ناشره دى ماس لاترى . إلا أننا يمكننا الاعتماد على ما ذكره مخيراس فيما يتعلق بأحداث تلك الفترة الأخيرة ، ونلاحظ فى هذا الصدد تلك الدقة التى توخاها مخيراس فى تسجيلها .

ويمدنا النويرى السكندرى بوصف بما جرى من أمور وحوادث بعد الوقعة ، وهى الأمور التى تشتمل على مفاوضات الصلح وما حدث أثناءها من غارات الملك بطرس على سواحل الشام ومصر بالإضافة إلى أعمال القرصنة التى استمرت بعد موت الملك بطرس ومنها غارة القبارصة على الإسكندرية نفسها قبل إعلان مفاوضة الصلح الأخيرة .

هذا ، وينفرد النويرى السكندرى دون غيره من المؤرخين بتحديد تاريخ مفاوضات الصلح الأخيرة مع قبرص قرب أواخر سنة ٧٧٢هـ (ذى القعدة) وهو ما يوافق حوالى منتصف عام ١٣٧١م ، فى حين أورد مخيراس تاريخ هذه المفاوضات فى النصف الثانى من سنة ١٣٧٠م / أوائل سنة ٧٧٢هـ . وهناك من الدلائل الكثيرة التى تجعلنا نطمئن إلى الأخذ بالتاريخ الذى أورده النويرى السكندرى عن تلك المفاوضات والذى قمنا بتوضيحه فى الفصل الأخير من هذه الدراسة .

أما عن أهم ما كتب عن الحملة من جانب المؤرخين المحدثين ، فلعل أول دراسة هى التى قام بها يورجا فى كتابه عن فيليب دى مزيير ، وهى الدراسة التى احتلت فيها أخبار حملة بطرس دى لوزنيان حيزاً كبيراً بالنسبة لما كتبه من جاء بعده من المحدثين . ويعتبر يورجا أول من جمع فى دراسته عن الحملة بين المصادر العربية والأجنبية فقد رجع إلى المصدر العربى المعاصر النويرى السكندرى فى مخطوط برلين ، إلى جانب ما استشهد به من نصوص للمقريزى فى كتابه " السلوك " .

وهناك أيضًا كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية عن الحروب الصليبية المتأخرة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والذى أفرد فصلاً فى كتابه عن أحداث حملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية . إلا أنه مهد لهذه الدراسة بفصل آخر تناول فيه شخصية الملك بطرس وحروبه فى سواحل آسيا الصغرى ثم رحلته إلى الغرب الأوروبى . أما الفصل الخاص بالحملة نفسها ، فهو يهتم بأحداث الحملة ابتداء بتجميع الأسطول فى رودس ونهاية بمفاوضات الصلح بين قبرص ومصر . ويعتبر كتابه من أهم المراجع التى أرّخت للحملة ، بل هو المرجع الأول لكل من يكتب أو يبحث فى الحروب الصليبية المتأخرة . وقد امتاز على كتاب يورجا أن الدكتور عطية رجع إلى نسخة القاهرة (دار الكتب) من كتاب " الإلمام بالإعلام " للنويرى السكندرى إلى جانب نسخة برلين التى استمد منها يورجا معلوماته . هذا ، بالإضافة إلى بعض المصادر العربية الأخرى المتأخرة .

ومن المحدثين الذين تناولوا موضوع الحملة الأستاذ الدكتور سعيد عاشور فى كتابه " قبرص والحروب الصليبية " [١]. وقد تناول فى الفصل الخاص بقبرص ودولة المماليك الأولى حملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية بداية بتولية الملك بطرس عرش قبرص وحروبه فى سواحل آسيا الصغرى ثم رحلته إلى أوربا وأحداث الحملة وانتهى بعرض مفاوضات الصلح . هذا ، بالإضافة إلى كتابه " الحركة الصليبية " ، والذى تناول فيه الحملة ضمن موضوع الحروب الصليبية المتأخرة . ويعتبر هذان الكتابان من المراجع الأساسية الهامة التى يرجع إليها كل من يقوم بدراسة موضوع الحملة .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ملتزم الطبع والنشر والتوزيع مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م ؛ وله أيضًا : الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م .

أما المؤرخ ماير[١] Mayer فقد أفرد القسم الأول من الفصل الثانى عشر من كتابه عن الحروب الصليبية للكلام عن تاريخ قبرص من سنة ١١٩٢م إلى ١٤٨٩م / ٥٨٨ - ٨٩٥هـ. ومن خلاله تحدث عن موضوع الحملة بشيء من التحليل .

أما عن أهم المقالات التى كتبت فى موضوع حملة الملك بطرس على الإسكندرية فهى على التوالى : مقالة باول كالة المترجمة إلى العربية[٢] والتى تناول فيها الحملة من وجهة النظر العربية، وقام بدراسة سريعة عن طبوغرافية مدينة الإسكندرية ثم استعرض أحداث الحملة من خلال نصوص النويرى السكندرى من مخطوطة برلين .

ويلى هذا من المقالات الخاصة بموضوع الحملة ، ما كتبه الدكتور حسن حبشى[٣] الذى جمع بين النصوص العربية والأجنبية ، مع إيراده بعض النصوص الموجودة فى مخطوطة الهند غير المنشورة فى الإلمام المطبوع .

وتأتى بعد ذلك مقالة المؤرخ أدبيورى[٤] Peter W.Edbury والتى تناول فيها شخصية الملك بطرس بالتحليل وخرج من دراسته هذه برأى جديد لم يسبقه إليه أحد . والواقع أن إدبيورى فى مقالته هذه إنما اتبع أسلوب المؤرخ الذى يبحث عن الحقيقة من خلال تحليله للمصادر والربط بينها فى رؤية جديدة للموضوع . ولكنه اكتفى فيها بما رجع إليه من مصادر ومراجع غربية دون العربية .

---

(١) Mayer (Hans Ebarhard) : The Crusades, transtited by John Gillingham, oxford University Press, 1972.

(٢) كاله (باول Paul Kahle) : صورة عن وقعة الإسكندرية فى عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م من مخطوطة الإلمام للنويرى السكندرى ، ترجمة وتعليق درويش النخيلى وأحمد قدرى محمد أسعد ، فى : مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ، دراسات أثرية وتاريخية (٣) ، مطبعة إسكندرية ، ١٩٦٩م .

(٣) حسن حبشى : هجوم القبارصة على الإسكندرية ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م ، من نصوص جديدة للنويرى ، فى : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس عشر (١٩٦٩) ، القاهرة ١٩٦٩م.

(٤) Edbury (Peter W.), " The Crusading Policy, 1359 - 1369", in : Holt, P.M. (Editor), The Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades, Warminster, England, 1977 .

أما المقالة الرابعة فهى للمؤرخ دانييال[١] Daniel التى تكلم فيها عن نهب الإسكندرية خلال الحملة ، مع استعراض موقف جنود الملك بطرس بعد سقوط الإسكندرية والذى انتهى بقرار الانسحاب ، وأثره على كل من الملك ومستشاره فيليب دى مزيير والمندوب البابوى للحملة بطرس دى توماس . وقد حذا دانييال حذو إدبيورى فى الاعتماد على المصادر والمراجع الغربية فقط دون الرجوع إلى المصادر العربية ، فجاءت الدراسة تعبر عن وجهة نظر واحدة ، شأنها شأن دراسة إدبيورى .

وبالإضافة إلى كل هؤلاء فهناك دراسات مفيدة قام بها فى الجانب الغربى كل من جروسيه[٢] Grousset ، ورانسيمان[٣] Runciman وأرنست باركر[٤] من خلال تناولهم موضوع الحروب الصليبية .

أما فى الجانب الشرقى فنخص بالذكر كتابات كل من الدكتور جمال الدين الشيال [٥]، والدكتور السيد عبد العزيز سالم [٦]. وتكلما عن الحملة من خلال ما كتباه للتأريخ لمدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى . هذا إلى جانب الدكتور أحمد مختار العبادى[٧] وضمن دراسته الخاصة بتاريخ البحرية الإسلامية ، معلومات تتعلق بالحملة المذكورة .

---

(١) Daniel (N.A.), " The Sack of Alexandria", in : Archaeological and Historical Studies, 6 (1979), Publication of the Archaeological Society of Alexandria, Alexandria 1979 .

(٢) Grousset (René), LÉmpire du Levant, Histoire de la Question d'Orient, Paris, 1949.

(٣) Runciman (Steven), A History of the Crusades, Vol.3 Cambridge University Press, 1955 .

(٤) باركر (إرنست Ernest Barker) : الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (بدون تاريخ) .

(٥) جمال الدين الشيال : تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، دار المعارف مطبعة معهد الدون بوسكو ، الإسكندرية ، ١٩٦٧م .

(٦) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مطبعة معهد الدون بوسكو ، الإسكندرية ١٩٦٩م .

(٧) أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١م .

هذا ، ومن البديهى ألا تتكامل دراسة موضوع الحملة اكتفاءاً بما ذكرنا من مصادر معاصرة ومتأخرة ومراجع حديثة ، إلا بالاستعانة بغير ذلك من مصادر ومراجع أخرى تعين على استيفاء الموضوع . فكان الاهتمام من ثم هو الاستئناس بالمزيد من المصادر والمراجع ، وهو ما سوف نلمسه خلال استعراضنا للموضوع بأكمله ، خاصة تلك المجموعة التى لا حصر لها من كتب الجغرافيين والرحالة التى تعمر بها المكتبة الجغرافية العربية ، بالإضافة إلى كتب الرحالة الغربيين الذين زاروا الإسكندرية طوال عصورها الإسلامية ، وأوضحوا لنا من خلال كتاباتهم طبيعة طبوغرافية المدينة والتطور الذى حدث لها وقتذاك . ويصعب علينا ذكر كل هؤلاء الرحالة من مسلمين وغربيين ، ولكننا سنجد ذكراً للعديد منهم خلال دراستنا لطبوغرافية المدينة وأسوارها ، خاصة ما سجله الرحالة الغربيون الذين امتازوا عن رحالتنا من المسلمين بالإضافة والإسهاب فى أكثر من موضع وهم يتناولون هذه الطبوغرافية فى كتاباتهم (١).

---

(١) لما كنا رجعنا إلى الكثير من كتب الرحالة الغربيين وعلى وجه الخصوص غالبية المجموعة التى أصدرها المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، فسوف نكتفى هنا فى هذه الدراسة وفى قائمة المصادر والمراجع بأن نشير إلى كتاب كل رحالة باختصار بياناته . ونورد هنا مثالاً على هذا الاختصار بكتاب رحلة فيلكس فابرى التى تأتى بياناتها الكاملة كما يلى :

Fabri (Felix), Voyagage en Egypte (1483), 3 Vols., Traduit du Latin, Presenté et annoté par R.P. Jacques Masson, Publiée de la Collection des Voyageurs Occidwntaux en Egypte, Imprimé par L'Institut Français D'Archeologie Orientale, Le Caire, 1975 .

وأما اختصار هذه الرحلة فهو كما يلى :

Fabri (1483), (IFAO), Le Caire 1975 .

وسوف نتبع هذا دائماً عند تسجيل البيانات المختصرة عن كل كتاب آخر من كتب الرحالة الغربيين من رصدار المعهد الفرنسى (IFAO) .

وقد يحدث أن يأتى ذكر رحالة ضمن مجموعة رحلات فى كتاب واحد ، ولذا سنكتفى باتباع الطريقة نفسها مع النص على وجوده فى كتاب الرحلة الواحد ، ومثال ذلك ما يأتى فى رحلات سنة ١٥٨٩ و ١٥٩٠ و ١٥٩١ ، ففيها ذكر أكثر من رحالة ، ولذا سيكون الاختصار كالآتى :

Willamont (Le Seigneur de) (1589-90), dans : Voyage en Egypte (1589, 1590, 1591), (IFAO), Le Caire, 1971.

وذلك عند ذكره للمرة الأولى - كما هو هنا - وعند ذكره فى قائمة المصادر فإذا تكرر فسوف نثبته كالآتى :

Villamont (1589-90), dans: (1589,1590,1591), (IFAO).

ثم نذكر رقم الصفحة أو الصفحات .

وقد كان لاتساع الموضوع وعدم اكتفائنا بمجرد السرد والرواية الخاصة بأحداث الحملة ، أثره فى تقسيم الموضوع إلى خمسة فصول بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة .

أما المقدمة فهى تشتمل على إشارة موجزة لأهمية الموضوع ، وسبب اختياره ، واستعراض أهم الأبحاث السابقة عليه ، ثم دراسة تحليلية نقدية مقارنة لمصادر الموضوع من عربية وأجنبية . وقد ركزنا فيها على المقارنة بين المصدر العربى المعاصر النويرى السكندرى وبين ماشو المصدر الغربى المعاصر .

وأما الفصل الأول وعنوانه " الشرق والغرب قبيل حملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية " فهو يتناول الأحوال فى كل من الشرق والغرب قبل حملة الملك بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية . وحاولنا أن نبين فيه الأحوال الداخلية والعلاقات الخارجية للدولة المملوكية فى مصر والشام ، مع استعراض لظروف المشرق الإسلامى آنذاك وعهد السلطان الأشرف شعبان الذى جرت الوقعة فى أيامه ، وأشرنا ، أيضًا ، إلى علاقات مصر والشام بالدول المحيطة بها الإسلامية والمسيحية . ثم قمنا ، بعد ذلك ، باستعراض أحوال قبرص والغرب الأوروبى قبل الحملة إلى جانب دراسة عهد الملك بطرس مع محاولة منا لتحليل شخصيته وسياسته الداخلية والخارجية وما ترتب على ذلك من آثار على مملكته .

وخصصنا الفصل الثانى والمعنون " ما قبل الحملة " من هذه الدراسة للكلام عن الحركة الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) وما تميزت فيه هذه الحركة من نشاط غير عادى للدعاة اللاتين ومشاريعهم من أجل استعادة الأراضى المقدسة . ووقع الاهتمام من جانبنا بتوضيح مدى تأثير الدعاة على الملك بطرس للقيام بحملته . وحاولنا أن نتعرف على الغرض الحقيقى وراء حملته هذه على الإسكندرية ورحلته إلى الغرب الأوروبى لجمع المساعدات الممكنة للقيام بالحملة ، ومدى ما حققته من نجاح .

وأما الفصل الثالث وعنوانه " الحملة منذ إقلاعها من البندقية وحتى وصولها إلى مياه الإسكندرية " ، فقد عالجنا فيه خط سير الحملة منذ إقلاعها من البندقية وحتى تاريخ وصولها إلى شواطىء الإسكندرية ، وما تخلل ذلك من تجمع الأسطول فى رودس ثم الإبحار إلى قرامبوزة ، ثم الإعلان عن وجهة الحملة رسميًا وما سبق ذلك من تكهنات حول هذه الوجهة . وأنهينا هذا الفصل باستعراضنا للروايات المختلفة حول تحديد تاريخ وصول الحملة إلى مياه الإسكندرية . ورأينا من المناسب أن نتكلم عن مدينة الإسكندرية مسرح الأحداث فألقينا

الضوء على موقع المدينة وأهميتها التجارية وأسوارها وطبوغرافيتها مما يساعد فى وضوح الصورة وتكاملها .

أما الفصل الرابع وعنوانه " وقائع الحملة على الإسكندرية من ١٠ - ١٦ أكتوبر (٢٢-٢٨من المحرم) فقد تناولنا فيه الروايات المختلفة حول تحديد عدد قطع الأسطول الصليبى ، ثم المناوشات الأولى بين الطرفين وعمليات اقتحام المدينة واحتلالها وما حاق بها من تدمير وتخريب ، ثم فرار أهالى الرسكندرية ، واستمرار أعمال القتل والنهب مع توضيح أهمية رواية النويرى السكندرى فى هذا الصدد ، ثم أخيراً انسحاب الأسطول الصليبى من المدينة مع شرح أسباب هذا الانسحاب والظروف المتعلقة به .

واختص الفصل الخامس والأخير والذى يحمل عنوان " فشل الحملة ونتائجها " بالكلام على فشل الحملة ، ورحيل القبارصة ، واسترداد المدينة ، وأثر الحملة على مصر والعالم والإسلامى مشرقه ومغربه ، وردود الفعل الناتجة عن انسحاب الملك بطرس من الإسكندرية فى كل من قبرص والغرب اللاتينى ، مع توضيح المراحل التى مرت بها مفاوضات الصلح بين مصر وقبرص ، ودور جمهوريتى البندقية وجنوة إلى جانب دور القطالونيين فى هذا الصدد ، ثم النتائج التى ترتبت على هذه المفاوضات .

وأخيراً أنهينا موضوع الدراسة بخاتمة توضح ردود الفعل الإسلامية أو الحرب المضادة التى قام بها المماليك فى القرن الخامس عشر الميلادى / القرن التاسع الهجرى ، ونجاحهم فى إخضاع قبرص لسيطرة المماليك وفرض الجزية عليها ، ثم إشارة إلى أهم النتائج التى توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة .

الفصل الأول
الشرق والغرب قبيل حملة
بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية

أولا : الشرق الأدنى الإسلامى :

مصر والشام : أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية - عصر السلطان الأشرف شعبان وظروف المشرق الإسلامى آنذاك - علاقة مصر بالقوى المحيطة بها : المغول فى العراق ، أرمينية ، بيزنطة ، الحبشة ، النوبة .

ثانيًا : الغرب الأوروبى :

غرب أوربا قبيل الحملة ، الإمبراطورية والبابوية ، إيطاليا ، ألمانيا ، انجلترا ، فرنسا ، إسبانيا - قبرص وأحوالها قبيل عهد بطرس دى لوزنيان - عهد بطرس الأول دى لوزنيان : شخصيته وسياسته الداخلية والخارجية وأثرهما - مراكز الثقل فى الصراع الصليبى الإسلامى بعد انتهاء الحروب الصليبية الأولى .

شهد أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) عملية احتضار الفكرة الصليبية فى وقت أصبح فيه زمام المبادرة فى قبضة المسلمين ، بعد أن اتحدت جبهاتهم واتخذوا سياسة الهجوم دفعًا للعدوان ، فى الوقت الذى التزم فيه أعداؤهم بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كيانهم المتداعى فى الأرض المقدسة . وفى ظل هذه الظروف تمكن خلفاء صلاح

الدين من بنى أيوب ، ومن بعدهم المماليك فى مصر ، من القضاء على بقايا المعاقل الفرنجية بالساحل الشامى إلى أن انتهى الأمر بسقوط عكا آخر معاقلهم الحصينة فى سنة ١٢٩١م / ٦٩٠هـ فى قبضة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، ثم تلاها فى العام نفسه سقوط صور وصيدا وحيفا ، وبذلك انهار سلطان الفرنج تمامًا فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى [١]. وقد توج هذا الانتصار الأخير للدولة المملوكية ما سبق أن حققته من انتصارات ، وأصبحت قوة يخشى الغرب الأوروبى بأسها خاصة بعد ازدهار طريق البحر الأحمر التجارى والذى سيطرت عليه مصر منذ الأيام الأولى للدولة الأيوبية تحت حكم صلاح الدين حيث اتخذت مصر فى عهده سياسة التحكم فى هذا البحر ولم تسمح للتجار الأوروبيين بالنفاذ إليه ، وقصرت حركة التجارة به على التجار المسلمين : فأصبحت بسبب هذا التحكم تجنى ثروات كبيرة دعمت اقتصادها وقوت من جهادها ضد الصليبيين [٢].

هذا ، وقد غدت مصر والشام فى زمن المماليك قبلة التجارة العالمية ، والمعبر الرئيسى لتجارة الشرق فى طريقها إلى الغرب [٣]، مما كان له أثره فى الثروة الضخمة التى تمتع بها المماليك وما ارتبط بها من مظاهر السعة والأبهة التى اتصف به عصرهم .

وسوف نهتم هنا بالكلام عن الفترة الواقعة مباشرة قبل حكم السلطان الأشرف شعبان والذى وقعت فى عهده حملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية بالإضافة إلى الفترة التى تستغرق حكم الأشرف شعبان نفسه ، لكى نلقى الضوء على ما كان من أحوال كل من مصر والشام وقتذاك سواء من الناحية الداخلية أو الخارجية . فلقد استطاعت أسرة قلاوون أن تبقى

---

(١) جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، الإسكندرية (نشر مؤسسة شباب الجامعة) ، ١٩٨٣ ، ص ٤٥ .

(٢) عمر كمال توفيق : الجاليات الأوروبية فى الإسكندرية فى العصر الوسطى (فصلة فى كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور) مطبعة جامعة الإسكندرية ، الإسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٢٨٤ .

(٣) William Tyrents (=W.T.), Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum. apud: Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, Tome Premiér. 1er Partie, Repulished in 1967, Second Impression, England, 1969, p. 931. (English Translation: William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, translated by Emily Atwater and A.C. Krey, New Youk, 1943, Part, p. 336 ;

وماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد (عن الترجمة الإنجليزية لوليم مارسدن) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٣٣٧ و هـ ١ .

الحكم فى يدها أكثر من مائة عام (١٢٧٩ - ١٣٨٢م / ٦٧٨ - ٧٨٤هـ) . واكتسب عهد هذه الأسرة طابعًا خاصًا مميزًا فى تاريخ المماليك ، هو بقاء اسم الجد قلاوون فى سلسلة طويلة من أسماء السلاطين منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) حتى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى (أواخر القرن الثامن الهجرى) . هذا ، بالإضافة إلى أن جميع مميزات وخصائص العصر المملوكى قد اكتملت ونضجت فى ذلك العهد. فقد استقر الحكم للمماليك تمامًا فى مصر والشام بعد فترة الاضطرابات الأولى التى أنهاها الظاهر بيبرس بتثبيت أوتاد الدولة ، وأخذت تتبلور النظم والقواعد الى سارت عليها سلطنة المماليك حتي أواخر أيامها ، وبدأت تظهر بشائر النشاط التجارى الذى عاد على المماليك بالثروة الواسعة ، ومكنهم من إقامة المنشئات الرائعة التى مازالت بقاياها فى مدن مصر والشام تنطق بمجدهم . كما أن عهد أسرة قلاوون قد شهد حلقات بارزة فى قصة الجهاد ضد التتار من ناحية والصليبية من ناحية ثانية ، وفى أرض النوبة من ناحية ثالثة ، هذا فضلاً عن النشاط الدبلوماسى والمعاهدات السياسية والاتفاقات التجارية مع كثير من القوى المعاصرة فى إفريقية وأوروبة وآسيا [١].

وقد أجمع المؤرخون على أن دولة المماليك قد بلغت فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وعلى وجه التحديد فى سلطنته الثالثة [٢]، أقصى درجات الاتساع والعظمة ، إذ أثبت

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٠٠ ؛ وانظر أيضًا : على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٤ ، ص ٩٤ .

(٢) كانت سلطنة الناصر الثالثة من ١٣٠٩ إلى ١٣٤٠م / ٧٠٩ - ٧٤١هـ ، وهى الفترة التى ظهرت فيها شخصيته السياسية والإدارية وقبض على زمام الأمور فى الدولة بعد أن تحكم كبار الأمراء فى أمورها فى سلطنته الأولى والثانية وكانت سلطنته الأولى من ١٢٩٣ إلى ١٢٩٤م / ٦٩٣ - ٦٩٤هـ سلطنة إسمية ، فقد كانت السلطة الفعلية فى أيدى كبار الأمراء . ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٨ ص ٥٠ ؛ راجع على إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٦٥ ، ٦٦ ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٠٤ ، أما سلطنته الثانية ١٢٩٨ - ١٣٠٨م / ٦٩٨ - ٧٠٨هـ) غادر فيها البلاد قبل أن يرغمه أعداؤه من الأمراء على ذلك ، فتظاهر بالحج ولكنه توجه إلى الشام ، انظر ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٨ ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ، وراجع ترجمته فى : مؤرخ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك من سنة ٦٩٠هـ - ٧٤١هـ ، نشر زيترستين Zetter-stéen ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩١٩م ، ص ١٣٧ - ٢٢٤ ؛ الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك) : الوافى بالوفيات ، باعتناء س . ديدرنغ ، الطبعة الثانية ، فيسبادن ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م ، جـ ٤ ؛ =

الناصر محمد كفاءة نادرة ومقدرة على تصريف شئون الدولة ، وأصبحت القاهرة فى عهده حاضرة لدولة شاسعة امتد سلطانها من بلاد برقة غربًا إلى ساحل البحر الأحمر شرقًا ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوبًا ، وبسطت نفوذها على بلاد اليمن والحجاز ، وخطب ودها ملوك أوروبة وآسيا عن طريق إبرام المعاهدات والمصاهرة وإرسال الهدايا ، فظهرت فى بلاطه بعوث القبيلة الذهبية وإيلخانات المغول ، ومن قبل بنى رسول من اليمن ، وملك الحبشة ومن الحفصيين فى تونس ، وإمبراطور بيزنطة ، وقيصر بلغاريا ، والبابا فى رومة وملك آراجون ، وفيليب الرابع ملك فرنسا ، ومحمد بن طغلق سلطان دلهى (١).

فبلغت مصر بذلك على عهده مكانة سامية بين الدول المعاصرة . وبوفاة الناصر محمد سنة ١٣٤٠م / ٧٤١هـ دخلت دولة المماليك فى مرحلة جديدة من تاريخها ؛ فكان أهم ما تميزت به هو ظهور نفوذ الأتابكة بشكل جلى وتركز السلطة فى أيديهم ، وكثرة عدد السلاطين الذين اعتلوا العرش ، وصغر سنهم ، واشتداد التنافس بين أمراء المماليك على السلطة ، وجعلهم السلطان ألعوبة فى أيديهم يعزلونه أو يبقونه على العرش حسب مشيئتهم ، وكان مصير هؤلاء السلاطين فى أغلب الأحيان هو الخلع ثم النفى والقتل ؛ وقد بلغ عدد أولئك السلاطين الذين تولوا العرش من بعد وفاة الناصر محمد إلى نهاية دولة المماليك البحرية ، اثنى عشر سلطانًا ، منهم ثمانية من أولاد الناصر وأربعة من أحفاده (٢). ففى العشرين سنة الأولى التى أعقبت

= ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على):الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، الطبعة الثانية ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، ١٩٧٦/٣٩٦، جـ ٥ ص ٤٠٤ - ٤٠٩ (ترجمة رقم ١٧٣١) .

(١) النويرى السكندرى : الإلمام بالإعلان فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية تحقيق عزيز سوريال عطية من مخطوطة برلين وبانكى بور ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيد آباد الدكن ، الهند ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، جـ ٤ ص ١٤٥ - ١٤٦ ، " وكانت دولته أحسن الدول من الأمن الكثير والرخاء الغزير وانقادت له الدول وخضعت له الملوك فى السهل والجبل ، فكانت الملوك تهابه وليس أحد منهم يعاديه ،و فعاش عيشًا هنيئًا ومات على فراش سويًا " ؛ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٥٩هـ - ١٩٤٠هم، جـ ٢ ق ١ ص ١٦٣ - ١٦٤ ، ٢٥٩ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ج ١ ق ١ ص ٤٨١ - ٤٨٢ ؛ وانظر أيضًا ، على إبراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) من أمراء المماليك الذين استبدوا بالسلاطين فى تلك الفترة : الأمير قوصون ، الذى غضب على الملك المنصور أبى بكر الذى تولى الحكم بعد والده الناصر محمد (٧٤١هـ - ٧٤٢هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١م) فأرسله إلى قوص حيث حبسه ثم قتله . انظر النويرى السكندرى : الإلمام ، ج ٤ ، ص ١٦٤ . ومنهم أيضًا=

وفاة الناصر محمد (٧٤١ - ٧٦٢هـ / ١٣٤٠ - ١٣٦١م) تولى منصب السلطنة ثمانية من أولاده ، وتسلطن فى العشرين سنة التالية (٧٦٢ - ٧٨٤هـ / ١٣٦١ - ١٣٨٢م) ، أربعة من أحفاده حتى إن بعضهم تولى منصب السلطنة وعمره عام واحد وهو الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد ، كما أن بعضهم لم يبق فى الحكم إلا شهرين وبضعة أيام مثل الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد (١).

ومما لاشك فيه أن عدم وجود نظام وراثى أو قاعدة معينة ثابتة لاختيار السلاطين فى العصر المملوكى ، وتطلع كبار الأمراء دائمًا للوصول إلى منصب السلطنة ، قد أدى بدوره إلى كثير من الفتن والثورات والاضطرابات التى شهدها ذلك العصر . وكان مصدر هذه الفتن والاضطرابات فى كل من مصر والشام هو رغبة الطموحين من الأمراء فى الوصول إلى قمة

= الأمير ايدغمش الذى جاء بعد قوصون ، وكرهته الأمراء والعوام : " وأبغضوه فتسلط العوام والحرافيش على اسطبله المحتوى على أمواله وذخائره فنهبوها بكاملها .. ثم بعد ذلك قبض على قوصون وأرسل إلى الإسكندرية وحبس فى جب بها . راجع : النويرى السكندرى : المصدر نفسه ، ج ٤ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ومنهم يلبغا الخاسكى ، اشتراه الملك الناصر حسن بن الناصر محمد وقربه إليه وأفاض عليه إحسانه ، وأكرم متواه، ولقبه بالخاسكى ، حتى كبر شأن يلبغا وعظم حاله ، فوثب على أستاذه الملك الناصر حسن وقبض عليه وأودعه بيتًا فى قصره ، فأقام به أيامًا قليلة وقتله ، ووجد بخط السلطان حسن مكتوبًا على حائط البيت الذى كان مسجونًا به : " لا تقل متى كان ، ولا أين كان ، ولا كيف كان ، قدّر فكان ، كتبه حسن ملك مصر كان " النويرى السكندرى : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(١) انظر النويرى السكندرى : الإلمام ، ج ٤ ، ص ١٦٤ - ١٦٩ . وقد أورد النويرى السكندرى أسماء خلفاء الناصر محمد من أولاده وأحفاده حتى الأشرف شعبان على النسق التالى :

الملك المنصور سيف الدين أبو بكر وسلطنته من ٧٤١ - ٧٤٢هـ / ١٣٤٠ - ١٣٤١م ؛ ثم الأشرف علاء الدين كجك فى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١ - ١٣٤٢م ؛ ثم الناصر شهاب الدين أحمد وسلطنته من ٧٤٢ - ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م ؛ ثم الصالح عماد الدين إسماعيل وسلطنته ٧٤٣ - ٧٤٦هـ / ١٣٤٢ - ١٣٤٥م ؛ ثم المظفر سيف الدين حاجى وسلطنته (٧٤٧ - ٧٤٨هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٧م) ؛ ثم ناصر الدين حسن بن السلطان الناصر محمد فى سلطنته الأولى ٧٤٨ - ٧٥٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٣٥١م؛ ثم الصالح صلاح الدين صالح ٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤م وفى عهده أبطلت دواوين النصارى ؛ ثم الناصر ناصر الدين حسن فى سلطنته الثانية ٧٥٥ - ٧٦٢هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦١م ؛ ثم المنصور صلاح الدين محمد وسلطنته من ٧٦٢ - ٧٦٤هـ / ١٣٦١ - ١٣٦٣م ؛ والأشرف ناصر الدين شعبان وسلطنته من ٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م .

انظر أيضًا : سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، مطبعة دار النهضة ، القاهرة ١٩٧٠م، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ؛ وله أيضًا العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٢٦ .

السلطة ؛ إذ كان يكفى أن يعلن وفاة واحد من السلاطين أو مرضه أو هزيمة جنوده حتى تضطرب أحوال البلاد ، وما أن يذاع عن قيام سلطان جديد فى الحكم حتى يعلن منافسوه من كبار الأمراء فى مصر أو فى الشام عن عدم رضاهم لتوليته وثورتهم عليه مما ينذر بدور جديد من أدوار الاضطرابات التى اعتادت أن تمر بها البلاد فى ذلك العصر [١]. فينتشرون فى الأسواق والطرقات لنهب الحوانيت وخطف العمائم وانتزاع الخيول من أصحابها ، بل كانوا يهجمون أحيانًا على النساء فى بيوتهن وفى الحمامات فيخطفوهن [٢].

وقد شهدت الشام فى عهد أولاد الناصر محمد وأحفاده خروج معظم نواب الشام على طاعة السلطان . ومن ذلك ما حدث فى عهد الملك الصالح صلاح الدين ٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤م ؛ فقد أعلن العصيان كل من نائب حلب ونائب طرابلس ونائب حماه ونائب صفد ولم يبق على طاعة السلطان سوى أرغون الكاملى نائب دمشق الذى اضطر إلى الهرب إلى غزة . واستولى نائب حلب على دمشق إلى أن نجح السلطان الصالح صلاح الدين فى القضاء على الفتنة [٣]. وفى عهد المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢ - ٧٦٤هـ / ١٣٦١ - ١٣٦٣م) أعلن الأمير بيدمر الخوارزمى نائب دمشق العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة ، وشاركه فى حركته جماعة من نواب الشام ، فخرج السلطان إلى الشام سنة ١٣٦١م / ٧٦٢ هـ وقبض على بيدمر وأرسله مقيداً إلى الإسكندرية وعين اثنين من أمرائه نوابًا على دمشق وحلب ثم رجع إلى القاهرة [٤]. أما فيما يتعلق بنواب الشام فى سياسة دولة المماليك

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٣٢٤ ؛ ولكن انظر أيضًا : المقريزى ، السلوك ، ج ٢ ق ١ ، ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ١٦٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١٠ ، ص ١٢٢ - ١٢٣، وانظر أيضًا : سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٨٩ ، وله أيضًا العصر المماليكى ص ٣٢٤ - ٣٢٥ .

(٣) ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل) : البداية والنهاية ، الطبعة السادسة مكتبة المعارف ، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ج ١٤ ص ٢٣٧ - ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ - ٢٤٦ ؛ ابن حبيب (الحسن بن عمر) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦ ، ج٣ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ ، ١٥٨ - ١٥٩ ، ١٦٣ - ١٦٤ .

(٤) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٤ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٧ ؛ ابن حبيب : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤١ .

العامة ، فيلاحظ أنهم كانوا قوة يخشاها السلاطين فى مصر ، فكان على كل سلطان جديد أن يفكر في مدى إخلاص هؤلاء النواب له ولعل هذا هو السر فيما لجأ إليه سلاطين المماليك من كثرة تغيير نواب الشام من حين إلى آخر ، وبخاصة فى أوائل حكم كل سلطان [1]؛ وهناك أمثلة على اشتراك نواب الشام مع بعض أمراء مصر فى عزل وتولية السلاطين ، منها ما كان من اشتراك هؤلاء النواب فى عزل بيبرس الجاشنكير[2] (٧٠٨ - ٧٠٩هـ / ١٣٠٨ - ١٣٠٩م)، وعلاء الدين كجك بن الناصر محمد (٧٤٢ هـ / ١٣٤١م) [3].

ومهما يكن من أمر ، فإن قيام بعض الحركات فى الشام لمساندة السلطان أو لعزل آخر لايجعلنا نغفل أمر تلك المساعدات القيمة التى كانت تستمدها مصر من نيابات الشام فى أوقات الحرج أثناء حروبها الطويلة ضد الصليبيين والتتار . والملاحظ فى هذا الصدد أن أمراء المماليك فى مصر والشام كانوا غالبًا ما يتناسون ما بينهم من خلافات لمواجهة الأخطار الخارجية ، فى الوقت الذى كان فيه موقف أهالى مصر والشام ، لا يتعدى غالبًا موقف المتفرج ولا يعدو رد الفعل لديهم عن البكاء لمقتل سلطان ، وإقامة الأفراح والزينات للسلطان الجديد[4].

على كل حال ، لم تكن الاضطرابات الداخلية التى تعرضت لها البلاد فى تلك الحقبة ، منشأها التنافس بين كبار الأمراء حول منصب السلطنة ، أو غضب بعض المماليك بسبب سوء التوزيع الإقطاعى وقلة النفقة الممنوحة لهم من السلطان فحسب ، بل وجدت أيضًا أسباب طبيعية كثيراً ما تسببت فى إثارة الفتن ونشر الاضطرابات . من ذلك أن عدم إمكان التحكم فى مياه النيل فى تلك العصور ، كان يترتب عليه انتشار المجاعات فى حالة انخفاض منسوب المياه فيه ، وما يصحبه من فساد الزراعة وقلة المحصولات ، وكثيراً ما كانت تلك المجاعات مصحوبة بانتشار الأوبئة والطواعين ، الأمر الذى كان يفضى إلي موت الآلاف من

---

(١) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٢٢ .

(٢) راجع مؤلف مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٣٧ - ١٤٦ ؛ أبو الفدا عماد الدين (إسماعيل) : المختصر فى أخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ) ، ج ٤ ص ٥٥ - ٥٩ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٠٢ - ٥٠٧ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٤) سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٢٦ .

الناس ، فتقل الأيدى العاملة ، ومن ثم تتوقف معظم الأنشطة العمرانية بالبلاد [(١)]. ومن أهم الأوبئة التى حدثت فى هذه الفترة وباء عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م الذى لم يكن له نظير فى قسوته وسرعة انتشاره ؛ فلم يكن هذا الوباء مقصوراً على دولة المماليك فى مصر والشام فقط، بل كان انتشاره فى العالم بأسره شرقًا وغربًا . وفى ذلك يقول النويرى السكندرى : "لما وقع الوباء بالديار المصرية وغيرها فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة تعجب الناس من ذلك الفصل الوخم الذى مات فيه من الناس خلق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى ، فكانوا كما قيل : هبت عليهم رياح الموت فانتشروا كأنهم كانوا بميعاد . فقال قائلهم : ما أظن أن هذا الوباء وقع فى عصر من الأعصار ، وكان سبب موتهم كبة تطلع للإنسان فى مراقه[(٢)] فيموت منها بسرعة "[(٣)] . ويضيف المقريزى فى كتابه السلوك عن كيفية انتشار هذا الوباء فيقول : " ولم يكن هذا الوباء كما عهد فى إقليم دون إقليم ، بل عم أقاليم الأرض شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا جميع أجناس بنى آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر " [(٤)]. ثم يشرح بعد ذلك كيف أصيبت بلاد المغول بالوباء الأسود حتى " ماتت خيولهم وصاروا جيفا رميه " [(٥)]. ثم أخذ الوباء يزحف شرقًا عن طريق بلاد المغول وغربًا عن طريق القسطنطينية ، حتى وصل إلى الشام ومنها إلى مصر ، وانتشر فيها انتشاراً فتاكًا [(٦)].

---

(١) المرجع نفسه : ص ٣٢٥ ؛ ولكن راجع فى تعرض مصر للأوبئة والمجاعات بسبب انخفاض منسوب مياه النيل ، وما يترتب على ذلك من انتشار الغلاء المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، قام على نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٢ - ٥١ .

(٢) كبة أى ورم ؛ وفى اللغة : " الغَزْلَ يُكَبّ على كذا : يلف عليه ... وعنده كبة من غزل ... ومنه يكبب الرمل : تلبد " ؛ راجع الزمخشرى (جار الله محمود ابن عمر) : أساس البلاغة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤١هـ / ١٩٢٣م ، (مادة : ك ب ب) ؛ وقد فسر اللفظ بقطر فى قاموسه بأنه الطاعون نفسه (Peste) ؛ انظر : Bocthor (Ellious), Dic.Fr.- arabe, revu Par C. de Perceval, 4 eme ed., Paris 1869, p. 597 .

أما المراق فالمقصود الإهاب ، أى الجلد ؛ راجع الزمخشرى ، المصدر نفسه ، مادة (م ر ق) .

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام بالإعلام ، ج ٤ ، ص ١٢٦ .

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ق ٣ ، ص ٧٦٣ .

(٥) المقريزى ، المصدر السابق ، ص ٧٧٤ وما يليها .

(٦) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٧٠ - ٧٨٥ ؛ وانظر أيضًا : ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ق١، ص ٥٣٠" وكان قوة عمل هذا الطاعون فى بلاد الفرنج ؛ وأقام دائراً نحو سبع سنين حتى عزت جميع البضائع ، لقلة الجالب من البلاد " . ثم يضيف فى نفس الصفحة " ولم يزرع من أرض مصر تلك السنة إلا القليل=

هذا ، ولم يختلف عصر أحفاد الناصر محمد عن عصر أولاده فى خصائصه العامة من حيث صغر سن السلاطين وازدياد نفوذ كبار الأمراء وتحكمهم فى مصالح البلاد وتلاعبهم بالسلاطين الصغار وفق أهوائهم ، بالإضافة إلى اشتداد الصراع بين كبار الأمراء وازدياد التنافر والعداء بين طوائف المماليك الذين انقسموا شيعًا وأحزابًا يتقاتلون فى شوارع القاهرة بين حين وآخر ، مما أغرق البلاد فى حالة من الفوضى . يضاف إلى هذا ما شهده العصر من انحلال خلقى بشكل واضح ؛ فقد اشتهر السلاطين من الأحفاد بالإدمان على شرب الخمر ، حتى قيل عن السلطان المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٢ - ٧٦٤هـ / ١٣٦١ - ١٦٣م) أنه كان لايفيق من السكر ساعة [(١)]، وأصبح الأتابكى يلبغا الخاسكى مطلق التصرف فى شئون الدولة ، يعزل ويولى من يقع عليه اختياره ؛ وظل الملك المنصور على هذا الحال إلى أن اتفقت كلمة الأمراء على خلعه لمجونه وقلة كفايته ، وذلك فى سنة ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م ، وقد سبق خلعه وقوع وباء فى الإسكندرية ومصر سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م[(٢)].

وبعد خلع الملك المنصور محمد ، اتفق يلبغا والأمراء على تولية الأمير شعبان الذى كان يبلغ وقتئذ العاشرة من عمره ولقب بالأشرف [(٣)]، وظل يلبغا فى السنين الأولى من حكم

= بسبب موت الفلاحين وعدم من يزرع الأرض ، فوقع الغلاء بمصر حتى بيع كل ويبة قمح بمائتى درهم ، وكادت أن تخرب فى تلك السنة من الغلاء والفناء " .

(١) انظر : ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص ٧ فهو يعطى صورة واضحة لطبيعة العصر وما استشرى فيه من مجون فى زمن السلطان المنصور صلاح الدين ، وانظر أيضًا : ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١، ق ١ ، ص٥٩٣ ؛ وراجع : سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ١٢٩؛ وله أيضًا : المجتمع المصرى ، الفصل التاسع ، ص ٢٢٥ - ٢٤٤ ، فهو يصور فى هذا الفصل ما كان عليه المجتمع المملوكى من أخلاقيات ويسحب كلامه فيه على كل فترة الحكم المملوكى فى العصرين الأول والثانى .

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، ج٤ ، ص ١٢٧ ، قارن أيضًا المقريزى : السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ٨١ . ولكنه يسوق الخبر عنه فى حوادث سنة ٧٦٤هـ وانظر أيضًا : النجوم ، ج ١١ ، ص ١٧ (حوادث سنة ٧٦٤هـ) .

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام ، ج٤ ، ص ١٦٩ : " وولى مكانه الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر محمد لصغر سنه ، فسأله يلبغا أن يوليه نيابة المملكة مدة سنين معينة ، فولاه ، فصار يلبغا يأمر وينهى ويؤمر من أراد من مماليكه ويعزل من يشاء ، وتسمى بالأمير الكبير وانقادت له الدولة " ؛ وانظر أيضًا : المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق١ ، ص ٨٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١١ ، ص ٢٤" وجُلب على تخت الملك وعمره عشر سنين فى يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ... ومولد الأشرف هذا فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة بقلعة الجبل .... " .

السلطان الأشرف شعبان صاحب النفوذ الفعلى فى البلاد ولما أكثر من إيقاع العسف بمماليكه نفروا منه وعمدوا إلى اغتياله ، وحاولوا الحصول على تأييد السلطان الأشرف شعبان فى ذلك، لكنه عارضهم فى أول الأمر ، ثم عدل عن رأيه ورحب بالتخلص من يلبغا لحجره عليه وسلبه سلطته ، فلما علم يلبغا بأمر مماليكه وما كان من اتفاقهم مع السلطان ضده ، قام بتوليه الأمير آنوك بن الأمجد حسين أخى الملك الأشرف شعبان السلطنة ولقبه بالملك المنصور ، مما أدى إلى نشوب عدة معارك بينهما ، وانتهى الأمر بهزيمة يلبغا وقتله(١) .

ثم ولى السلطان الأشرف شعبان الأمير أسندمر الناصرى خلفًا ليلبغا الخاسكى ، إلا أن أسندمر لم يلبث أن استبد بالسلطة ، فتعاظم حقد الأمراء عليه ، وحاولوا قتله ؛ ولكنه تغلب عليهم وأخمد فتنتهم ، وازداد نفوذه بعد ذلك وتعاظم حتى أصبح السلطان الأشرف كالمحجور عليه فى ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م وزاد الأمر سوءًا بعد أن استفحل نفوذ مماليك يلبغا ، فأصبحوا عاملاً قويًا فى إثارة القلاقل بمصر ، وأصبح أسندمر مغلوبًا علي أمره ، فطلبوا منه تسليم بعض الأمراء وعزل الأشرف شعبان ؛ فلما علم السلطان بذلك خرج بصحبة مماليكه وبعض كبار الأمراء لمحاربتهم ، فأوقع بهم الهزيمة ، وولى أسندمر هاربًا ، إلا أن السلطان الأشرف شعبان عفا عنه وأبقاه فى منصبه ، بعد أن أشرك معه فى الأتابكية خليل بن قوصون (٢)، الذى ما لبث أن تحالف مع أسندمر ضد السلطان الأشرف شعبان الذى استطاع فى نهاية الأمر أن يقضى على فتنتهم بعد أن قبض على خليل بن قوصون وأسندمر وزج بهما فى سجن الإسكندرية (٣).

---

(١) راجع التفصيلات المسهبة عن طبيعة العلاقة بين يلبغا الخاسكى وبين الأمراء والأشرف شعبان وانتهاء هذه العلاقة بقتل يلبغا فى ١٠ من ربيع الأول سنة ٧٦٨هـ ، فى النويرى السكندرى : نسخة الهند من الإلمام، لوحة ٢٤٣ أ - ٢٤٤ ب (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) ، وانظر أيضًا : ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٣ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ . واكتفى بتحديد شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة تاريخًا لمقتل يلبغا ؛ المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق١ ، ص ١٣٧ (ويحدد مقتل يلبغا فى العاشر من ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ ؛ ابن تغرى بردى : ج ١١ ، ص ٣٨ - ٤٠ " ليلة الأحد ١٠ ربيع الآخر" ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق٢ ، ص٤٧ - ٥٠ " ليلة الأحد ٩ ربيع الآخر" .

(٢) المقريزى : السلوك : ج ٣ ، ق١ ، ص ١٥١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص ٤٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٨ .

(٣) ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، الطبعة الثانية ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، الهند ، ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م ، =

وبعد أن تخلص الأشرف شعبان من أسندمر وخليل بن قوصون وضعفت شوكة مماليك يلبغا، قبض على الأمور فى البلاد وأصبح فى سنة ٧٦٩هـ / ١٣٧١م مطلق التصرف فى شئون دولته، يولى ويعزل من يشاء دون مشاورة الأمراء ، ومن ثم استقرت حالة مصر داخليًا ولم يحدث ما يعكر صفوها إلا حين خرج الأشرف شعبان من مصر قاصداً بلاد الحجاز سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٨٦م ، فثار به جماعة من المماليك فى عقبة أيلة فى شهر القعدة من السنة المذكورة ، وقاتلوه ، فأوقعوا به الهزيمة ففر هاربًا إلى القاهرة ، فى الوقت الذى كان فيه بعض الأمراء والمماليك السلطانية قد انتهزوا فرصة غياب الأشرف شعبان ، وأذاعوا أنه قضى نحبه، وولوا ابنه عليًا مكانه ، فلما وصل الأشرف شعبان إلى القاهرة لجأ إلى إحدى دورها حيث كشف أمره بعد فترة قصيرة من الزمن فقبض عليه وقتل [١].

وهكذا انتهى عهد الأشرف شعبان بمقتله ، ويصفه المؤرخون بأنه كان من أجل الملوك سماحة وشهامة وتحملاً وسؤدداً ، وكان من فطنته وذكائه يعرف غالب أحوال القلاع الشامية وغيرها ويعرف كيف تؤخذ من أين تحاصر معرفة جيدة [٢].

ومما يسترعى النظر ، أنه على الرغم من ضعف أحفاد الناصر محمد بن قلاوون وعدم استطاعتهم المحافظة على إبقاء الحكم فى بيتهم وانقسام الأمراء إلى شيع وأحزاب ، وسعى كل منهم للتخلص من الآخر إلا أنهم كانوا جميعًا متحدين اتحاداً تامًا ضد الخارجين على بلادهم . هذا ، إلى جانب أن البلاد المصرية كانت تنعم فى أواخر عهد هذه الأسرة بالرخاء ، وهو ما يمكن أن نتبينه من العبارة التى أوردها ابن تغرى بردى ، وفيها يقول : " وكانت أيام الملك الأشرف شعبان المذكور بهجة وأحوال الناس فى أيامه هادئة مطمئنة والخيرات كثيرة ، على غلاء وقع فى أيامه بالديار المصرية والبلاد الشامية ومع هذا لم يختل من أحوال مصر شىء لحسن تدبيره ومشى سوق أرباب الكمالات فى زمانه من كل علم وفن ونفقت فى أيامه

= ج١ ، ص ٤٦٠ (ترجمة رقم ٩٨٢) ؛ المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٥٠ - ١٥٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١١ ، ص ٤٧ - ٤٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ، ق٢ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(١) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١١ ، ص ٧٩ - ٨٠ ؛ وانظر أيضًا محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربى (بدون تاريخ) ، ص ٦٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١١ ، ص ٨١ .

البضائع الكاسدة من الفنون والملح وقصدته أربابها من الأقطار ، وهو لا يكل من الإحسان إليهم فى شىء يريده وشىء لا يريده ، حتى كلمه بعض خواصه فى ذلك : " فقال - رحمه الله- أفعل هذا لئلا تموت الفنون فى دولتى وأيامى "(١).

وهكذا كانت أحوال البلاد الداخلية فى مصر فى الفترة السابقة على حملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية . وأهم ما يلاحظ فى هذا الصدد أن مصر ، قد فقدت كثيراً من الاستقرار ، والأمن الداخليين فى عهد أولاد وأحفاد الناصر محمد ، وهما ما نعمت بهما فى عهد الناصر محمد نفسه . ولنا الآن أن نتساءل ما إذا كانت الحالة الداخلية للبلاد فى تلك الفترة قد انسحبت على أحوالها الخارجية ؟ سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو عسكرية . وللإجابة على هذا التساؤل فى واقع الأمر ليس بالأمر السهل الهين ، إذ نلاحظ أن بعض المؤرخين المحدثين قد ذهبوا فى ذلك مذهبًا واحداً ، يتلخص فى أن حالة الفوضى الداخلية التى مرت بها دولة المماليك فى مصر والشام فى عهد أولاد الناصر محمد وأحفاده ، إنما كانت سببًا قويًا لتمكن بطرس دى لوزنيان من الاستيلاء على الإسكندرية (٢). بمعنى تأثر الحالة الخارجية من اقتصادية وسياسية وعسكرية بما يحدث فى الداخل ، حسبما ذهبوا هم إلى ذلك . وقد نستطيع أن نستخلص الإجابة من واقع التعرف على الأحوال الاقتصادية للدولة المملوكية فى ذلك الوقت . والمعروف لنا أن المؤشر الاقتصادى لدولة ما إنما يشير إلى قوة هذه الدولة أو ضعفها ، بل هو فى أغلب الأحيان المحرك الحقيقى للأحداث السياسية من حروب وسلم على السواء . فقد أدرك المماليك منذ البداية أهمية الموقع المتميز الذى تمتعت به مصر ، فطرق التجارة العالمية الآتية من الشرق إلى الغرب وبالعكس . كانت تمر بأراضيها . فكانت منتجات الشرق ترد إلى مصر من الصين والهند والبحرين عبر طريق البحر الأحمر مروراً بخليج عدن حتى ميناء عيذاب ، فتتفرغ المراكب ما عليها من البضائع ومنها تحمل على ظهور الإبل فى الصحراء إلى قوص قاعدة مصر العليا ، ومن هناك تنقل إلى القاهرة فى النيل ثم تواصل سيرها فى فرع رشيد(٣) إلى قرية العطف التى تقابل فوه ومنها بطريق الترعة التى حفرها

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص ٨٢ .

(٢) راجع على سبيل المثال لا الحصر : Atiya, The Crusade, Pp. 351 - 352; Holt (P.M.), The Ages of the Crusades, The Near East from the eleventh century to 1517, London 1986, PP. 124 - 125 ؛ سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٦٢ .

(٣) سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ٣٣٤ ، نقلاً عن هايد Heyd فى كتابه عن تاريخ التجارة .

الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٠هـ / ١٣١٠م إلى الإسكندرية ، وكانت المتاجر قبل حفر هذه الترعة تحمل على ظهور الإبل[١] .

وعلى كل حال هناك عدة عوامل ساعدت على ازدهار تجارة مصر ، وبالتالى انتعاش حركة التجارة فى موانىء مصر وخاصة ميناء الإسكندرية . فقد كان طريق البحر الأحمر أقصر طريق لتجارة الشرق وأقلها عناء فى نقل المتاجر ، وهو الذى يمد الإسكندرية بما يسد حاجة الأسواق الأوربيـة من التـوابل [٢]. ويورد الدكتور عمر كمال توفيق فيما يستقيه من أحد الرحالة الأوروبيين ممن عاصر المرحلة المتأخرة من عصر الحركة الصليبية ، وكان خبيراً بشئون تجارة الشرق أن طريق مصر كان من أهم الطرق لنقل الفلفل وغيره من التوابل الثقيلة الحمل [٣].

وعلاوة على ذلك ، فقد كانت طرق التجارة الأخرى الآتية من الشرق إلى الغرب ، مثل الطريق البرى الممتد من الصين إلى آسيا الصغرى وموانىء البحر الأسود كثيراً ما عانى منه التجار بسبب عدم استقرار الأوضاع فى البلاد التى يمر بها ، فضلاً عن اعتداءات قطاع الطرق واللصوص على التجار وقوافلهم ، وهو ما ينسحب أيضًا على الطريق البحرى عبر الخليج العربى ، فقد انصرف عنه التجار بسبب تزايد نشاط القراصنة ومغامرى البحار من سكان جزر البحرين ، فأخذت المراكب الواردة من الشرق الأقصى تتحول عن ذلك الطريق إلى اليمن - إلى ميناء عدن على وجه الخصوص - لتسلك الطريق إلى البحر الأحمر ثم الموانىء المصرية . لذا كان طريق البحر الأحمر - علاوة على أنه أقصر الطرق - أكثر الطرق أمنًا واستقراراً وأقلها نفقة [٤]. فكان يرد إلى ميناء عيذاب المراكب من جميع بلاد الشرق [٥]، وأصبحت عيذاب

---

(١) المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على) : الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مطبعة النيل بمصر ، ١٣٢٤هـ ، ج١ ، ص ٣٢٧؛ القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٣٢٣هـ / ١٩١٥م ، ق٣ ، ص ٣٠٠ .

(٢) رحلة ماركو بولو : ص ٣٣٧ .

(٣) عمر كمال : الجاليات الأوربية ، ص ٢٨٤ .

(٤) عمر كمال : المرجع نفسه ، ص ٢٨٣ ، هذا وقد ظلت عيذاب محتفظة بمكانتها إلى أن حلت عدن مكانها بعد سنة ٨٢٠هـ / ١٤١٧م ؛ راجع المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص ٣٢٧ .

(٥) ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد) : الرحلة ، نشر وليم رايت William Wright ، الطبعة الثانية بمراجعة دى غويه M.J. De Goeje مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٧ ، ص ٦٩ .

المركز التجارى بين إفريقية وبلاد العرب ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر[١]، ومن مصر يتم نقل بضائع الشرق من ساحل البحر الأحمر إلى موانيها الواقعة على البحر المتوسط مثل الإسكندرية ودمياط ، ومنها كان يحصل التجار الأوربيون على البضائع ويقومون بنقلها إلى الغرب ، ويعنى هذا قصر نشاط الفرنج التجارى على موانى مصر الواقعة على ساحل البحر المتوسط . أما التجارة التى كانت ترد إلى مصر من أوربا فكانت تأتى عن طريق دمياط والإسكندرية أيضًا ؛ فترسو سفن البحر المتوسط المحملة بالبضائع عند فم بحر دمياط ثم ينقل ما فيها من البضائع فى مراكب نيلية [٢]. ثم عندما تم هدم بعض أجزاء من دمياط فى زمن الظاهر بيبرس خوفًا من قدوم حملة صليبية عن طريقها بعد فشل حملة لويس التاسع على مصر ، فضلت كثير من السفن الأوربية التوجه إلى الإسكندرية بدلاً من دمياط ، وبذلك صارت الإسكندرية من أكبر المراكز التجارية وكبرى موانىء دولة المماليك على البحر المتـــوسط [٣]. فكان يصدر من الإسكندرية منتجات الشرق الأقصى كالفلفل والزنجبيل والبخور وأنواع العطور المختلفة والخزف والقيشانى الصينى ولؤلؤ الخليج الفارسى وما تحتاج بلادهم من المنتجات المصرية كالبلح والتيل [٤].

ومن هنا كانت سياسة دولة المماليك للمحافظة على ثروتها الناجمة عن التجارة ، أن سارت فى اتجاهين متوازيين ؛ أولهما : تأمين طرق التجارة الآتية من الشرق مما حدا بها إلى تأمين حدودها من هذه الجهة ، ومن ثم عمل المماليك على بسط نفوذهم على بعض الدول المجاورة لهم إلى جانب إقامة العلاقات الدبلوماسية مع بعضها الآخر ؛ وثانيهما : تشجيع حركة التجارة مع الدول التجارية الأوربية ، فأبرمت المعاهدات والاتفاقات التجارية ومنحت التجار الأجانب الضمانات والتسهيلات اللازمة لضمان سير حركة التجارة دون عوائق .

---

(١) سرور : المرجع السابق ، والصفحة نفسها .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ، ص ٢٢٤ ؛ سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩، ص ٢١٠ ، وله أيضًا : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩٢ .

(٣) راجع القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ ؛ وانظر أيضًا : سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٩٣ .

(٤) سرور المرجع السابق ، ص ٣٣٦ .

أما عن الاتجاه الأول : وهو تأمين طرق التجارة وما يستلزمه من تأمين حدودها من ناحية وإقامة العلاقات الدبلوماسية من ناحية أخرى ، فقد حرص المماليك فى سياستهم إزاء المشرق الإسلامى على بسط نفوذهم السياسى والدينى على الحجاز ، وقد ساعدهم على ذلك التنازع بين أمراء مكة والمدينة على السلطة ، مما خلق جواً من عدم الاستقرار هناك ، مما يسفر اهتمام الناصر محمد بتنظيم شئون مكة والمدينة وتيسير سبل العيش لأهليها ، أكثر من حرصه على بسط سيادته عليها . فعنى بالوقوف على ما يشكو منه أهالى الأماكن المقدسة بالحجاز وصار يمدهم بالغلال إذا ما أصابهم القحط ، وكذلك كان يفيض على أمراء مكة والمدينة بالصدقات خلال موسم الحج ، مثلما رفع عنهم المكوس[١] . ولذا اتفق الناصر محمد فى سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م مع أميرى مكة والمدينة على أهالى هاتين المدينتين ، وتعهد بأن يعوضهما عنها بإقطاعات فى مصر والشام ، وهو ما انتهجه الأشرف شعبان من سياسة حيال الحجاز[٢] . أما فيما يتعلق ، باليمن ، فقد أصبح ملوكها يدينون بالطاعة لسلاطين مصر ويحرصون على إرسال الإتاوة إليهم خشية إقدام هؤلاء السلاطين على غزو بلادهم واستبدادهم بالسلطة فيها ، فكان الناصر محمد يرحب بالتدخل بين أمراء اليمن فى منازعاتهم وفيما يقع بينهم وبين الأئمة الزيدية رجاء أن يكون له ضلع فى إدارة شئونها الداخلية وفى تجارة الشرق [٣]، وقد استطاع سلطان مصر بتدخله لحسم الخلاف القائم فى بلاد اليمن بين أمرائها حينًا وبينهم وبين الأئمة الزيدية حينًا آخر أن يحتفظ لمصر بمكانتها السامية فى بلاد اليمن . هذا ، بالإضافة إلى أنه بفضل حرص ملوك اليمن على إرضاء سلاطين مصر ، صارت تجارة الشرق ترد إليهم دون أن ينالها أى سوء [٤].

أما فى الجنوب ناحية بلاد النوبة ، فقد تمكن الناصر محمد من اتخاذ سياسة حازمة إزاءها، وتدخل فى تعيين ملوكها الذين حرصوا بعد ذلك على دفع الأتاوة المقررة عليهم ، وأصبح الخطباء منذ تولى عرشها أولاد الكنز المسلمون يدعون على المنابر للخليفة العباسى

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ق١ ، ص ١٩٧ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٧ .

(٣) ميور (وليم) : تاريخ دولة المماليك فى مصر (١٢٦٠ - ١٥١٧م) ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، الطبعة الأولى ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م ، ص ٨٤ .

(٤) سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ١٣٨ .

بالقاهرة وسلطان مصر ، وأبطلت الجزية التي كانوا يدفعونها إلى السلطان المملوكي بمصر[١] ، وفي عهد الأشرف شعبان ، حدث قتال بين أولاد الكنز وطائفة العكارمة بأسوان وسواكن وقطعوا طريق التجارة ، فما كان من يلبغا الخاسكي إلا أن أرسل لهم من يقاتلهم من الأمراء وانتهى الأمر بإصلاح الأمور وعودة الأمن والسلام مرة أخرى[٢] .

أما عن الحبشة ، فنظراً لتلك العلاقة الكنسية التي تربطها بكرسي البطريركية في الإسكندرية ، فقد حرص ملوكها على اكتساب رضا بطارقة الإسكندرية واحترام أوامرهم وتقديسها . فكان ملوك الحبشة يبعثون بهداياهم وكتبهم إلى سلاطين مصر ، وحرصوا على إحكام أواصر الصداقة معهم ، هذا على الرغم مما كان يتمتع به ملوك الحبشة من نفوذ عظيم . ولم يتعكر صفو هذه العلاقة إلا بعد تولي عرش الحبشة جبره مصقل (٧١٢ - ٧٤٤هـ / ١٣١٢ - ١٣٤٤م) ، الذي أنفذ رسائله إلى الناصر محمد سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م يطلب منه إعادة بناء ما خرب من كنائس بالديار المصرية ، والتمس منه أن يعامل النصارى بالحسنى ، وهدده بأنه إذا لم يقم برعايتهم رعاية حسنة ، عامل رعاياه من المسلمين بالمثل وخرب مساجدهم ، وأنذره بتحويل مجرى النيل إلى الصحراء [٣]. فسخر منه الناصر ورد إليه رسله[٤]. وقد قضى جبره مصقل معظم حكمه في شن الحرب ضد مسلمي الحبشة ، فما كان من السلطان الناصر إلا أن أصدر مرسومًا للبطريرك بأن يرسل لملك الحبشة كتابًا يأمره فيه بالإقلاع عن إلحاق الضرر برعاياه من المسلمين ، فكان له ذلك . ثم وقعت حادثة أخرى في عهد نوايا كرستس ابن جبره مصقل (١٣٤٤م - ١٣٧٢م / ٧٤٥ - ٧٧٤هـ) فقد ألقى القبض على من ببلاده من التجار المصريين ، ومنع القوافل المصرية من دخول حدود بلاده ، حين وصله نبأ اعتقال بطريرك الإسكندرية بسبب رفضه دفع الضرائب الفادحة التي طلبها منه

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٧٨ ؛ قارن : ميور ، المرجع السابق ، ص ٨٣ . وقد ظل أولاد كنز الدولة أصحاب سيادة على جزء كبير من مصر العليا ، وظلوا حكامًا على النوبة إلى أن فتحها السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧م ؛ سرور : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٠٩ - ١١٢ ، ١٢٣ ؛ انظر أيضًا : ميور : المرجع السابق، ص ١٠٨ .

(٣) سرور : دولة بني قلاوون ، ص ١٣٨ .

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق١ ، ص ٢٧٠ .

سلطان مصر ، ولما رأى المصريون أن ملك الحبشة ، بوقوفه فى وجه التجارة المصرية قد أنزل خسائر فادحة فيما يتعلق بالتبادل التجارى بين مصر والحبشة ، اشتكوا للسلطان ، فلم ير بداً من أن يطلق سراح البطريرك ، ثم طلب منه أن يستخدم نفوذه لدى ملك الحبشة ليمهد الطريق للقوافل المصرية سبيل سيرها كما كانت الحال من قبل (١).

ويبدو أن هناك اتصالات متكررة بين ملوك الحبشة والغرب الأوربى ، فقد عملت البابوية منذ القرن الرابع عشر الميلادى بالذات (القرن الثامن الهجرى) إلى تقوية صلتها بالحبشة ، فقام وليم آدم – الراهب الدومينيكانى الذى اختاره البابا كليمنت الخامس سنة ١٣٠٥م / ٧٠٥هـ للتبشير فى الشرق برحلة طويلة زار فيها دولة المغول فى فارس ، ومنها انتقل إلى عدن ، فشرق إفريقية والحبشة ثم عاد إلى أوربا سنة ١٣١٦م / ٧١٦هـ (٢). ثم أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرين سفارة من الدومينيكان فى سنة ١٣١٦م / ٧١٦هـ إلى الحبشة ، ولكن رجالها وقعوا فى أيدى المماليك فى مصر ، كذلك كان مصير سفارة أخرى من الدومينيكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة فى سنة ١٣٣٨م / ٧٣٩هـ (٣). ويذكر الدكتور / سعيد عاشور نقلاً عن لابروكيير Dorquiere أن ملك الحبشة أسرع عندما بلغه نبأ إغارة بطرس دى لوزنيان ملك قبرس على الإسكندرية سنة ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ إلى إعداد جيش ضخم من ثلاثة ملايين وزحف على رأسهم شمالاً لمهاجمة دولة المماليك من الجنوب ، ولكنه لم يكد يقترب من تلك الحدود حتى علم بانسحاب بطرس من الإسكندرية ، فقفل راجعًا إلى بلاده بعد أن خسر فى تلك العملية زهاء مليونين من الرجال ، وعلى الرغم مما فى هذه الأرقام من مبالغة واضحة إلا أنها تشير إلى وجود اتصالات بين ملكى قبرس والحبشة بقصد كبس دولة المماليك من الشمال والجنوب (٤). وحتى وقت متأخر من القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى (طبعة بيروت ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ج ٥ ، ص ٣١٧ – ٣١٨ ؛ سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ١٥٨ .

(٢) انظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ١١٥٠ ؛ وأيضًا : Atiya, The Crusade, pp. 161 - 162 .

(٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٥٠ .

(٤) سعيد عاشور : المرجع السابق والصفحة نفسها .

وفى عـهـد كل من Newaya moryam ، وأخيه داود الأول ظلت العلاقة متوترة بين ملوك الحبشة ومسلمى بلادهم . فلما علم بذلك السلطان الظاهر برقوق سلطان مصر ، طلب من متى بطريرك الإسكندرية سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٨م بأن يرسل إلى داود ملك الحبشة كتابًا يأمره فيه بالكف عن شهر الحروب . وكان له ذلك[١] .

أما فيما يتعلق بعلاقة المماليك بالمغول فى فارس والعراق ، فقد تأرجحت بين العداء تارة وبين الصلح والمهادنة تارة أخرى . فعلى الرغم من اعتناق مغول فارس الدين الإسلامى فى عهد غازان ، إلا أنه لم يكن مبرراً فى نظره لوجود علاقات طيبة مع دولة المماليك فى مصر والشام . ولم يكن لإسلام غازان[٢] أى أثر فى توطيد علاقاته مع المماليك ، بل سار على سياسة من سبقوه من إيلخانات المغول ، فى بسط نفوذ دولته على ما جاورها من البلاد ، خاصة الشام التابع لدولة المماليك ، ومن ثم قضى فترة طويلة من حكمه فى محاربتهم . وقد استطاع الاستيلاء على دمشق سنة ٦٩٩هـ / ١٢٩٩م بعدما هزم المماليك فى مكان عرف باسم مجمع المروج [٣]، وكان غازان يأمل أن تساعده الدول الأوربية فى انتزاع سورية من قبضة المماليك ، فأرسل إلى ملكى انجلترة وفرنسا عدة سفارات يطلب العون ضد المماليك إلا

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، (طبعة بيروت) ، ص ٣١٧ - ٣١٨ ؛ المقريزى : السلوك ج٣ ، ق٢، ص ٤٤٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٤٦ " ثم فى تاسع عشرين ذى الحجة سنة ٧٨٨هـ قدمت رسل الحبشة بكتاب ملكهم الحطى واسمه داود بن سيف أرعَد ومعهم هدية على (أحدو) عشرين جملاً، فيها من طرائف بلادهم ، من جملتها قدور قد ملئت حمصًا صنع من ذهب إذا رآه الشخص يظنه حمصًا وغير ذلك؛ قارن أيضًا : Lithgow (William), (1612), (IFAO), dans : Voyages en Egypte des annés 1161et 1612, Le Caire, 1973, p. 314 etn. 586 .

(٢) عن إسلام غازان ، كان ذلك فى سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م ، راجع : مؤلف مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٣٤ - ٣٦ ؛ ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة (الطبعة الثانية) ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ .

(٣) شهاب الدين النويرى (أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق سعيد عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ج ٢٧ ، ص ٤١١ - ٤١٦ ؛ أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل) : المختصر فى أخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان (بدون تاريخ) ج٤ ، ص ٤٢ - ٤٦ ، ٤٨ - ٥٠ ؛ مؤلف مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٥٨ - ٦٢ ، ٨٤؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٦ - ١٠ ، ١١ - ١٦ ، ٢٣ - ٢٦ ؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٥ - ٢٤٩ ؛ النويرى السكندرى : الإلمام ، ج٤ ، ص ١١٩ - ١٢٢.

أن طلبـه لم يلق قبـولاً (١). فعمد غازان فى شهر رمضان سنة ٧٠٠هـ / مايو ١٣٠١م إلى محاولة مهادنة المماليك ، فأنفذ إلى الناصر محمد بن قلاوون رسالة بهذا المعنى (٢)، ولكن رسالته كانت تحمل الوعيد والتهديد فى طياتها (٣). ورد عليه الناصر فى سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م برسالة تحوى ذات اللهجة(٤) ومن ثم استؤنفت الحرب بينهما من جديد ، فكان النصر حليف المماليك فى وقعة شقحب عند مرج الصفر (٥). وبعد الوقعة ، أرسل الملك الناصر محمد كتابًا إلى غازان يحقر فيه من شأنه ويطلب منه الجلاء عن العراق ويتوعده بأنه سيأتيه بجيوشه ليقصيه عنها (٦)، ولم يتحمل غازان هذه الهزيمة عند شقحب فمات فى العام التالى قهراً (٧).

واستمر الصراع بين الفريقين على عهد خدابنده - أخى غازان وخلفه - الذى سار على نفس سياسة العداء نحو المماليك ؛ إلا أن هذا الصراع انتهى أخيراً بطلب الصلح والمهادنة من جانب خدابنده الذى أوفد إلى الملك الناصر رسولاً من قبله ، فتم عقد الصلح أخيراً بين الطرفين (٨). ثم أبرمت الاتفاقات فى عهد الأيلخان المغولى بوسيصد بن خدابنده الذى تولى من سنة (٧١٦ - ٧٣٦هـ / ١٣١٦ - ١٣٣٥م) وكان من ضمن شروط هذه الاتفاقات أن يكون الطريق بين دولة المغول فى فارس والعراق ودولة المماليك خاليًا من الموانع التى تعوق مرور التجارة بين

---

(١) ميور : تاريخ دولة المماليك ، ص ٧١ .

(٢) انظر نص الرسالة فى : مؤلف مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٩٣ - ٩٤ ؛ القلشقندى : صبح الأعشى ، (طبعة بيروت) ج ٨ ، ص ٧٠ - ٧٢ ، فى صيغة مخالفة .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٤) انظر نص الرسالة فى : مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٨ - ١٠٠ .

(٥) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ ؛ النويرى السكندرى : الإلمام ، ج ٤ ، ص ١٢٠ - ١٢٢ ؛ ج ٥ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٨ .

(٦) راجع نص هذه الرسالة فى : مؤلاف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٨ - ١٢١ .

(٧) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٥٠ . وكانت وفاته فى شهر شوال سنة ٧٠٣ هـ ؛ راجع شهاب الدين النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٧ ، ص ٤١٦ ؛ ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة (الطبعة الثانية) ج٤ ، ص ٢٥١ .

(٨) النويرى السُكندرى : الإلمام ، ج ٥ ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

الدولتين [١]. ثم تعرضت دولة المغول فى فارس للتصدع فى عهد الخان موسى ، فاستقل الأمراء بولاية الأقاليم ، ومنهم الشيخ حسن الجلايرى المعروف بالكبير الذى تمكن من الاستيلاء على بغداد فى سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٦م [٢]. وقد حاول الناصر محمد بن قلاوون استغلال هذه الفترة من الاضطرابات والفتن فى دولة المغول فاتجه بأطماعه نحو بلاد الفرس ، إلا أنه ما لبث أن أعرض عن ذلك بعدما حل الوئام بين المتحاربين حسن الكبير وحسن الصغير فى سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م [٣]. ولم تبد أى محاولة من جانب خلفاء الناصر فى بسط نفوذهم على حساب دولة المغول فى العراق لانصرافهم إلى توطيد سلطتهم والقضاء على الفتن الداخلية التى يثيرها الأمراء طمعًا فى الاستئثار بالحكم . على أن حادثًا سياسيًا وقع ببغداد حمل الأشرف شعبان على الطموح إلى مد رقعة دولته على حساب المغول ؛ ذلك أن حاكمها المغولى خواجا مرجان تمرد على الخان أويس فى سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٦م ، وخطب ببغداد للسلطان الأشرف شعبان وبعث رسله إلى القاهرة ومعهم كتاب يتضمن خلع أويس وإقامة الخطبة وضرب السكة باسم الأشرف شعبان ، وأخذ له البيعة ببغداد . فاستقبل السلطان الأشرف رسل خواجا مرجان استقبالاً حافلاً وزودهم بالهدايا النفيسة لخواجا مرجان وجهز أعلامًا سلطانية ، وخليفية وبعث أيضًا إليه تقليداً بنيابة بغداد [٤]. ولكن الأمر انتهى بالقضاء على حركة التمرد التى قام بها خواجا مرجان وعودة أويس إلى بغداد فلم تتحقق بذلك أطماع الأشرف شعبان فى العراق[٥].

أما عن علاقة المماليك بالدولة البيزنطية فكانت علاقة تحالف منذ عهد ميخائيل الثامن باليولوجس إمبراطور بيزنطة (١٢٥٨ - ١٢٨٢م) والظاهر بيبرس ، عندما حرص الأخير على وجود مثل هذه العلاقة ليستعين بملوكها ضد الصليبيين ، بالإضافة إلى تأمين طرق التجارة ، وللوقوف ضد اللاتين الذين كانوا يوالون إمداداتهم إلى الصليبيين فى الشام[٦]. وقد استمرت

---

(١) سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ٢٠٧ ؛ ولكن انظر المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢١١ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٣٩٧ .

(٣) سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ٢١٦ .

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١١٢ .

(٥) ميور : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٦) ميور : تاريخ دولة المماليك ، ص ٤٤ - ٤٥ ؛ وانظر أيضًا : سرور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١١٧ - ١١٨ .

هذه العلاقة الودية فى عهد أسرة قلاوون ، والإمبراطور اندرونيق الثانى Andornicus II (١٢٨٢ - ١٣٢٨م) الذى سار على سياسة أبيه ، فحرص على مسالمة المماليك فى مصر والشام ، حتى أنه رفض التعاون فى شن الحرب الصليبية التى وضع خطتها مارينو ساندو Marino Sanudo ورفض قطع العلاقات الودية مع سلطان مصر [١].

وقد ظل الصفاء سائداً بين مصر والدولة البيزنطية ، ويدل عليه ما أنفذته القسطنطينية من رسل فى سنة ٧٧١ هـ / ١٣٧٠م إلى السلطان الأشرف شعبان من أجل إبرام الصلح مع القبارصة وفك أسرى الفرنج [٢].

وإذا كان هذا هو حال العلاقات بين المماليك والدولة البيزنطية ، فقد اختلف الأمر مع مملكة أرمينية الصغرى التى كانت حدودها تمتد إلى حدود إمارة أنطاكية [٣]. وقد ساعدها موقعها هذا بين القوى الإسلامى والقوى المسيحية العديدة فى شمال الشام والعراق وشرق آسيا الصغرى أن تقوم بدور بارز فى تاريخ الحروب الصليبية فى الشرق الأدنى ، مما كان له أكبر الأثر فى تعرضها لانتقام المماليك منها بغزو أراضيها وإجبارها على دفع الجزية . وقد وجه السلطان الظاهر بيبرس هجماته إلى بلاد أرمينية بعد الذى رآه من تحالفها مع البابوية والقوى

---

(١) Atiya, The Crusade, p. 120 .

(٢) انظر النويرى السكندرى : الإلمام ، ج ٦ ، ص ٣٩٦ ؛ قارن : المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق١ ، ص ١٦٩ . ولقد استمرت هذه العلاقة الودية خاصة ما كان منها فى عهد الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس John V (١٣٤١ - ١٣٩١م / ٧٤٢ - ٧٩٤هـ) الذى اهتم بتنمية العلاقات التجارية مع مصر ، فقدمت رسله إليها فى سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٦م ومعهم الهدايا طالبين من السلطان أن يكون للبيزنطيين قنصل بالإسكندرية أسوة بالبنادقة ، فأجابهم إلى طلبهم ؛ راجع : ابن حجر العسقلانى : إنباء الغمر بأبناء العمر ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ج١ ، ص ٣٠١ ؛ ولم يرد اسم الإمبراطور البيزنطى فى نص ابن حجر ، ولكن بلقبه المعروف لدى المسلمين عن كل إمبراطور بيزنطى وهو (الأشكرى) ؛ انظر المصدر والصفحة نفسها ، هـ١ ؛ وراجع عن اسم الإمبراطور البيزنطى فى ذلك الوقت : سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ٢٦٢ .

(٣) كان أهل أرمينية خليطاً من سكان آسيا الصغرى المسيحيين الذين فروا إلى تلك المنطقة الجبلية فى جنوب شرق آسيا الصغرى واحتموا بها من خطر السلاجقة ؛ انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م ، ج ٢ ، ص ١١٥٥ .

المسيحية في غرب أوربا من ناحية ، وبمغول فارس من ناحية أخرى للعمل ضد الدولة المملوكية ، فأخضعها وقبل ملكها دفع الجزية للمماليك ، وأعلن خضوعه لمصر سنة ١٢٥٦٧م / ٦٦٦هـ [١].

وقد كان للعامل الاقتصادى أثره البالغ فى توتر العلاقات بين المماليك وأرمينية الصغرى فى القرن الرابع عشر ، إذ لجأ ملوك أرمينية إلى مساعدة البابوية فى إحكام الحصار الاقتصادى ضد المماليك ، عن طريق فتح أبواب موانيهم وخاصة أياس للسفن الغربية بغرض تحويل جزء كبير من تجارة أوربا والشرق إلى طريق أياس - تبريز ، وقاموا بتخفيض الضرائب على البضائع المارة ببلادهم من ٤٪ إلى ٢٪ من قيمة البضاعة [٢]. وقد رأى المماليك أن فى هذه السياسة التى اتبعتها أرمينية خطر يهدد مركز بلادهم فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، خصوصًا بعد أن انتهز الأرمن فرصة استيلاء المغول على دمشق فاستعادوا جميع حصونهم التى فقدوها فى زمن الظاهر بيبرس ما عدا حصن حجر شغلان [٣]. فما كان من السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلا أن أرسل لها جيشًا لإخضاعها فى سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م [٤]، ثم عاود الأرمن العصيان مرة أخرى ، فاشتركوا مع المغول فى سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م فى معركة مرج الصفر (شقحب) والتى هُزم فيها المغول حسبما مر بنا من قبل ، فكان انتقام الناصر محمد مرة أخرى من أرمينية فى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م عندما وجه إليها

---

(١) راجع من المصادر المعاصرة : ابن العبرى (أبو الفرج جمال الدين) : تاريخ الزمان (تاريخ ابن العبرى) نقله من السوريانية إلى العبرية الأب اسحاق أرملة ، دار الشرق ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٦ ؛ وله نفسه باللغة العربية تاريخ مختصر الدول (وهو مختصر لتاريخه بالسوريانية) الطبعة الأولى ، دار السيرة ، بيروت (بدون تاريخ) ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ ؛ ابن عبد الظاهر (محيى الدين) : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز خويطر ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، ص ٣٢٧ - ٣٢٩ ؛ ولكن انظر أيضًا : المقريزى : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٦٩ - ٥٧٠ ؛ وراجع : ميسور : تاريخ دولة المماليك ، ص ٤٨ - ٤٩ ؛ Lane, Poole (Stanley), A History of Egypt in the Middle Ages, 4th. edition (New impression), London, 1968, p. 267 ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٥٦ ؛ على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، ص ١٦٧ .

(٢) انظر سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٥٨ ، نقلاً عن (هايد) .

(٣) على إبراهيم حسن : دراسات ، ص ١٦٧ .

(٤) أبو الفدا : المختصر ، ج ٤ ، ص ٤٦ - ٤٧ .

الجيوش من جند مصر والشام ، فهدم عاصمتها سيس وخرب الكثير من الحصون وأجبر الأرمن على دفع الجزية المضاعفة [١]. وقد ظلت العلاقة بين المماليك وأرمينية متقلبة بين الخضوع تارة والتمرد تارة أخرى ، وكان آخرها انحراف ملكها ليو الخامس Leo V عن ولائه لمصر إذ كان يأمل فى مساعدة البابا حنا الثانى والعشرين John XXII (١٣١٦ - ١١٣٤م) الـذى كان يعد مشروع حملة صليبية على مصر تحت قيادة ملك فرنسا فيليب السادس سنة ١٣٣٥م / ٧٣٦هـ ؛ إلا أن البابا مات وأهمل مشروع الحملة ، فصمم الناصر على الانتقام من ليو السادس الأرمينى فأرسل جيشًا لمحاصرة سيس سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م [٢]. فما أتت سنة ٧٣٧هـ / ١١٣٦م إلا وقد سلم ليو الأرمينى للناصر مفاتيح سبع قلاع والموافقة على دفع الجزية ونفقات الحملة ؛ وانتهى الأمر على ذلك بخضوعها مرة أخرى [٣]. وظلت دولة الأرمن قائمة حتى سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٥م فى عهد الملك الأشرف شعبان عندما استولى الأمير اشقتمر - نائب حلب - على عاصمتهم سيس بعد أن نازلها مدة ثلاثة شهور حتى فتحها ، فانقرضت بذلك دولة الأرمن فى ١٩ ذى القعدة سنة ٧٧٦هـ / ٢٢ أبريل سنة ١٣٧٥م [٤]. وبعد أن انتهت الأحداث بأسر ملكها ليو السادس Leo VI الذى بقى فى مصر مأسوراً إلى سنة ١٣٨٢م / ٧٨٤هـ حتى توسط له الملك يوحنا الأول ملك قشتالة ، فأطلق سراحه ، إلا أنه حرمت عليه العودة إلى بلاده ، فصار يتجول فى البلاد الأوربية حتى مات فى باريس سنة ١٣٩٣م (٧٩٦هـ) [٥].

أما عن شمال إفريقية ، فقد امتد به نفوذ المماليك فذكر اسم الناصر محمد على منابر تونس وطرابلس الغرب ، ودان له صاحب تونس أبو زكريا يحيى الحفصى بحماية عرشه بعد أن توجه

---

(١) أبو الفدا : المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ٥١ - ٥٢ ؛ ومؤلف مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛ وانظر أيضًا : على إبراهيم حسن : دراسات ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) انظر : على إبراهيم حسن : دراسات ، ص ١٦٩ .

(٣) راجع : المؤلف المجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٩٤ ؛ ابن الوردى (زين الدين عمر) : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة - بيروت - لبنان ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ .

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٣٧ ؛ ابن تغرى بردى ١١ ، ص ٦٦ .

(٥) Iorga (Nicolas), Histoire des croisades, Paris, 1924, p. 191; ميسور : تاريخ دولة المماليك ، ص ١٠٧-١٠٨ .

أبو زكريا إلى مصر فى سنة ٧١١هـ / ١٣١١م طالبًا من الناصر إعانته على استعادة ملكه فى تونس على أن يكون نائبًا له بها[١]. وتبادل أيضًا الناصر محمد الهدايا والرسل مع ملوك المغرب الأقصى [٢]، ومع صاحب تلمسان الذى كان يراسل الناصر محمد ، وحرص على التودد إليه[٣]. وفى عهد الأشرف شعبان ، لجد السلطان محمد الغنى بالله ، سلطان غرناطة يبعث برسالة إلى يلبغا الخاسكى توضح لنا تلك العلاقات الودية التى كانت بين مملكة غرناطة وسلطنة المماليك بمصر ؛ ثم يلحق هذا الخطاب بسفارة وخطاب آخر للسلطان الأشرف شعبان ، يتضمن نجاحه فى تغلبه على المسيحيين بأسبانيا واستعادة ملكه فى سنة ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م والذى كان قد اغتصبه منه بعض أقاربه . وقد رد عليه الأشرف شعبان برسالة يهنئه فيها بهذا النصر [٤].

هذا عن الخط الأول الذى حرصت دولة المماليك على السير فيه ، أما الخط الثانى فهو تشجيع حركة التجارة مع الدول التجارية الأوربية ، وفى مقدمتها الجمهوريات الإيطالية : البندقية ، وجنوه وبيزا . فعقدت المعاهدات التجارية مع تلك الجمهوريات منحت لها بمقتضاها امتيازات تسهل لتجارها المتاجرة مع مصر ، وتتعهد بحمايتهم هم وأموالهم[٥] وكذلك نجدها تقيم العلاقات الودية ملوك فرنسا وقشتالة وصقلية وإمبراطور ألمانيا ، وأبرمت فى الوقت نفسه معاهدات دفاعية مع كل من ألفونسو Alfonso صاحب قشتالة وجيمس James ملك صقلية [٦]، وقد حرصت دولة المماليك على اتباع السياسة التى وصفها من قبل صلاح الدين الأيوبى ، وطبقتها بنجاح ، وهى سياسة غلق البحر الأحمر فى وجه التجار الأوربيين ، واستمرت فى الوقت نفسه فى العمل على اجتذاب هؤلاء التجار للاتجار فى موانيها الواقعة على البحر المتوسط ، بما كانت تبذله من عهود وتعقده من مواثيق مع الدول الغربية [٧].

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٨٨ - ١٩٠ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٢) راجع سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ١٤٣ .

(٣) راجع هذه المراسلات فى القلقشندى : صبح الأعشى (طبعة بيروت) ، ج٨ ، ص ٨٥ - ٨٨ .

(٤) راجع القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٧ (طبعة بيروت) ، ص ٤٤٠ - ٤٤٤ .

(٥) جوزيف نسيم : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٦) Lane-Poole, A History of Egypt, p. 281 ؛ ميور : تاريخ دولة المماليك ، ص ٥٨ .

(٧) عمر كمال : الجاليات الأوربية ، ص٢٩٢ ؛ ولكن راجع فيه أيضًا ، ص ٢٨٨ .

فكان لكل من البندقية وجنوه وبيزة قناصل بدمياط ورشيد والإسكندرية ، وأكدت هذه المعاهدات التجارية على مدى اهتمام دولة المماليك بمصر والشام بتنمية تجارتها لما كانت تدره عليها من أرباح طائلة ساعدتها فى تقوية نفسها وتعزيز جيشها وأسطولها لمقاومة الصليبيين فى الأراضى المقدسة [١].

والظاهرة اللافتة للنظر ، هى استعداد كل من المسلمين والفرنج لمواصلة التبادل التجارى على الرغم مما كان ينشب بينهم من قتال [٢]. فقد فصل المماليك بين حربهم مع الفرنج والاتجار معهم فى الوقت نفسه . ويدل على ذلك ما حفظه لنا القلقشندى من نسخ المهادنات المعقودة بين مصر والفرنج فى عهد الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل فيما بين عامى ٦٦٥ - ٦٩٢هـ / ١٢٦٦ - ١٢٩٢م فقد وردت فيها إشارات عديدة تتعلق بتأمين التجار الفرنج بالشام وغيرهم من الوافدين من الغرب [٣].

هذا ، وقد ظل التبادل التجارى رائجًا بين مصر وأوربا ، الأمر الذى جعل البابوية تستشعر الخطر فى ذلك ، خاصة بعد سقوط عكا . ومن ثم شرعت البابوية فى إثارة الدول الأوربية

---

(١) جوزيف نسيم : دراسات فى تاريخ العلاقات ، ص ١٠٢ - ١٠٤ .

(٢) أدرك الرحالة ابن جبير فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) هذه الظاهرة وهو يجوس خلال أراضى الصليبيين قبل عودته - فى رحلته الأولى إلى الأندلس وهو يستعد للركوب من عكا - التى عبر عنها بقوله " ومن أعجب ما يتحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين شاهدنا من ذلك عند خروجنا (يقصد من عكا) أمرًا عجيبًا ، ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلسى) رحلة ابن جبير ، نشر دى غوية ، الطبعة الثانية ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٧ ، ص ٢٩٨ . وهو نص يكثر المحدثون من الاستشهاد به فى هذا المقام مع غيره من نصوص ابن جبير (راجع فيه أيضًا : ص ٣٠٨ ؛ انظر على سبيل المثال :

Grousset (René), Histoire des Croisades et du Royaume France de Jérusalem, Paris 1935, Vol. 2.P. 752; Lopez (Robert), " Les Influences Orientales et L'Everl Économique de l'Occident", dans : Cahiers d'Histoire Mondial, Vol.1, No.3 (Janvier 1954), Paris 1954, p. 614 ؛ نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٨٩٦١، ص١٨٢ .

(٣) راجع القلقشندى : صبح الأعشى (طبعة القاهرة) ج ١١ ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ ؛ ج ١٤ ص ٣١ - ٦٣ ؛ وانظر أيضًا : جوزيف نسيم : دراسات ، ص ١٠٤ - ١١٢ .

ضدها للقيام بحرب صليبية جديدة ؛ فحاول البابا Nicholas IV نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٣م) أن يستشير الغرب الأوربى للقيام بهذه الحملة ولكنه لم يجد استجابة لمشروعه[(١)] .

ومن ثم قصدت البابوية إلى إشهار سلاح اقتصادى ضد المماليك فى مصر ، وهو منع تصدير المواد الاستراتيجية التى تستخدم فى الحرب مثل الحديد والخشب والكبريت والقار إلى دولة المماليك . فأصدر الباباوات نيقولا الرابع وبونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣م) Boniface VIII وبندكت الحادى عشر Benedict XI (١٣٠٣ - ١٣٠٤م) قرارات حرموا فيها المتاجرة فى هذه المواد مع المسلمين [(٢)]. ولقد ذهبت البابوية إلى أبعد من هذا ، فأصدر البابا كلمنت الخامس Clement V (١٣٠٥ - ١٣١٤م) فى سنة ١٣٠٧م / ٧٠٧هـ منشورات مختلفة أشار فيها إلى أن تصدير البضائع بغير استثناء إلى أراضى السلطان المملوكى يقع تحت طائلة الحظر ، وأن من يخالف تلك القرارات يتعرض لمصادرة أمواله وفقد حريته[(٣)] ، وفى الوقت نفسه ظهرت مشاريع الدعاة التى اتجهت اتجاهًا اقتصاديًا ، فرأت أن إضعاف مصر اقتصاديًا هو العامل الأول فى تحقيق ذلك حتى يتسنى للغرب الأوربى استرداد الأراضى المقدسة . واعتنق هذا المبدأ كل من مارينا ساندوا Marino Sanudo ورامون لل Rzaymond Lull ، وهنرى دى لوزنيان Henri de Lusigan وغيرهم [(٤)].

---

(١) Runciman (Steven), A History of the Crusades, Vol. III : The Kingdom of Acre and the later Crusades, Cambridge, 1955, pp. 429 - 30

والترجمة العربية للدكتور / السيد الباز العرينى تحت عنوان (تاريخ الحروب الصليبية) ج٣ ، مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان (بدون تاريخ) ، ص ٧٢١ .

(٢) Wiet (Gaston), Histoire de la Nation Egyptienne, Tome IV : L'Egypte Arabes, Paris 1937, pp. 489 - 90; Atiya, The Crusades, p. 45; Runciman, A History of the Crusades, III, p. 430 ، والترجمة العربية ، ص ٧٢٢ ؛ سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ٢٤٠ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٤٤ .

(٣) انظر : Atiya, The Crusade, pp. 53 - 4 ؛ وراجع أيضًا : سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٤ ؛ وله أيضًا الحركة الصليبية ، ص ١١٤٥ .

(٤) سوف نشير إلى هؤلاء الدعاة ومشاريعهم تفصيلاً فى الفصل الثانى من الدراسة،انظر ص٩٣- ١٠٥.

على أية حال ، فإن الجهود التى بذلتها البابوية لحمل التجار الأوربيين على مقاطعة مصر اقتصاديًا والاستعاضة عن طريق مصر - البحر الأحمر بطريق إياس - تبريز - ، هذه الجهود قد باءت بالفشل ، ذلك لأن القوى التجارية فى غرب أوربا أدركت مدى الخسائر التى عادت عليها نتيجة لحرمانها من الاتجار مع مصر ، فتحايلت بشتى الطرق على هذه القرارات لاستئناف نشاطها التجارى مع مصر (١). فكان أن أرسل جيمس ملك أراجون كثيراً من السفراء إلى السلطان الناصر محمد لتجديد الاتفاقات التجارية مما يعتبر إقراراً منه لتخليه عن تنفيذ قرارات الحظر البابوى . وظلت برشلونة محتفظة بقناصلها بالإسكندرية ولم تستدع رعاياها من هذه المدينة (٢). وكذلك كان موقف جنوه حيث ضربت بقرارات البابوية عرض الحائط ، ولم يختلف موقف البندقية عن ذلك ، ولكن تجارتها مع مصر اعترض عليها مجلس السناتو بين سنتى ١٣١٣م ، ١٣١٧م (٧١٣ - ٨١٧هـ) الذى قضى بمنع تصدير البضائع إلى ممتلكات السلطان المملوكى ، فحملها هذا على ممارسة الضغط على البابوية لتحصل على ترخيص بتصدير الذهب والفضة والقصدير والنحاس والجوخ وغير ذلك من البضائع الأوربية إلى مصر ، فكان أن خففت البابوية من غلوائها وحددت المواد التى تمنع تصديرها من الخشب والحديد والتى تستعمل فى التسليح (٣).

وفى واقع الأمر كانت المدن التجارية الإيطالية أو البروفنسالية أو الأرجونية ، قد رأت أن مثل هذه القرارات يتعذر عليها تنفيذها من الناحية العملية ، فإن رخاءها إنما يتوقف على التجارة الشرقية التى يمر جزء كبير منها عبر ممتلكات الدولة المملوكية ، فإذا توقفت تجارتها هذه ، فلن يكون بوسعها الإبقاء على أساطيلها فى البحر المتوسط ، لأنها ستخسر جانبًا كبيراً من دخلها الذين يضمن لها التفوق البحرى عبر مياه هذا البحر ، وبالتالى يصبح من السهل على المسلمين السيطرة على شرق البحر المتوسط . لذلك يمكننا أن نرى بوضوح ، كيف أن المصالح التجارية قد أضحت فى ذلك الوقت من الكنيسة وقرارتها ، لأن حياة هذه المدن التجارية ووجودها إنما يتوقف على تجارتها(٤) . فنجد البندقية فى سنة ١٣٤٤م / ٧٤٥هـ قد

---

(١) انظر سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٩٤ .

(٢) Wiet, L'Egypte Arabe, pp. 489-91 ؛ وانظر أيضًا : سرور : دولة بنى قلاوون ص ٣٤١ ؛ سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ٢٩٤ .

(٣) Wiet, op. cit., p. 491 .

(٤) Atiya, The Crusade, P. 45; Runciman, op. cit., III, p. 430 .

أرسلت سفيراً لها إلى السلطان الصالح اسماعيل (١٣٤٢-١٣٤٥م/٧٤٣ - ٧٤٦هـ) للحصول على امتيازات تجارية جديدة ، فأجابه السلطان إلى طلبه ورحب بكل من يفد إلى دولته من تجار البنادقة ، بل إن السفير نفسه حينما قدم إلى مصر بعد ذلك فى سنة ١٣٤٥م / ٧٤٦هـ تسلم كتاب السلطان الصالح إسماعيل يجدد فيه وعده بالترحيب بتجار البندقية وأذن بالإضافة إلى هذا بإنفاذ قناصلها إلى الإسكندرية وغيرها من البلاد الخاضعة لنفوذه[١]. والملاحظ فى هذا الصدد أن البابا أوربان الخامس Urban V (١٣٦٢ - ١٣٧٠م) كان مستمراً فى إصدار المزيد من التراخيص للبنادقة والجنوية لمزاولة التجارة فى الإسكندرية وذلك فى فترة الأربعينات من القرن الرابع عشر . ومن المصادفات الجديرة بالملاحظة أن المكاتبات بشأن العلاقات التجارية قد تمت بين مصر وبين كل من البنادقة والجنوية فى سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م وهى السنة نفسها التى وقعت فيها غارة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية [٢].

وخلاصة القول ، إن الدولة المملوكية فى تلك الفترة ، إنما كانت على جانب كبير من الثراء الناتج من معاملاتها التجارية ، وقد مكنها هذا الثراء من تقوية نفسها ومد نفوذها السياسى وصمودها فى حروبها ضد الصليبيين والمغول فى الوقت نفسه . وهى إن كانت قد تعرضت لفترة قلاقل داخلية بعد موت الناصر محمد (أى فى عهد أولاد الناصر وأحفاده) نظراً لما حدث من تنافس بين أمراء المماليك وتسلط الأتابكة على السلاطين الصغار والضعاف وغير ذلك من الأمور الداخلية التى قمنا باستعراضها من قبل ، إلا أنها فى الحقيقة كانت جبهة واحدة ضد الأخطار الخارجية ، وكانت قوتها العسكرية والاقتصادية من أهم الأسباب التى أزعجت البابوية وجعلت الدعاة اللاتين يركزون فى مشاريعهم على ضرب هذه الدولة اقتصاديًا حتى يتسنى لهم القضاء عليها عسكريًا .

أما فيما يتعلق بالغرب اللاتينى ، فعلى الرغم من أن سقوط عكا فى أيدى المماليك وضياع الشرق الإفرنجى قد أثار موجة من الحزن والغضب ؛ إلا أنه لم يثر رد فعل عنيف من

---

(١) سرور : دولة بنى قلاوون ، ص ٣٤٢ ؛ عمر كمال : الجاليات الأوربية ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) Edbury (Peter W.), " The Crusading policy of King Peter I of Lusignan of Cyprus, 1359 - 1369", in : Holt, P.M. (editor), The Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades, Warminster, England, 1977, p. 95 ؛ جوزيف نسيم : دراسات فى تاريخ العلاقات ، ص ٩٨ .

جانب الغرب الذى انشغل فى ذلك الوقت بما وقع فى أقطاره من مشاكل ومنازعات ولم يعد لديه جذوة الحماسة التى تدفع أمراءه وسادته إلى السير نحو الشرق [(١)]. ومما لاشك فيه أن الغرب كان يعيش فترة انتقال ، بدأت تتغير فيها المفاهيم القديمة التى صاحبت الحركة الصليبية منذ نشأتها [(٢)]. فقد دخلت البابوية مع الإمبراطورية الرومانية فى صراع طويل خرجت منه البابوية منتصرة فى الظاهر ، بعد أن وجهت جهودها إلى محاربة أسرة هوهنشتاوفن الألمانية ، وإلى صراعها ضد صقلية ، حيث حاز الجيش البابوى الفرنسى نصره النهائى فى ١٢٦٨م / ٦٦٧هـ [(٣)]. وإذا كانت البابوية قد خرجت منتصرة فى حروبها ضد الإمبراطورية ، إلا أنها ما لبثت أن أصبحت فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى / أواخر القرن السابع الهجرى تحت رحمة الأمراء فى روما[(٤)] . وفى أوائل القرن الرابع عشر حدث أن أختير البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤م / ٧٠٥ - ٧١٤هـ) من فرنسا ، فاختار أن يبقى فى فرنسا ، واختار مدينة أفنيون Avignon على نهر الرون مقراً جديداً للبابوية [(٥)]. وهكذا أصبحت البابوية وهى التى قهرت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وآل هوهنشتاوفن فرنسية بعد أن وليها بابا من أصل فرنسى أحاطت به بطانة من الكرادلة الفرنسيين [(٦)]. ولاشك أن البابوية فى أفنيون كانت فى مأمن من منازعات الأمراء فى إيطاليا ولاسيما بعد أن اشترى أفنيون البابا كلمنت السادس Clement VI سنة ١٣٤٨م / ٧٤٩هـ وأصبحت ملكًا للبابوية .

---

(١) رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧١٨ (الترجمة العربية) .

(٢) De Mas Latric (M.L), Histoire de L'Ile de Chypre Sous Le Régne des Princes de la Maison de Luignan, Paris 1861, Vol. I, pp. 502 - 503 .

باركر (إرنست) ، الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ١٨٤ .

(٣) فشر (هـ.أ.ل. H.A.L.Fisher) : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦ ، ج١ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٢٥٦ ؛ رانسيمان : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٧١٨ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٢٩ .

(٤) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، التاريخ السياسى ، الطبعة الثامنة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٥ ، ص٤٩٨ .

(٥) Renouard (Eves), La Papauté A Avignon, Paris 1954, pp, 9, 11 - 15 .

(٦) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ص ٤٩٩ .

على أن هذا الأمن والسلام التى تمتعت بها البابوية فى أفنيون كانا لا يعادلان بأى حال الخسارة الأدبية التى لحقت بها لبعدها عن روما ، حيث استمدت نشأتها وأهميتها فى نظر العالم الغربى من كرسى القديس بطرس فى روما . هذا ، علاوة على أن البابوية لم تكن متمتعة بكامل حريتها أثناء إقامتها فى أفنيون ، فبدا بابوات أفنيون فى نظر المعاصرين صنيعة لملوك فرنسا ، بل سجناء تحت سلطانهم ، حتى أطلق على هذه الفترة من تاريخ البابوية اصطلاح " الأسر البابلى "[(١)] ثم لم تلبث البابوية أن تعرضت لتطورات خطيرة، وذلك أن الآفاق الجديدة التى أخذت تظهر وتنتشر فى الغرب الأوروبى فى أواخر العصور الوسطى نتيجة للنشاط الاقتصادى والتطور السياسى والاجتماعى وازدهار العلوم الجديدة التى احتضنتها الجامعات الناشئة جعلت الغرب ينشغل عن الكنيسة وتعاليمها ويتجه نحو حياة أكثر حرية وأوسع أفقًا ، حتى بدا صالح الدولة أكثر أهمية من صالح الكنيسة ، وأن واجب الفرد نحو نفسه ووطنه يجب أن يسبق واجبه تجاه كنيسته . ولا شك أن تلك الأوضاع جميعها جعلت المعاصرين يعيدون النظر فى حقيقة الوظيفة البابوية وأهمية البابا فى المجتمع ومصدر سلطاته الواسعة ، فالإنشقاق الدينى فى الغرب ، وما تلاه من ظهور بعض الحركات الهرطقية التى اتجهت نحو نقد الكنيسة وتصرفاتها وتجريح رجال الدين وعلى رأسهم البابا والإقلال من شأنهم مثل الكاثرية واللولاردية والالبيجنسية.- كل هذا أسهم فى ضياع هيبة البابوية وضعف سلطانها على النفوس ، مما أفقد الحركة الصليبية تلك الروح القوية التى بدأت بها تحت زعامة وقوة البابوية[(٢)].

أما فى ألمانيا فقد أدى اهتمام الأباطرة بإيطاليا إلى إهمال شئون ألمانيا ، ثم ما لبثت المدن الألمانية أن انشغلت بتكوين دولة حديثة ، فخطت خطوات واسعة فى سبيل الانتعاش الصناعى والتجارى والاستقلال السياسى [(٣)]. وأما بالنسبة لانجلترا وفرنسا وهما الدولتان اللتان طالما أسهمتا فى الحركة الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين

---

(١) سعيد عاشور : المرجع نفسه ، ص ٥٠٠ .

(٢) انظر باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٩٠ - ١٩١ ؛ سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٢ - ١١٣٣ ؛ جوزيف نسيم : دراسات ، ص ٥٧ - ٦٠ .

(٣) انظر : Mas Latrie, I, p. 503 ؛ سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ص ٣٩٣ ؛ وله أيضًا الحركة الصليبية ، ص ١١٢٩ .

(السادس والسابع للهجرة) ، فقد اشتبكتا ضد بعضهما البعض فى حرب المائة عام ، مما أدى إلى استنفاد موارد الدولتين وجهودهما جميعًا ، فعلى الرغم مما اشتهر به فيليب الرابع ملك فرنسا من الكفاية والنشاط ، فإنه أنفق طاقته فى بناء السلطة الملكية بعد أن خلص مملكته من الحرب الصقلية [١]. أما انجلترا فقد شهدت تطوراً دستوريًا صحبه صراع مع الملك ، ثم نشوب الحرب ضد اسكتلندا [٢].

وأما عن أسبانيا ، فقد كانت منقسمة سياسيًا إلى عدة وحدات هى : أراجون ، وقشتالة ، وليون ، ونافار ، والبرتغال ، وقد أدت المنافسة بين هذه الوحدات إلى عدم تمكينها من الإسهام فى حرب صليبية خارج شبه جزيرة آيبيريا . وإن كانت هذه الوحدات تتضامن فى كثير من الأحيان لمحاربة المسلمين لإجلائهم عن أسبانيا . وقد أفلحت فى إقصاء المسلمين إلى أقصى الطرف الجنوبى فى غرناطة وحيث دولة بنى نصر التى أسسها ابن الأحمر المعروف بقوة المراس[٣]. هذا ، وقد اعتبرت حروب الأسبان ضد المسلمين حربًا صليبية لا تقل فى أهميتها عن الحروب الصليبية فى منطقة الشرق الأدنى الإسلامى[٤] . وفى أراجون ، دخل ملكها جيمس الثانى James وأخوه فردريك Fredrick – الذى كان يطالب بعرش صقلية – دخلا فى قتال مع تابع البابا شارل الثانى Charles ملك نابولى الذى توفرت عنده الرغبة من الناحية النظرية فى إعداد حملة صليبية ، غير أنه كان لزامًا عليه قبل كل شىء أن يطرد الأرجونيين من صقلية [٥]. وأما بالنسبة لإيطاليا ، فقد صارت فى شغل شاغل عن الحرب الصليبية بما قام فيها من نشأة القومونات وهى المدن ذات الكيان السياسى والاقتصادى المستقل ، والتى سرعان ما انتعشت وتحولت إلى جمهوريات أخذت تعمل بنشاط فى الميدان الحضارى والمجال الاقتصادى ، مما عاد عليها بالثروة الطائلة . ومن ثم وجدت هذه الجمهوريات أن مصالحها

---

(١) رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٧١٨ – ٧١٩ (الترجمة العربية) .

(٢) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ، ص ٤٨١ – ٤٨٣ .

(٣) ازدهرت هذه المملكة وبقيت فى مواجهة الأسبان أكثر من قرنين ونصف من الزمان (١٢٣٨ – ١٤٩٢م / ٦٣٦ – ٨٩٨هـ) . وقد نزح إليها الأندلسيون الذين فروا أو طردوا من بلادهم بعد سقوطها فى يد الأسبان ؛ أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الطبعة الأولى ، الإسكندرية ، ١٩٦٨، ص ٣٩٢ .

(٤) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٠ .

(٥) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧١٩ .

تتعارض مع محاربة المسلمين وقطع علاقاتها التجارية معهم . وعرف عن المدن التجارية الإيطالية شدة انصرافها لتطويع سياستها لتلائم الأحوال والظروف المتغيرة . فلم يكن بوسعها ، أن تبذل من الوعود للمشاركة فى حرب ضد المسلمين [١]؛ ولكنها على العكس من ذلك أقامت العلاقات الطيبة مع مصر ودول الشرق الأدنى الإسلامى قبل قيام الحركة الصليبية وأثرت من وراء ذلك ثراءً كبيراً . وكان إسهامها فى الحملات الصليبية التى اندلعت فى أواخر القرن الحادى عشر نتيجة طبيعية لسياستها ، التى كانت ترمى إلى حماية مصالحها حيثما وجدت ، فكانت تشترك مع الصليبيين إذا وجدت فى ذلك مصلحة لها ، ولكنها سرعان ما كانت تتحول عنهم وتسارع إلى التفاهم مع خصوم الصليبيين من المماليك وفقًا لما تمليه عليها مصالحها الخاصة ؛ وهكذا كانت الحرب الصليبية مجرد ورقة تلعب بها [٢]. ومن هنا أدركت البندقية التى تعتبر من أعظم دول البحر المتوسط وقتئذ أهمية الدولة المملوكية فى مصر بالذات فى ميدان التجارة العالمية فى العصر الوسيط المتأخر ، ومدى الربح الذى تجنيه من وراء التعامل معها ، فعملت جاهدة على عقد الصلات مع السلطات الحاكمة فيها [٣]. وبالمثل كانت علاقة جنوة وبيزة بمصر قبل الحركة الصليبية تتفق ومصالحها الخاصة ، شأنهما فى ذلك شأن البندقية ، وجاء اشتراكهما فى الحملات الصليبية أو انصرافهما عنها نتيجة طبيعية لما تمليه عليهما تلك المصالح [٤]. وقد جاء النشاط التجارى للبندقية وجنوة وبيزة فى شرق البحر المتوسط والذى تمثل أصدق تمثيل فى العلاقات التى قامت بينها وبين مصر فى عصر التوسع الصليبى ، جاء هذا النشاط معبراً فى واقع الأمر عن تلك الثورة الاقتصادية

---

(١) Mas Latrie, I, p. 405 ؛ رانسيمان : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٧١٩ ؛ وانظر أيضًا : سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٠.

(٢) جوزيف نسيم : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٧٤ .

(٣) جوزيف نسيم : دراسات ، ص ٨٦ و هـ ١ ؛ وانظر أيضًا : كولتون (ج . ح .) ، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، ط . رابعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٢ ؛ Atiya (Aziz S.), Crusade, Comerce and Culture, New York, 1966, pp. 170 - 171 ؛ والترجمة العربية تحت عنوان (العلاقات بين الشرق والغرب : تجارية – ثقافية – صليبية) ، ترجمة فيليب صابر سيف، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٥٨ – ١٥٩ .

(٤) جوزيف نسيم : دراسات ، ص ٩٢ .

الكبرى التى كان التجار الإيطاليون فى طليعتها [١]، والتى بدأت متواضعة فى أواخر القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ووصلت ذروتها فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) . وقد كانت هذه الثورة بدورها نتيجة لعوامل عديدة من بينها احتكاك الغرب بالشرق أثناء الحروب الصليبية ، وزوال عصر الإقطاع فى الغرب بحضارته الزراعية الريفية واقتصاده الطبيعى ، ونشأة المدينة بحضارتها المدنية واقتصادها النقدى ونشاطها التجارى والصناعى ؛ فكانت الجمهوريات الإيطالية الثلاث بحكم موقعها الجغرافى الممتاز أسبق من غيرها من أمم الغرب فى هذا المضمار مثلما كانت أسبق منها إلى عصر النهضة[٢].

أما الجماعات الدينية التى نشأت أصلاً للقتال فى الأرض المقدسة من أجل العالم المسيحى ونقصد بها جماعات الفرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون . فبعد سقوط عكا غادرها الفرسان التيوتون سنة ١٢٩١م (٦٩٠هـ) ، فنقلوا مقرهم إلى البندقية ،و ثم ما لبثوا أن تحولوا إلى مارينبروج فى بروسيا سنة ١٣٠٩م (٧٠٩هـ) [٣]. وبالنسبة للداوية والاسبتارية فقد اتخذوا جزيرة قبرس مقراً لهم إلا أنهم ما لبثوا أن تعرضوا للضغوط نظراً لتدخلهم فى السياسة الداخلية للمملكة ؛ فبحثت الاسبتارية عن مقر آخر لها ، وجدته فى جزيرة رودس عام ١٣٠٦م (٧٠٦هـ) عندما استولى فرسانها على قلعتها ، ثم دانت لهم الجزيرة بأجمعها فى عام ١٣٠٨م (٧٠٨هـ) [٤]. وقد لقى غزو الاسبتارية لجزيرة رودس ترحيبًا كبيراً فى الغرب باعتباره انتصاراً صليبيًا ؛ والواقع أن استيلاء الاسبتارية على رودس قد وهبهم قوة جديدة وهيأ لهم الوسيلة التى تمكنهم من الإسهام فى الحروب الصليبية المتأخرة لاستعادة بيت

---

(١) قارن : Lopez, Les Influence, pp. 614 - 615 .

(٢) جوزيف نسيم ، المرجع السابق ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) انظر رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٢٠ ، (الترجمة العربية) ؛ وانظر نبذة عن تاريخ هؤلاء الفرسان التيوتون فى : Uden (Grant), A Dictionary of Chivalry, London 1968, p. 164 (art. : Knight, Teutonic).

(٤) رانسيمان : الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٣٠ (الترجمة العربية) .

المقـدس[1]. أما الداوية ، فكانوا أقل حظًا من الاسبتـارية [2]، فـقـد انتـهى بهـم الأمـر إلى تقديمهم للمحاكمة ، ومصادرة أموالهم فى كل مكان بناءً على رغبة الملك فيليب الرابع ملك فرنسا ، الذى عزم على سحق هذه الطائفة ، فلم يجرؤ البابا على معارضته وإثارة غضبه ، فكان أن طلب البابا من الحكومة القبرسية أن تتعاون فى القبض على فرسان الداوية المتهمين بالإلحاد ، وكان ملك قبرس فى ذلك الوقت هو أملريك Amelric شقيق هنرى الثانى دى لوزنيان والذى أغتصب عرش أخيه بمساعدة الداوية ، فأرجأ تنفيذ أمر البابا ، مما أتاح للداوية فرصة للاستعداد للدفاع عن أنفسهم . ثم ما لبث أن عاد هنرى الثانى إلى عرشه فى ١٣١٠م/ ٧١٠هـ وقام بتقديم الداوية للمحاكمة ، فصدر ضدهم حكمًا بالحبس ، ثم تلا ذلك صدور قرارات البابا فى ١٢ مارس ١٣١٢م / ٧١٢هـ والتى قضت بقمع طائفة الداوية وتسليم كل ما لها من ثروة وأملاك إلى الاسبتارية ، بعد أن تسترد السلطات المدنية ما بذلته من نفقات على المحاكمات المختلفة [3].

أما بالنسبة لقبرس التى كانت قبل سقوط عكا معقلاً من أهم المعاقل المسيحية اللاتينية بالشرق ، فقد غدت بعد سقوط عكا فى سنة ١٢٩١م (٦٩٠هـ) آخر ممتلكات اللاتين فى المناطق التى سيطر عليها المسلمون طالما أن ولاء أرمينية لروما كان مشكوكًا فيه ، بالإضافة إلى أن أرمينية كانت على حافة الانهيار على العكس من قبرس التى كانت تتمتع بالكثير من الأمن فى مياه البحر المتوسط[4] . ثم أضحت بعد استئصال الدواية وهجرة الاسبتارية إلى

---

(١)راجع الاسبتارية منذ اتخاذها جزيرة رودس مقراً لها فى سنة ١٣٠٦ - ١٥٢٢م / ٧٠٧ - ٩٢٩هـ .

Muller-Wiener (Wolfgag), Castles of the Crusades, (translated from the German by J.Maxwell Brownjohn), London, 1966, pp. 37-9; .

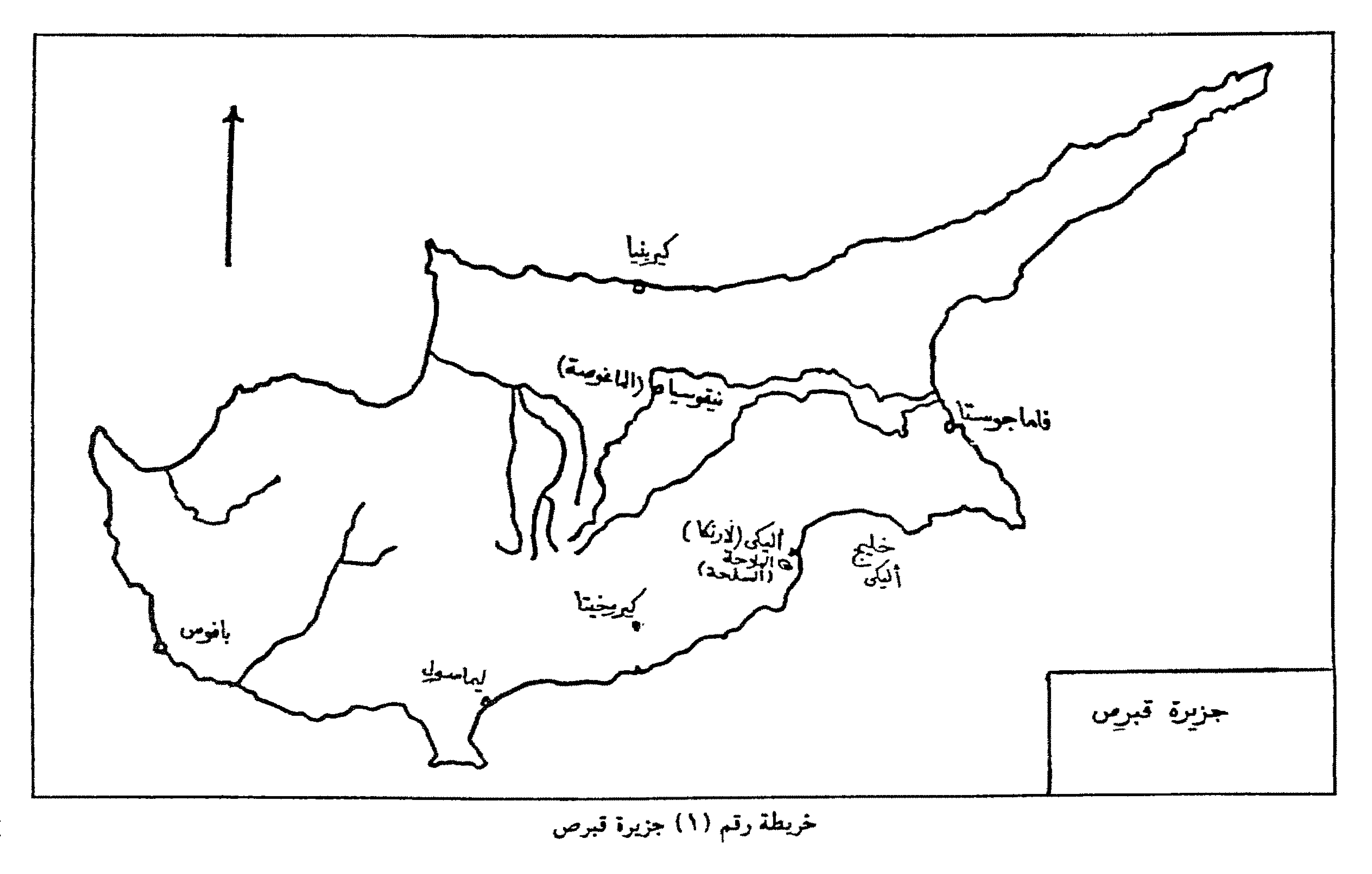
وعن بداية الاسبتارية ونشأتهم ونشاطهم فى الأرض المقدسة ، راجع كتاب :

King (Colonel E.J.), The Knights Hospitallers in the Holy Land, London, 1931 .

(٢) انظر رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٧٣١ ؛ وراجع أيضًا عن الداوية من بداية نشأتهم فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) إلى القضاء عليهم فى جزيرة قبرس : Uden, op. cit., pp. 162 - 164 .

(٣) رانسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٣٢ - ٧٣٤ .

(٤) انظر : Atiya, The Crusade, p. 322 ؛ سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٣ .



خريطة رقم (١) جزيرة قبرص

رودس الحكومة المسيحية الوحيدة التى اشتد اهتمامها بالأراضى المقدسة . والمعروف أن ملك قبرس كان يعتبر من الناحية الإسمية ملكًا على بيت المقدس ، وقد ظل الملوك لأجيال عديدة ، يحرصون بعد أن يتم الاحتفال بتتويجهم ملوكًا على قبرس فى نيقوسيا ، على أن يتلقوا تاج بيت المقدس فى فاماجوستا ، التى تعتبر أقرب مدينة لملكهم الضائع(١) .

وفى الواقع إذا نحن دققنا النظر فى موقف قبرس بالنسبة لموضوع اهتمامها بالأراضى المقدسة ، نجد أن هناك خطراً كبيراً كانت تخشاه تلك الجزيرة بحكم قربها من الساحل الشامى، وهو خطر الإغارة عليها من هذا الساحل وتهديد أمنها من جانب الدولة المملوكية . وعلى الرغم من أن المماليك قد عمدوا إلى ترك موانىء سواحل الشام مهجورة خوفًا من قدوم حملة صليبية عليها ، إلا أن هنرى الثانى دى لوزنيان ملك قبرس فى ذلك الوقت كان يخشى من تعرض مملكته لغزو من جانب المماليك ، فقد آثر سياسة الهجوم دفعًا للعدوان . فما كان منه إلا أن أرسل سنة ١٢٩٢م (٦٩٢هـ) خمسة عشرة سفينة تساندها عشر سفن من البابا ، فأغار على الإسكندرية ، إلا أنها كانت محاولة فاشلة ، لم تؤد إلا إلى غضب السلطان الأشرف خليل وعزمه على فتح قبرس ، فأمر بعمارة مائة سفينة ، ولكنه اضطر إلى إرجاء هذا الأمر حتى يتخلص من الخطر المغولى فى بغداد ، ولم يتمكن على كل حال من تحقيق مشروعه هذا بعد أن وثب عليه أمراؤه وقتلوه فى ٣١ ديسمبر ١٢٩٣م (أول المحرم ٦٩٣هـ) (٢).

ولم تتعرض قبرس لخطر مباشر من جانب دولة المماليك بعد ذلك ، ولكن ظلت سياستها محصورة فى المحافظة على كيانها الاقتصادى . ومن المهم هنا أن نذكر أن قبرس قد انتقلت إليها الجاليات التجارية التابعة للبندقية وجنوة وبيزة ومرسيليا والتى كانت قبل سقوط عكا موجودة فى الشرق الإفرنجى ، وقد تأسست بها المؤسسات التجارية لتكون على اتصال دائم بفنادق هذه المدن فى مصر وآسيا الصغرى ، وعين بها القناصل لرعاية تلك المصالح التجارية(٣). ولما كانت سفن المدن التجارية تخشى الذهاب مباشرة إلى شواطىء الدولة

---

(١) رانسيمان : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٧٣٥ .

(٢) رانسيمان : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٧٣٥ ؛ وانظر فى مقتل الأشرف خليل بن قلاوون : أبو الفدا: المختصر ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

(٣) سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٤ .

المملوكية بعد سقوط عكا ، فإنها جعلت من الموانىء القبرسية ، مثل فاماجوستا وليماسول محطات تجارية لها [١]. إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلاً ، فسرعان ما تغير الوضع بعد ما جددت كل من البندقية وجنوا وبيزا وأراجون اتفاقاتها التجارية مع مصر . ففى خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر كانت فاماجوستا الميناء الرئيسى لقبرس ، تتمتع برخاء غير محدود يستند بصورة بالغة على الدور الذى تؤديه بصفتها المستودع الرئيسى لتجارة التوابل. فقد كانت بضائع الشرق تجلب إليها من شمال الشام ومن أرمينية عن طريق الوسطاء من تجار هذه البلاد ، ثم تباع هذه المتاجر إلى تجار الغرب الأوربى . وقد كان مخيراس مصيبًا فى ملاحظته بأن من بين الأسباب التى دعت التجار يفضلون ممارسة الاتجار فى فاماجوستا عن مزاولتها فى الشام أو مصر ، فى خلال الفترة التى شهدت فيها فاماجوستا أوْج ازدهارها التجارى ، هو حظر البابوية التبادل التجارى بصورة مباشرة بين المسيحيين والمسلمين [٢]، وإن لم يكن قرار البابوية بشأن هذا الحظر نافذ المفعول تمامًا ، ولا يوجد أدنى شك فى أن هذا الحظر قد عمل على تحفظ التجار من ممارسة التجارة مع المسلمين ، إلا أنه منذ منتصف الأربعينات من القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) كانت البابوية تمنح أعداداً متزايدة من التراخيص ، متلاعبة فى ذلك بقرارات الحرمان التى كانت تصدرها فيما يتعلق بالمتاجرة فى البلاد الإسلامية . وقد حدث بالفعل فى أغسطس سنة ١٣٦٥م الموافق ذى الحجة ٧٦٦هـ –فى الوقت الذى كان فيه أسطول حملة بطرس الأول دى لوزنيان فى جزيرة رودس – أن كان البابا أوربان الخامس Urban V مستمراً فى إصدار المزيد من التراخيص للبنادقة لمزاولة التجارة فى الإسكندرية [٣].

على كل حال ، فقد أدرك ملك قبرس هنرى الثانى دى لوزنيان (١٢٨٥ – ١٣٢٤م / ٦٨٤ – ٧٢٥هـ) أنه لكى يضمن مستقبل قبرس السياسى ، فإن عليه المحافظة على ثروتها

---

(١) وصلت قبرس تحت حكم أسرة لوزنيان ، وبالذات فى عهد هنرى الثانى وهيو الرابع ، إلى درجة عظيمة من الرخاء أكثر من أى وقت مضى ، ويمدنا سترامبالدى ببعض المعلومات عن هذه النظرة ؛ راجع : Strambaldi ، وانظر : Makhairas, I, pp. 83 - 7 ; ، وراجع أيضًا : Mas-Latrie, I, pp. 511 - 12 ؛ سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٤ .

(٢) Makhairas, I, p. 81 .

(٣) Edbury, The Crusiding Policy, p. 96 ؛ نقلاً عن هايد .

الناجمة عن التجارة ، والتى تمكنها من الدفاع عن نفسها ضد أى هجوم من جانب القوى الإسلامية ، أى أنه قد وجد علاقة أو صلة متبادلة بين قضية تجارة قبرس ومشكلة أسلوب الدفاع عن الجزيرة. فما كان منه إلا أن تقدم بمشروعه الصليبى ، الذى ضمنه مذكرته التى دونها عن حملة صليبية، وأرسلها إلى مؤتمر فيين Vienne[١] فى فرنسا المعقود فى سنة ١٣١١م (٧١١هـ)[٢] . ويبدو لنا أن الغرض الأساسى الذى قصده هنرى الثانى من مشروعه[٣] هو القيام بحملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة ، إلا أننا لا نستطيع فى الواقع إغفال حقيقة هامة جداً بالنسبة لقبرس ، وهى خوف هنرى الثانى من عودة الجاليات التجارية الإيطالية لعلاقاتها المباشرة مع دولة المماليك ، وبذلك يتقلص حجم التجارة المارة بقبرس وتفقد قبرس بذلك مورد ثروتها الرئيسى من الضرائب المفروضة على مرور هذه المتاجر عبرها . ونلاحظ فى هذا الصدد صدق حدس هنرى الثانى ، فقد مر بنا كيف أن هذه الجمهوريات الإيطالية قد عملت جاهدة لإعادة علاقاتها التجارية مع الدولة المملوكية ، مما أدى إلى تقليص حجم التجارة المارة بفاماجوستا حتى وصلت إلى درجة أقل بكثير مما كانت عليه فى فترة الحظر البابوى ، ففى الدراسة التحليلية التى قام بها أدبيورى من واقع السجلات الصادرة عن مجلس الشيوخ (السناتو) البندقى ، يتضح أن حجم تجارة البندقية المار بفاماجوستا قد تقلص إلى نحو الثلث فى أوائل حكم الملك بطرس الأول دى لوزنيان (١٣٥٩ - ١٣٦٩م / ٧٦١ - ٧٧١هـ) عما كان عليه فى الفترة من ١٣٣٢ - ١٣٤٥م / ٧٣٣ - ٧٤٦هـ ،فى حين اتجهت بقية السفن المحملة بالمتاجر إلى ميناء الإسكندرية ، وبذلك ندرك تماماً أن الإسكندرية كانت تنتزع التجارة من فاماجوستا الأمر الذى أزعج السلطة الحاكمة فيها[٤] .

هذا ، ويمكن أيضاً أن نتبين من مشروع هنرى الثانى أنه قد تحقق من قوة القبارسة الحربية المحدودة ، وأنها كانت فى حاجة ملحة إلى تتابع العون من الغرب ، فى حالة الاتفاق على قيام حملة صليبية كبيرة ، وأن قبرس لا تعدو أن تكون إلا محطة توالى إمداد القوات بالرجال

---

(١) تقع مدينة فيين فى جنوب فرنسا على نهر الرون ، راجع : Calmette (Joseph), Atlas Histo-rique, II, Le Moyne Age Paris 1941, Carte no. I.

(٢) Edbury, op. cit., p. 93 .

(٣) عن تفاصيل هذا المشروع ، راجع الفصل الثانى ، ص ٩٤، ٩٥.

(٤) استشهد Edbury , The Crusading Policy, p. 97 بمدينة البندقية كمثال على ذلك .

والمؤن . وقد دون هنرى رأيه هذا فى المذكرة التى أرسلها إلى مؤتمر فيين ، وكذلك فى الإخطار الذى رفعه السفراء القبارسة فى عام ١٣٢٣م / ٧٢٣هـ إلى البابوية [١]. هذا ومن المحتمل أن هذه النظرة نفسها قد أثرت على قرار هيو الرابع Hugh IV والد الملك بطرس بتزويج ابنه الأكبر لإحدى بنات لويس دوق بوربون الذى كان طوال الفترة الممتدة من عقد مؤتمر فيين إلى اندلاع الحرب مع انجلترا ، فى منتصف الثلاثينات من القرن الرابع عشر ، يعتبر من أكبر المتحمسين تمسكًا بين النبلاء الفرنسيين بمشروعات الحملات الصليبية [٢].

ومنذ أوائل الثلاثينات من القرن الرابع عشر اشتركت قبرس فى أحلاف متعددة ، كانت تُعقد لتوجيه ضرباتها ضد المواقع أو المراكز التى يسيطر عليها الأتراك فى بحر إيجة . كذلك كان طريق البنادقة التجارى إلى القسطنطينية وبحر إيجة معرضًا للخطر نتيجة لنمو قوة الأتراك البحرية . ففى أعقاب الدعوة سنة ١٣٣٣م / ٧٣٤هـ إلى حملة صليبية ، حلت الهزيمة بالبحرية التركية على يد أسطول مكون من مراكب البابوية والبنادقة والفرنسيين والبيزنطيين والاسبتارية والقبارسة ، وهناك بعض الشواهد التى تفيد بأن الاسبتارية والبيزنطيين والقبارسة قد واصلوا طريقهم لمهاجمة أزمير [٣]. وفى سنة ١٣٤٤م / ٧٤٥هـ ، أى بعد عشر سنوات من هذه الوقائع ، واستجابة للدعوة إلى حرب صليبية فى سنة ١٣٤٣م/٧٤٤هـ . نجح أسطول مشترك من مراكب البابوية والبنادقة والاسبتارية والقبارسة فى الاستيلاء على أزمير [٤]. وإذا نظرنا إلى الفائدة التى قد تعود على القبارسة من اشتراكها فى هذه الأحلاف، نجد أن مصالحها كانت أقل تأثرًا بشكل مباشر بالتغييرات التى تحدث فى بحر إيجة ، إلا أن عضوية هيو الرابع فى هذه الأحلاف إنما كان يحركها الرغبة فى حماية الطريق البحرى الذى يربط قبرس بالغرب مثلما كانت تحركها الرغبة فى أن يظل على علاقة طيبة مع الأعضاء المشاركين فى هذه الأحـــلاف [٥]. ومما لاشك فيه أن اشتراك هيو الرابع فى هذه الأحلاف قد هيأ

---

(١) Mas- Latrie, II, dans: Edbury, op. cit., p. 93 .

(٢) Edbury, Loc. cit

(٣) Edbury, op. cit, pp. 91-2.

(٤) Edbury, op. cit., p. 91 and n . 9.

(٥) Edbury, op. cit., pp. 91-2 .

لجزيرة قبرص تحقيق الكثير من الثروة ، حتى وصف الرحالة لودلف سنة ١٣٤٩م / ٧٥٠هـ فرسان قبرص بأنهم أغنى فرسان العالم[١] .

وقد قام هيو الرابع بعدة حملات على سواحل آسيا الصغرى ، حيث كان الأتراك السلاجقة، وعلى سواحل مصر حيث كانت الدولة المملوكية . واعتبرت حروبه فى نظر الكثيرين مجرد غارات تغلب عليها صفة القرصنة[٢] .

وحين تولى بطرس الأول دى لوزنيان عرش قبرص فى نوفمبر ١٣٥٩م / ٧٦١هـ[٣] استمر فى سياسة والده هيو الرابع فى التصدى للقوى البحرية التركية ومنعها من شحن بضائعها من الموانىء الواقعة فى شرقى البحر المتوسط . فقد تمكن فى أغسطس ١٣٦١م / شوال ٧٦٢هـ من الاستيلاء على أنطاليا [٤]، التى كانت وقتئذ أهم ميناء يقع على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى . وفى السنوات التالية خضع له الولاة الأتراك الذين فرض عليهم أداء المال له ، وتصدى لكل محاولة من جانب المسلمين لاستعادة مدينة أنطاليا ، واستمر احتلال القبارسة لها حتى سنة ١٣٧١م / ٧٧٣هـ عندما أعادوها إلى واليها السابق مفضلين ذلك على وقوعها فى يد الجنوية [٥].

ومن المهم أن نذكر هنا ظروف استيلاء الملك بطرس على أنطاليا وإخضاعه للولاة الأتراك بعد ذلك . فقد وجد الملك بطرس - اتباعًا لسياسة والده الملك هيو الرابع التى شرحناها من قبل - وجد من الضرورى وجود قاعدة له فى داخل آسيا الصغرى للقيام بعملياته الحربية . ولقد واتته الفرصة الثمنية عندما تعرض ليو الخامس ملك أرمينية الصغرى لضغط المماليك من جانب ولضغط الأتراك من جانب آخر ، فتقدم بالتنازل عن جورهيجوس Gorhigos إلى

---

(١) سعيد عاشور:قبرص والحروب الصليبية ، ص ٥٠ ، ولكن انظر أيضًا : Makhairas, I, pp. 83-7 ؛ وانظر : Strambaldi, p. 36 ؛ Atiya, The Crusade, p. 322 .

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق والصفحة نفسها .

(٣) Makhairas, I, p. 78 ; Strambaldi, p. 35 .

(٤) Machaut, pp. 20 - 1 ؛ راجع أيضًا : النويرى السكندرى : الإلمام ، ج ٣ ، ص ١٢١ .

(٥) Makhairas, I, PP. 105 - 109 ؛ النويرى السكندرى : الإلمام ، ج ٣ ، ص ١٢١ " وهى (أنطاليا) الآن فى سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م فى أيدى المسلمين ردت إليهم لأمور يطول شرحها " .

الملك بطرس نظير مساعدته على الدفاع عن أرمينية[١] . وعلى هذا أصبحت جورهيجوس حامية تابعة لقبرس ، فكانت هذه المدينة أول مغرز قدم لقوات قبرس فى آسيا الصغرى ، فأصاب الفزع قلوب الأمراء الأتراك المجاورين ، عندما وصلت إليهم هذه الأخبار عن السيطرة اللاتينية على جورهيجوس ، وتنبهوا إلى أن الملك بطرس إنما كان يستعمل هذه القاعدة لشن هجوم على ممتلكاتهم . وبالفعل قام الملك بطرس بتجهيز أسطول ضخم يتكون من ١١٩ سفينة، أعد هو منها ٤٦ سفينة ، إلى جانب أربع سفن من سفن الاسبتارية فى رودس ، وأسهم البابا بسفينتين ، إلى جانب اثنى عشرة سفينة خاصة بالقراصنة اللاتين الذين ينشدون المغانم ، وأما باقى السفن فقد تم تجهيزها على يد العديد من اللوردات والبارونات ؛ وعلى هذا تجمع الأسطول يوم الأحد ١٢ يوليو ١٣٦١م / ١٧ رمضان سنة ٧٦٢هـ) وسار متوجهًا إلى آسيا الصغرى[٢] . ووصل الأسطول القبرسى إلى البر ، فنزل فى بقعة صغيرة تعرف باسم تيراميلى Teramili قريبًا من أنطاليا فى يوم الخميس ٢٣ أغسطس ١٣٦١م[٣] (٢٧ شوال ٧٦٢هـ) . أما أنطاليا نفسها فهى تقع جنوب ساحل شبه الجزيرة عند رأس الخليج الذى يحمل نفس الاسم ، وكانت مدينة محصنة تحصينًا جيداً وتسيطر على موقع ممتاز لتصدير البضائع من آسيا الصغرى . ولحسن حظ القبارسة فإن أمير أنطاليا وجنوده لم يكونوا متمركزين داخل قلعتها فى ذلك الوقت ، ولم تكن حامية المدينة كافية لإبداء أى مقاومة جدية لقوات العدو الكبيرة . وقد أحاط بها الملك بطرس وجيوشه فى ٢٤ أغسطس ١٣٦١م / ٢٨ شوال ٧٦٢هـ وقبل حلول الظلام فتح الأهالى الذين يئسوا من موقفهم أبواب المدينة للعدو وسلموا كل التحصينات للملك بطرس لكى يتجنبوا إراقة الدماء[٤] . وقام الملك بطرس بعد ذلك بتعيين حامية له بالمدينة تتكون من كثير من الفرسان والرماة الجرخية ، وعين جاك دى نورس التركبلى حاكمًا على المدينة وقائداً للحامية مع أسطول صغير يتكون من ثلاث سفن تحت

---

(١) Machaut, p. 20 ; Makhairas, I, pp. 99 - 101 ; Strambaldi, pp. 42 - 3 ; Amadi, pp. 410 - 11.

(٢) Makhairas, I, p. 103 ; Strambaldi, pp. 45 - 6 ; Amadi, pp. 411.

(٣) Makhairas, I,p. 107 ; Starambaldi, p. 47 .

(٤) يضفى ماشو على أحداث سقوط أنطاليا أوصافًا براقة مبالغًا فيها ؛ راجع فيه : (pp. 20 - 1)
وانظر أيضًا : Makhairas, I, pp. 107 - 109 ; Strambaldi, pp. 45-6; Amadi, p. 411

تصرفه (١). وواصل الجيش تقدمه إلى العلايا ثانى أهم مدينة وتقع إلى الشرق من أنطاليا ، إلا أن أميرها سارع مع مجموعة من أتباعه إلى الاستسلام للملك بطرس ووضع مفاتيح التحصينات فى أيدى الغزاة (٢). وسارع باقى الولاة الأتراك إلى الخضوع له ، وحالما انسحب الملك بطرس من آسيا الصغرى شرع الأمراء الأتراك فى التخطيط لشن هجوم على أنطاليا فى محاولة منهم لاستعادتها ولكنهم لم يفلحوا فى ذلك (٣). فما كان منهم إلا أن دبروا سلسلة من الغارات على جزيرة قبرص نفسها ، وشجعهم على هذا تلك الأخبار التى وصلت إليهم عن رحيل الملك إلى المغرب (٤).

وعلى هذا ، فقد أعاد الملك بطرس مرة أخرى تأكيد السيادة المسيحية على البحار ، مما لم ينقذ فقط جزيرة قبرص من تعرضها لغارات المسلمين ، وإنما حمت فوق هذا الخطوط البحرية التجارية ، بالإضافة إلى استيلائه على الميناء التركى الهام (أنطاليا) الذى يعتبر مركزاً لعمليات شحن السفن المتوجهة إلى جزيرة قبرص ، وحصل من ثم على واحد من أعظم المنافذ أهمية لتجارة آسيا الصغرى (٥). ومن هنا فإن سياسة الملك بطرس كانت مؤسسة على الوعى التام بكل الدواعى الحربية والتجارية الى تستدعى مواصلة مواجهة قوة الأتراك وبالأخص القوة البحرية التركية (٦).

وفى تحليل المؤرخ إدبيورى Edbury لشخصية الملك بطرس دى لوزنيان نراه يقسم فترة حكمه إلى ثلاث مراحل ، تتلخص المرحلة الأولى منها فى مواجهة تزايد قوة الأتراك ؛ ثم المرحلة الثانية وهى رحلة بطرس الأول إلى الغرب وحملته على الإسكندرية وذلك فيما بين

---

(١) Makhairas. I, pp. 108 - 109 ; Strambaldi, p. 48 . أما التركبلى فهو قائداً لفرقة من الخيالة المسلحين ممن لم يرسموا فرساناً وكان بوجه عام من المرتزقة من أهالى قبرص اليونانيين ؛ راجع فى هذا Atiya, The Crusade, p. 327 .

(٢) Makhairas, I, p. 109; Strambaldi, Loc. cit.

(٣) Makhairas, I, pp. 117 - 19.

(٤) Makhairas, I, p. 121 ; Atiya, The Crusade, p. 328.

(٥) Makhairas, I, p. 103 ، ويعلل هنا مخيراس سبب قيام بطرس بحملة ضد الأتراك ، وذلك عقب هجوم تركى على قبرص ، فأصبح من الضرورى القيام بعمل حاسم لمواجهة قوة الأتراك الآخذة فى الاطراد .

(٦) Edbury, The Crusading Policy, P. 91.

سنتى ١٣٦٢ - ١٣٦٥م / ٧٦٤ - ٧٦٧هـ ، ثم أخيراً مرحلة غاراته على سواحل الشام ومصر ومفاوضاته مع الدولة المملوكية فيما بين سنة ١٣٦٦ وسنة ١٣٦٩م / ٧٦٧ - ٧٧٠هـ(١). ولنا أن نضيف مرحلة سابقة على اعتلائه عرش قبرص ، وإن كانت هذه المرحلة غير واضحة تمامًا فى المصادر المعاصرة أو المتأخرة ، ويكتنفها بعض الغموض ، إلا أننا سوف نحاول الاسترشاد بأهم الأحداث التى وقعت فيها والتى قد تساعدنا على تفسير بعض جوانب من شخصية الملك بطرس الأول لنتمكن من فهم سياسته فهمًا أعمق .

وأول ما نلاحظه فى هذا الصدد أن ماشو قد أضفى جانبًا أسطوريًا على مولد الملك بطرس ونشأته الأولى يبعدهما كثيراً عن الواقع (٢). فقد ولد الملك بطرس فى يوم عيد القديس دنيس الموافق ٩ أكتوبر سنة ١٣٢٩م / ١٥ ذى الحجة ٧٢٩هـ (٣)، وهنا يذكر ماشو أن بطرس نشأ نشأة دينية وتربى منذ الصغر على حمل السلاح ودار كل اهتمامه حول القضاء على المسلمين(٤)، وقاده هذا الهدف إلى التفكير فى إنشاء جماعة دينية حربية جديدة كخطوة أولى فى سبيل تحقيق هدفه وذلك فى الوقت الذى كان لايزال يلقب بكونت طرابلس ووريث عرش قبرص (٥)، وأطلق على هذه الجماعة جماعة إخوان السيف . وهناك خلاف حول وقت تكوين جماعته ، فيذكر لنا ماشو أن بطرس أنشأ هذه الجماعة قبل اعتلائه عرش قبرص ، إلا أن دى ماس لاترى ناشر ماشو ، يؤكد لنا أن هذه الجماعة إنما كونها الملك بطرس بعد توليته عرش قبرص (٦). وقد انضم الفرسان من أقطار كثيرة إلى هذه الجماعة الجديدة ، بالإضافة إلى فرسان قبرص . ويذكر ماشو أن عضويتها كانت تضم نبلاء من فرنسا وإسبانيا وروما ولمبارديا وألمانيا وانجلترا وسردينيا (٧).

---

(١) Edbury, Loc. cit.

(٢) Machaut, pp. 1-5 .

(٣) Machaut, pp. 5, 277 n.i.

(٤) Machaut, pp. 8 - 9, 19 - 20 .

(٥) Machaut, pp. 12 - 13 ; Jorga, Phil. de Méz., p. 83 ; Atiya, The Crusade, p. 320; Hamdi (Abdel Hamid), " Philoppe de Mézières and the New order of the Passion", part I, in : Bulletin of the Faculty of Arts, Alexanddria University, Vol. XVII (1963), Alexandria University Press, Alexandria, 1964, p. 47 .

(٦) Mas-Latrie, dans : Machaut, p. 277 n.4 .

(٧) Machaut, p. 12 .

وكان الأمير الشاب مغرمًا إلى حد كبير بالمغامرة والارتحال إلى الغرب ، وكان أبوه هيو الرابع يرفض دائمًا السماح لرجاله بالارتحال إلى الغرب خوفًا من أن يغريهم بريق بلاط هذه البلاد فيهجروا الجزيرة التى تعتمد حكومتها على الأقلية اللاتينية . وعلى الرغم من ذلك بدأ الملك بطرس فى استعدادات السفر مخاطراً بذلك بالتعرض لغضب أبيه ، فحملّ هو وأخوه حنا دى لوزنيان أمير أنطاكية الإسمى مع كونستابل قبرس ويصحبهم فرسان آخرون سفينة وأبحروا من الجزيرة فى ١٣٤٩م / ٧٥٠هـ [١]. وعند ذيوع أخبار مغادرتهم الجزيرة ، انتاب الملك هيو الرابع دى لوزنيان الغضب ، ولم يدخر وسعًا فى إعادة الهاربين ، ونجح أخيراً فى ذلك فقام بسجن ابنيه فى كيرنيا Kerynia نظراً لعصيانهما [٢].

وكان الملك بطرس طوال حياته متأثراً بشكل بالغ بأصدقائه ، وكان الأقرب منهم إليه فيليب دى مزيير ، وبطرس دى توماس اللذان تميزا بالحماسة التى لا نهاية لها للحرب الصليبية وآمنا إيمانًا عميقًا بإمكانية استعادة بيت المقدس [٣]. أما عن الظروف التى أحاطت باعتلائه العرش ، فقد قام أبوه الملك هيو الرابع بتتويج بطرس ملكًا على الجزيرة أثناء حياته فى ٢٤ نوفمبر ١٣٥٨م / ٧٦٠هـ[٤] لكى يتجنب أى صدام أو نزاع فى المستقبل بين بطرس وهيو دى لوزنيان ابن أخيه الأكبر جى Guy ولى العرش الأول والذى مات فى أثناء حياة والده هيو الرابع تاركًا ابنًا صغيراً هو هيو - المشار إليه - من ابنة دوق بوربون التى كانت تطالب بالعرش لابنها . وعلى الرغم من هذا الإجراء الوقائى فقد وجد بطرس فى ابن أخيه خصمًا

---

(١) Machaut, PP. 16 - 7; Makhairas, I, p. 73 ; Strambaldi, p. 33 ; Amadi, p. 407 .

(٢) Makhairas, pp. 77 - 9 ؛ يشير هنا مخيراس إلى أن الملك هيو الرابع قد أنفق (٥٠٠٠) بيزنت قبل أن يتمكن من إرجاع ابنيه ، ويذكر أيضًا أن هذا التصرف من جانب بطرس وأخيه قد أدى إلى حزن الملك هيو مما كان السبب فى موته كمداً فى ١٠ أكتوبر ١٣٥٩ .

(٣) Jorga, Phil. de Méz., p. 83 ; Atiya, The Crusade, p. 137 .

(٤) Makhairas. I, pp. 77 - 8 ؛ والملاحظ أن ماشو لم يذكر شيئًا عن تتويج الملك هيو لابنه بطرس فى ٢٤ نوفمبر ١٣٥٨م ، إلا أن دى ماس لاترى - ناشر ماشو - يذكر أن الملك هيو قد توج ابنه فى ٢٤ نوفمبر ١٣٥٨م ، ثم توج هو نفسه مرة أخرى بعد موت أبيه ُى ٢٤ نوفمبر ١٣٥٩م ؛ راجع : Mas-Latrie, dans : Macheaut, p. 278 n.6 ؛ راجع أيضًا : Strambaldi, pp. 35 . 81 ؛ فهو يذكر تتويج الملك بطرس فى فاماجوستا فى ١٥ أبريل ١٣٦٠م ؛ وانظر أيضًا : . Jorga, Phil. de Méz., p. 103 .

تحداه مطالبًا بحقه فى عرش قبرس ، ولم يرغب البابا أنوسنت السادس فى تأكيد اعتلاء بطرس العرش من غير أن يستقصى الأمر ، ولم يكن عمل سفارة الملك بطرس لدى الإدارة البابوية فى أفنيون بالعمل السهل لكى تقنع البابا الذى قبل فقط هذا الوضع بشروط وتحفظات لما فيه صالح حفيد الملك هيو الرابع [١].

وإذا نحن نظرنا إلى سياسة الملك بطرس فى السنوات الأولى من حكمه والتى تم فيها الاستيلاء على أنطاليا وإخضاع الولاة الأتراك ، نجدها تتفق والسياسة المرسومة فى الماضى. أما بالنسبة لرحلته إلى الغرب عام ١٣٦٢م / ٧٦٤هـ فقد كانت بمثابة خروج على ما تواضع عليه ملوك قبرس . فلم يحدث من قبل أن قام ملك قبرس متوج بزيارة لأوربا ، وإن تكرر توجه السفراء القبارسة إلى الغرب للتباحث فى مشاريع الحملات الصليبية ؛ ولعلهم كانوا من وقت لآخر بمثابة القوة الدافعة أو المحركة للعمل على استئناف التحرك الصليبى . وهناك دليل على أن لمبرتينو Lambertino أسقف ليماسول - الذى كان فى الغرب سنة ١٣٤١م / ٧٤٢هـ كان هو المحرك الأول لإجراء المفاوضات التى مهدت الطريق للحملة الصليبية على أزمير فى سنة ١٣٤٦م / ٧٤٧هـ . ومع أن قبرس قد تلكأت فى الانضمام إلى الحلف الصليبى الذى انعقد فيما بين سنتى ١٣٣٣ و ١٣٣٤م / ٧٣٤ - ٧٣٥هـ ، إلا أنه من الجدير بالملاحظة أن السفراء القبارسة كانوا موجودين فى البلاط البابوى قبل إصدار الرسائل أو المناشير البابوية مباشرة وذلك فى عام ١٣٣٣م / ٧٣٤هـ[٢] .

ويمكن لنا أن نفسر سبب قيام الملك بطرس برحلته إلى الغرب ساعيًا فى طلب المساعدة للقيام بحرب صليبية ضد المماليك على أساس إدراك الملك بطرس ما كانت عليه جزيرة قبرس من إمكانيات حربية محدودة ، والحاجة الملحة لتتابع العون من الغرب ، وهى الحقيقة التى أدركها من قبل كل من هنرى الثانى دى لوزنيان ، والملك هيو الرابع والد بطرس .

هذا ، ويعتبر سقوط عكا فى أيدى المماليك مؤشراً لانتقال مركز الثقل فى الصراع الصليبى الإسلامى لصالح المسلمين فى الشرق ، فعلى الرغم من مظاهر الغضب والحزن التى

---

(١) Makhairas, I, pp. 91 , 93 - 7 ؛ وكان الذى أكد حق الملك بطرس فى العرش هو البابا إنوسنت السادس Innocent VI ، على أن يضمن الملك بطرس لابن أخيه راتبًا سنويًا مقداره ١٥٠ ألف ويد (بيزنت فضى قبرسى) ؛ راجع : Atiya, The Crusade, P. 323 .

(٢) Edbury, The Crusading Policy, p. 39 and n. 20 .

اجتاحت العالم المسيحى الغربى ، إلا أنه كان فى شغل عن مواصلة الحروب الصليبية بمفهومها القديم ، وبنفس الحماسة والقوة التى شهدتها الحروب الصليبية الأولى[1] . ولقد مر بنا من قبل[2] كيف بدأ الغرب الأوربى يشهد تغييرات جوهرية فى نظمه . وقد اتجهت الدراسات الحديثة عن الالتقاء والصراع بين أوربا والشرق خلال القرون الستة الى ينتهى بنهايتها العصر الوسيط بكل أفكاره ومثله وفلسفته ، ويبدأ عصر جديد فى تاريخ البشرية بمفاهيم وأوضاع جديدة مغايرة - اتجهت إلى إدراك حقيقة تاريخية تتلخص فى وجود نوع من توازن القوى بين العالمين الإسلامى والمسيحى إبان الستمائة سنة الممتدة من القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى إلى القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى ، فلم يسمح هذا التوازن فى القوى لأى منهما بتفوق مطلق على الطرف الآخر ، بحيث كان مركز الثقل يتأرجح بين كليهما وفقًا لمقتضيات الظروف والأحوال فى كلا العالمين من سياسة واجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها[3]. ولم يكن أي صراع عسكرى خلال الفترة المذكورة من القوة بحيث يقضى على استقرار التجارة بين أوربا ومختلف الأقاليم الآسيوية ، فلم يؤد نجاح الجيوش الصليبية أو فشلها ، كما لم يؤد نجاح الإمارات التى أقاموها فى الشرق أو فشلها إلى إحداث أى تغيير جوهرى فى طابع تلك الاتصالات وماهيتها [4]. وحتى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين (السادس والسابع الهجريين) لم يتم أهم تبادل للسلع والبضائع وأوفره ربحًا بين الشرق والغرب عن طريق الموانىء الصليبية على الساحل الشامى ، بل كان عن طريق المدن البيزنطية فى الشمال ودلتا النيل فى الجنوب . ولقد قدر للتجارة الأوربية مع كل من مصر والشام وأواسط آسيا الاستمرار بعد سقوط آخر معقل للصليبيين فى شرق البحر المتوسط سنة ١٢٩١م / ٦٩٠هـ دون أن تواجه هزة عميقة الأثر ، مما يعتبر دليلاً آخر على أن الحروب الصليبية لم تؤثر تأثيراً بالغًا فى التطور الاقتصادى فى شرق حوض البحر المتوسط أو على

---

(١) رانسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٧١٧ ، ٧١٨ - (الترجمة العربية) .

(٢) راجع ما مر فى هذا الفصل ص ٦٣ .

(٣) سيزار (باروسلاف) وفوزار (جوزيف) : نقاط التلاقى والصراع فى أوربا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠ - ١٥م) ، ترجمة وتقديم وتعليق جوزيف نسيم يوسف ، فى ، جوزيف نسيم : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، ص ١٢٩ ، ١٥٠ .

(٤) راجع هذه النظرة فى : Lopez, Les Influences Orientales, P. 614 .

التجارة النائية ، إذ كانت معظم السلع مثل الحرير والتوابل ومواد الصباغة وغيرها من الكماليات التى قام الأوربيون بشحنها فى شرق البحر المتوسط تأتى أصلاً من الشرق الإسلامى[١].

ولقد شرحنا من قبل كيف كانت المدن الإيطالية همزة الوصل بين تجارة الشرق وأوربا وكيف كيفت هذه الاتصالات وفقًا لمصالحها الشخصية ؛ كذلك بالنسبة للمشرق الإسلامى الذى ساعده موقعه الجغرافى فى السيطرة على أقصر الطرق التجارية وأكثرها أمنًا ، وقد مكنه هذا الموقع من القيام بدور الوسيط التجارى بين أوربا وأفريقية ووسط آسيا والهند والشرق الأقصى ورأينا أيضًا كيف تجمعت لديه الثروة الناجمة عن التجارة ، وكيف ساعدته على تقوية نفسه حتى تمكن من طرد البقايا الصليبية نهائيًا من الساحل الشامى . فلا عجب إذا رأينا هذا الكم من الدعاة الذين نادوا بضرورة القضاء على الدولة المملوكية عن طريق محاربتها اقتصاديًا حتى يمكن القضاء عليها عسكريًا ومن ثم استعادة بيت المقدس .

ولا عجب أيضًا إذا رأينا قرارات ومناشير البابوية التى تحرم المتاجرة مع الدولة المملوكية فى مصر والشام . ولقد فشلت هذه السياسة نظرًا لإدراك القوى التجارية مدى الخسائر التى نزلت بها من جراء منعها من المتاجرة مع المماليك ، مما دفعها إلى إعادة علاقاتها التجارية مع الدولة المملوكية . وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على مدى القوة والثروة التى تمتعت بها الدولة المملوكية فى أخريات القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر الميلاديين (أواخر القرن السابع والقرن الثامن الهجريين) ، ويؤكد بالضرورة على أن مركز الثقل فى الصراع الصليبى الإسلامى إنما كان فى جانب القوى الإسلامية المتمثلة فى الدولة المملوكية فى مصر والشام خلال تلك الفترة من الزمن .

ففى زحمة هذه المتغيرات التى استجدت على المسرح العالمى المعروف وقتها ، من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وغيرها ، فى وقت كان فيه كل شىء فى تغير تدريجى مستمر ، وفى وقت لم يكن فيه أى شىء ثابت على حاله - فى زحمة هذه المتغيرات قام بطرس دى لوزنيان ملك قبرس اللاتينى بحملته الصليبية ضد مدينة من أكبر مدن الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، إن لم تكن أكبرها وأهمها على الإطلاق هى مدينة الإسكندرية ، بهدف غزوها

---

(١) سيزار وفوزار : نقاط التلاقى ، ص ١٥١ .

واحتلالها تحقيقًا لمصالحه وطموحاته ، وسوف تكشف الفصول التالية إلى أي مدى أثرت الحملة القبرسية فى هذه المتغيرات وتأثرت بها فى نفس الوقت ، وما ترتب على ذلك من آثار.

الفصل الثانى
ما قبل الحملة

الحركة الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) - أثر الدعاة اللاتين فى إغراء بطرس دى لوزنيان للقيام بحملة صليبية على الشرق الإسلامى - أسباب اختيار بطرس دى لوزنيان لمدينة الإسكندرية هدفًا لحملته - رحلة بطرس دى لوزنيان إلى ممالك أوربا والمقر البابوى ١٣٦٢ - ١٣٦٥م داعيًا لحملته ، وما ترتب عليها من نتائج .

لم تنته الحركة الصليبية بسقوط عكا وإخراج الصليبيين من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى / أواخر القرن السابع الهجرى ، وإنما دخلت فى مرحلة جديدة تتفق ومجريات الأحداث فى كل من الشرق الإسلامى والغرب الأوربى [(١)].

وقد سمى القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى وخصوصًا النصف الأول منه - بعصر التبشير والدعوة لإحياء الحروب الصليبية . وكان هذا رد فعل طبيعيًا لإخفاق الصليبيين فى إنقاذ مملكة بيت المقدس اللاتينية والدفاع عن مدينة عكا ، فكان على أوربا أن تبحث فى أسباب اخفاقها فى مواجهة الإسلام ؛ وكان هذا سبب تدفق أدب الحروب الصليبية الذى يميز هذه الفترة[(٢)] وبعبارة أخرى ، فإن إحساس العالم المسيحى بالهزيمة ولد موجة جديدة من

---

(١) عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٢٩ .

(٢) عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب : تجارية - ثقافية - صليبية ، ترجمة فيليب صابر سيف ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٢م ، ص ٨٢ .

الدعاة ، فلم يعد الدعاة مبشرين جوابين مثلما كان يحدث فى الماضى ؛ بل أضحوا رجالاً على جانب كبير من الثقافة ألفوا الكتب والمقالات مبينين فيها الحاجة إلى حملات صليبية جديدة لاسترداد بيت المقدس ، وموضحين أسباب فشل الحملات السابقة ؛ وانفرد كل مؤلف برسم خطة لتسيير إحدى الحملات فى محاولة منه لتفادى الأخطاء السابقة ومتمشيًا مع التغييرات الجديدة التى طرأت على المسرح العالمى (١).

هذا ، ويعتبر القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى عصر الحروب الصليبية الأخيرة بمعناها الصحيح . ففى القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى بدأت الحروب الصليبية تفقد قيمتها الحقيقية ، وانتهت حينما أصبحت تسعى إلى هدف يائس لا أمل فى إحيائه (٢).

وعلى الرغم من أن الهدف الرئيسى للحروب الصليبية كان هو الاستيلاء على الأرض المقدسة ، فإنه يبدو أن الصليبيين فى القرن الرابع عشر قد لجأوا إلى مهاجمة مراكز كانت تبدو أكثر أهمية فى الدولة الإسلامية (٣). هذا ، بالإضافة إلى وجود أمور أخرى تحكمت فيها وبدت أكثر أهمية فى ذلك العصر . فكان المواطن الإيطالى قد فقد عاطفته الدينية واستبدل بها ما يعود عليه بالنفع من الناحية التجارية (٤). ولعل أحسن ما يدلل على هذا هو قول البنادقة " فلنكن بنادقة قبل أن نكون مسيحيين " ، وما يتردد على ألسنة الجنوية : " نحن جنويون أولاً وأخيراً " . وقد كان لتدفق سيل جموع الصليبيين والحجاج على أمم الشرق أثره فى تقوية الجمهوريات الإيطالية خاصة البندقية وجنوة بالإضافة إلى اتساع معلومات أوربا عن الأمم الشرقية (٥). وقد تبع ذلك الاندفاع نحو التبادل التجارى اعتباراً من أواخر القرن الثالث عشر الميلادى وأوائل القرن الرابع عشر – فى الوقت الذى كان فيه الملوك الغربيون منغمسين فى نزاعاتهم الداخلية والدستورية مما أدى إلى ثراء الجمهوريات الإيطالية لدرجة

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/٧٢٢ (الترجمة العربية) ؛ باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٧١ .

(٢) عطية : العلاقات ، ص ٧٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٨٠ .

(٤) Atiya, The Crusade, PP. 114 - 115 ؛ عمر كمال : الجاليات الأوربية ، ص ٢٨١ ؛ جوزيف نسيم : دراسات ، ص ٨٠ .

(٥) باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٨٥ – ١٨٦ .

عظيمة نظراً لاشتغالها بالتجارة فى الشرق[١] . وأصبحت مدن مصر والشام أسواقًا تجارية كبيرة ، أفردت فيها لأكثر الدول الغربية فنادق خاصة وخانات ، وأصبح لها فيها قناصل ، وأخذت معظم منتجات الهند تتدفق على دولة المماليك فى مصر والشام ، وعلى البنادقة والجنوية والفلورنسيين والبيازنة والقطالونيين ، ثم انضاف إليهم الفرنسيون فى وقت متأخر - بعد توقف العلاقات التجارية بين مصر وفرنسا إثر حملة لويس التاسع على مصر - فتاجروا مع الأراضى الخاضعة للسلطان المملوكى[٢] . فامتلأت خزائن المماليك بالثروة الناجمة عن هذا النشاط التجارى ، وكان حسن التفاهم ضروريًا بين الجمهوريات الإيطالية وسلطنة المماليك ، ولهذا أبرمت بينهما المعاهدات التجارية [٣]. وهكذا أصبح العامل الاقتصادى قوة حيوية تتحكم فى حركات الصليبيين ، فكانت البندقية وجنوة تمتلكان سفنًا كافية لنقل الجيوش المسيحية إلى ميادين القتال فى الشرق ، وكان على أصحاب المشاريع الصليبية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (الثامن والتاسع الهجريين) مواجهة مشكلة إقناع الجمهوريات الإيطالية بالتضحية بمصالحها التجارية ذات الأهمية الحيوية البالغة بالنسبة لها فى سبيل الهدف الصليبى [٤]، لأن أى مشروع صليبى ضد مصر كان مصيره الفشل إذا لم تتعاون الجمهوريات الإيطالية مع صاحبه ، وهذا هو المظهر الشرقى الجديد فى الحرب المقدسة . وبذلك أصبح العامل الدينى فقط مصيره الفشل إذا اصطدم بالفوائد والدوافع الاقتصادية الجديدة ، وكان يجب على أى حملة صليبية إذا قدر لها النجاح ألا تؤدى إلى أي خسارة فى تجارة دول إيطاليا البحرية [٥].

وعلى كل حال ، اتجه معظم الدعاة فى كتاباتهم إلى المناداة بضرورة القضاء على القوة الاقتصادية للدولة المملوكية ، وذلك بفرض حصار اقتصادى عليها يضعف من قوتها ، وبذلك

---

(١) باركر : المرجع السابق ، ص ١٧١ ؛ جوزيف نسيم : العلاقات ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٢) Atiya, The Crusade, PP. 114 - 116 .

(٣) جوزيف نسيم : العلاقات ، ص ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ .

(٤) راجع : رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢١/٣ - ٧٢٢ (الترجمة العربية) ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٤٢ .

(٥) Atiya, The Crusade, P. 116 .

يمكن للغرب الانتصار عليها عسكريًا واستعادة الأراضى المقدسة [١]. ولم تكن فكرة الحرب الاقتصادية فى الحقيقة وليدة القرن الرابع عشر الميلادى وإنما ترجع أصولها إلى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، حين لجأ إلى هذه الفكرة هيتوم الأول ملك أرمينية الصغرى بعدما خاب ظنه فى مغول فارس الذين انصرفوا إلى مشاكلهم مع مغول القفجاق ، فما كان منه إلا أن أصدر أوامره المشددة فى سنة ١٢٦٠م / ٦٥٩هـ إلى أهالى قيليقية التى كانت تابعة له فى ذلك الوقت بمنع الاتجار مع المماليك منعًا باتًا ، ومنع تزويد سفنهم بما يلزمهم من بضائع ومواد أولية لصناعة السفن وآلات الحصار فى الوقت الذى كان فيه مغول فارس قد استولوا على العراق وقطعوا طريق الفرات التجارى ، كما كانت الموانىء الرئيسية على ساحل لبنان - مثل طرابلس وبيروت - لا تزال فى أيدى الصليبيين [٢].

وفى سنة ١٢٧١م / ٦٧٠هـ حينما وصل الأمير إداورد الإنجليزى إلى عكا على رأس حملته الصغيرة ، صدم عندما رأى تجار المسيحيين من البنادقة ، يواصلون إمداد المماليك بالخشب والحديد والرقيق الأبيض [٣]، ضاربين بذلك عرض الحائط بتهديدات الكنيسة لهم بتوقيع عقوبة الحرمان عليهم ، ومستمرين على إبقاء علاقتهم التجارية مع الإسكندرية . واضطر الصليبيون فى الشام إلى قبول هذا الوضع نظراً إلى حاجاتهم إلى الأساطيل البندقية والجنوية والتى كانت تربطهم بالغرب الأوربى [٤].

وفى سنة ١٢٨٩م / ٦٨٨هـ ، أى بعد سقوط طرابلس فى أيدى المماليك ، استولى الجنوية على سفينة مملوكية محملة بالسكر والتوابل قرب شاطىء الأناضول ، ولكنهم خافوا غضب السلطان قلاوون فأسرعوا إلى إعادة بضائع السفينة المنهوبة ، وعقدوا معاهدة صداقة واتفاقية تجارية فى ١٣ مايو ١٢٩٠م / ٦٨٩ هـ حققت لهم كثيراً من المكاسب [٥].

---

(١) اعتنق هذه الفكرة العديد من الدعاة فى القرن الرابع عشر الميلادى ، منهم - على سبيل المثال : ريمون لل Raymond ، وبركارد من جبل صهيون Burcard ومارينو سانودو Marino Sanudo .

(٢) راجـع : Mas - Latrie, Histoire de L'Ile de Chypre, I, P. 412 ; Grousset, Histoire des Croisades, III, pp. 631 - 32 ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٤٢ - ١١٤٣ .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٤٣ .

(٤) Grousset, op. cit., III, p. 559 .

(٥) عاشور : المرجع السابق ، ص ١١٤٤ .

وإلى جانب هذا ، فقد سادت فكرة التعاون مع المغول بعد التبشير بينهم لاعتناق المسيحية لتوجيه جهود الجميع نحو القضاء على دولة المماليك فى مصر والشام ، وهو ما أطلق عليه فى بعض الأحيان " صليبية التتار " . واعتنق هذه الفكرة كل من البابوات وملوك أوربا ، وهى الفكرة التى أصبحت من الملامح الرئيسية فى الأدب الشائع فى أوربا فى تلك الفترة (١).

هذا ، وقد بدأ رد الفعل الصليبى بكتابات ثاديوس النابوليتانى Thaddeus فقد كان شاهد عيان لسقوط آخر معاقل المسيحية فى عكا ، ونشر تقريره فى هذا الصدد ، ويعتبر هذا التقرير صورة حية لأحداث سقوط عكا . وتنحصر أهمية ما كتبه فى أنه يعتبر دعوة لحرب صليبية جديدة تعتبر الأولى من نوعها عقب سقوط عكا . وقد اختار ثاديوس الحوادث التى تثير شعور الكاثوليك ضد المسلمين المنتصرين ، وأرسل إلى البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٣م / ٦٨٧ - ٦٩٢هـ) ينذره بخطر المسلمين وضرورة استئصال شأفتهم ، ولم يدبر ثاديوس أى خطة للحرب الصليبية ، وإنما قصر نفسه على الدعاية والتشجيع لقيام تلك الحرب(٢).

وكان من بين الداعين للحرب والمتحمسين لها البابا نيقولا الرابع نفسه ، فقد كان يسعى سعيًا متواصلاً لقيام سلم أوربى على دعائم ثابتة ، حتى يمكن أن يحشد كل القوى المسيحية الغربية فى حرب صليبية . ومن ثم أحاط البابا نفسه بكثير ممن يشاركونه آماله ، ممن يقبل نصائحهم الخاصة بالحرب ، ومن بين هؤلاء كان شارل الثانى ملك أنجو والذى ورث عن أبيه اهتمامه بمسيحيى الشرق (٣). وقد كون شارل الثانى آراءه على أساس القيام بحرب صليبية ؛ إلا أنه كان يرى أن من الجنون القيام بحرب ضد حاكم قوى مثل سلطان مصر ، وأن الأحوال والأوضاع فى الشرق سوف تنال من قدرة الصليبيين ولكن حربًا تجارية يشنها الصليبيون ضد مصر التى تعتبر مركز السوق التجارى بين الشرق والغرب ، سوف تحقق من النتائج مالا يمكن أن تحققه أى وسيلة حربية أخرى . هذا ، علاوة على قلة تكاليف هذه الحرب الاقتصادية ؛ إذ

---

(١) عطية : العلاقات ، ص ٨٠ .

(٢) راجع : Atiya, The Crusade, PP. 31 - 4 ؛ رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢٣/٣ (الترجمة العربية) ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٥ .

(٣) رانسيمان : المرجع نفسه ، ٣ / ٧١٨ و ٧٢١ . هذا وقد أعلن شارل الأول (توفى سنة ١٢٨٥م) أحقيته فى تاج بيت المقدس ، وأصبح ابنه شارل الثانى (توفى سنة ١٣٠٩م) فصلاً Vassal من أفصال البابا نيقولا الرابع ؛ راجع فى هذا : Atiya, The Crusade, p. 35 .

يكفى أن تقوم خمسون سفينة حربية وخمسون سفينة ناقلة وألف وخمسمائة من الرجال لفرض الحصار الدائم على البضائع المصرية ، ومعاقبة جميع المسيحيين الذين تتعارض هذه السياسة مع مصالحهم التجارية . وقد رأى الملك شارل الثانى ، أيضًا ، أن بإمكان ملك قبرس وفرسان الداوية والاسبتارية تجهيز عدة سفن حربية والباقى تجهزه البابوية ، وكان يستهدف من ذلك جمع شمل صفوف المحاربين الصليبيين فى هيئة واحدة[١] .

وهناك أيضًا داعية آخر من أنصار الحرب الاقتصادية على مصر وهو فدنزيو Fidonzio . وكان واحداً من الرهبان الفرنسيسكان ، ثم أصبح رئيسًا لجماعتهم فى الأراضى المقدسة فى سنة ١٢٦٦م / ٦٦٥هـ . وقد شاهد بنفسه سقوط قلعة صفد فى يد بيبرس البندقدارى ، ثم شاهد بعدها بسنتين سقوط أنطاكية فى يد بيبرس أيضًا [٢]، وقد طلب منه البابا جريجورى العاشر ١٢٧١ - ١٢٨٦م / ٦٠٧ - ٦٨٥هـ أن يوافيه بتقرير عن مشروع لحملة صليبية [٣]، فعاد فدنزيو إلى الشرق وجال فى مصر والشام وقبرس وأرمينية والقسطنطينية وتركيا وفارس بغرض جمع المعلومات التى عليه أن يضمنها تقريره الذى قدمه إلى البابا نيقولا الرابع - الذى خلف جريجورى العاشر . وقد ساعدته رحلاته العديدة إلى الشرق الأدنى والأقصى ، وإقامته الطويلة فى بلاد الشام ، وخبرته بالجيش المملوكى وحرب المماليك ، ومعرفته باللغة العربية - ساعدته كل هذه الأمور فى وضع خطته . وعندما قدم تقريره إلى البابا نيقولا الرابع لم تكن عكا قد انتقلت بعد إلى أيدى المسلمين ، ولكن بسقوطها فى ١٨ مايو ١٢٩١م / ١٦ جمادى الأولى ٦٩٠هـ لم تعد خططه وآراؤه صالحة بعد أن تغير الموقف [٤].

---

(١) انظر : Atiya, The Crusade, PP. 35 - 6 ، رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢١/٣ (الترجمة العربية) .

(٢) راجع عن فتح صفد فى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م وسقوط أنطاكية فى يد بيبرس فى سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨م : ابن عبد الظاهر (محيى الدين) ، الروض الزاهر ، ص ٢٥٦ - ٢٦٣ ، ٣٠٧ - ٣١٣ (على التوالى) ؛ ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر ابن عبد الله) " الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية (وهو الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر) ، تحقيق أولرخ هارمان ، المعهد الألمانى للاثار ، القاهرة ١٩٧١م ، ص ١١٧ - ١١٨ و ١٢٦ - ١٣١ (على التوالى .

(٣) راجع : . Atiya, The Crusade, p. 37 .

(٤) راجع : Atiya, op. cit., pp. 37 - 44 ؛ رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢٢/٣ (الترجمة العربية) ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٥ .

ولكن ما يهمنا هو آراؤه الخاصة بفرض حصار بحرى على مصر ؛ فقد اقترح أن يقوم أسطول كبير مكون من مائة سفينة حربية مزودة بالرجال والعتاد الكافى ، يكون واجبهم الأول هو القضاء على المسيحيين الذين ظلوا يتاجرون مع المسلمين ، ساعين فى متاجرتهم هذه وراء المكاسب ومتحدين عقوبة الحرمان التى فرضتها الكنيسة اللاتينية ، وسوف يؤدى - فوق هذا - ذلك الحصار البحرى على سواحل مصر والأقطار الأخرى الخاضعة للحكم الإسلامى إلى ضربة قاضية للمسلمين لجهلهم بفن الملاحة [(١)]. وقد أوضح فدنزيو أرباح المماليك من التجارة، فذكر أن دخل الإسكندرية فى اليوم الواحد كان يبلغ ما يقدر بألف بزينت قديم أو أكثر من ألف فلورين كانت تصرف على تجهيز الفرسان ؛ فإذا امتنع المسيحيون عن المتاجرة مع مصر فسيخسر كل من السلطان المملوكى والمسلمين مورداً هامًا كان يدر عليهم الربح الوافر . ثم تكلم فدنزيو عن تحول التجارة الهندية عن طريق البحر الأحمر ومصر إلى فارس وأرمينية المسيحية ، ورأى أن فكرة الحصار هذه إنما تتيح أيضًا وضع حد لاستخدام شباب منطقة البحر الأسود فى جيش المماليك . وقد أوصى فدنزيو باتباع ثلاث طرق لسير الحملة مع وجوب استمرار الحصار الاقتصادي لجميع مصبات النيل (دمياط - رشيد) ، علاوة على الإسكندرية أثناء القيام بالحملة لضمان نجاحها . على أنه فى أثناء مناقشة مقترحات فدنزيو فى رومة وصلت الأخبار بسقوط عكا وكل ما تبقى من مراكز المسيحية على ساحل الشام[(٢)]. وعلى الرغم من الأخبار السيئة فقد فشلت كل مجهودات البابا نيقولا الرابع ليشرك الكاثوليك فى الحملة المقترحة . ففى فرنسا كان النزاع لايزال مستمراً بين التاج الفرنسى والنبلاء الإقطاعيين ، وانشغل ملك انجلترا بالمشاكل الدستورية إلى جانب انشغاله بالحرب فى اسكتلندا . ويضاف إلى ذلك أن انجلترا وفرنسا كانت تتحركان نحو التنافس الحاد الذى لم يلبث أن أدى إلى حرب المائة عام بينهما [(٣)]. وعلى الرغم من انعدام ما يعكر صفو أسرة هابسبورج ، واستعادة أراجون لجزائر البليار ، نجد ألمانيا بعيدة كل البعد عن الاتحاد ، كما أن أرجوان كانت تتنازع مع جيرانها من الممالك المسيحية فى الشمال الأسبانى ، فى حين ظل

---

(١) انظر : Atiya, The Crusade, Pp. 35 - 36 , 40 .

(٢) انظر : Atiya, op. cit., pp. 40 - 44 ؛ رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢٣/٣ (الترجمة العربية) .

(٣) رانسيمان : المرجع نفسه ، ٣ / ٧١٨ - ٧١٩ .

المسلمون قوة معادية خطرة داخل شبه جزيرة أيبيريا . أما إيطاليا فنجد العداء مستحكمًا بين جمهوريتي جنوة والبندقية ، ولم يعيرا قرار الحرمان البابوى أى اهتمام ، بل كانتا تخشيان هذه الحروب التى سوف تجلب لهما ولتجارتهما الكساد والخراب[١] .

وقد أدرك نيقولا الرابع خطورة تأجيل القيام بالحملة الصليبية المقترحة ، فنراه متحمسًا لجمع قوات انجلترا وفرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة للعمل المشترك . وقرر أن يكون هو البادىء بالقيام باستعدادات الحملة ، وعلى هذا جهز أسطولاً من عشرين سفينة حربية يشد أزرها خمسون سفينة أخرى أهداها هنرى الثانى دى لوزنيان ، وكان الغرض منها الدفاع عن أرمينية ضد غارات المسلمين ومهاجمة سواحل آسيا الصغرى وساحل مصر عند الإسكندرية . ومن الواضح تمامًا أن مثل هذه القوة الصغيرة لا قبل لها لتنفيذ تلك الخطة . ومات نيقولا الرابع فى أبريل ١٢٩٣م / جمادى الأول ٦٩٢ هـ قبل أن يعلم بفشل أسطوله فى تحقيق أغراضه [٢].

وقد سار البابوات على السياسة التى اتبعها نيقولا الرابع وأمراء الصليبيين فى أوربا وقبرس وفرسان الاسبتارية ، وكانت مجهودات نيقولا لخلق حالة من السلم بين انجلترا وفرنسا هى كل ما شغل البلاط البابوى خلال تلك الفترة العصيبة خلال حرب المائة عام . كما أن فكرة الاتحاد مع المغول ، قد شغلت عقل من أتى بعده من البابوات ، وأصبح التوحيد بين جميع الهيئات الدينية الحربية عماد كل دعاية فى القرن الرابع عشر ، وأن إنفاذ أسطول البابا إلى قبرس قد جعل منها المكان الطبيعى لتوجيه الحملات-الصليبية فى المستقبل[٣] مثلما كانت محطة لتجمع القوات الصليبية فى الماضى .

وهناك أيضًا المبشر والداعية الإسبانى ريمون لل Raymond Lull الذى ولد فى بالما بجزيرة ميورقة من جزر البليار فى سنة ١٢٢٣م / ٦٢٠هـ ومات على شاطىء مملكة تونس بالقرب من بجاية سنة ١٣١٦م / ٧١٣هـ . ويعتبر ريمون لل من أهم دعاة الحرب الصليبية فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، وتميز بمعرفته اللغة العربية وإجادته لها . وكان لل

---

(١) Atiya, The Crusade, p. 44 .

(٢) Atiya, op. cit., pp. 44 - 45 .

(٣) Atiya, The Crusade, p. 45.

معاصراً لفترة كانت تشهد انهيار المراكز المسيحية الغربية فى الشام . وتميزت مؤلفاته وأفكاره وحياته بطابع فلسفى خاص ، ألا وهو طابع العالمية وهى فكرة فلسفية مشهورة . وكان لل من بين الكتاب الأوائل الذين قالوا بتلك الفلسفة[١]. وسعى إلى تطبيقها على الأمم والدول ، أى السعى لانضمام الأمم المختلفة المنشقة تترية كانت أو إسلامية تحت لواء الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وكان لل يرى أن البعثات التبشيرية جزء متمم للعمليات الحربية [٢]، لا ينفصل عنها ، فكان أن قدم التماسًا إلى البابا سلستين الخامس (١٢٩٤م) Celestine V يبين فيه ضرورة إيفاد بعثات تبشيرية جديدة لنشر تعاليم المسيحية بين التتار قبل أن يتمكن اليهود والمسلمون من اجتذابهم . وإن كانت هذه الفكرة قد سيطرت على فكر عدد من بابوات وملوك الغرب قبل ذلك التاريخ بنصف قرن من الزمان ، وعلى رأسهم البابا إنوسنت الرابع ولويس التاسع ملك فرنسا [٣].

وفى أبريل سنة ١٣٠٥م / ٧٠٥ هـ ، أتم لل تأليف كتابه المسمى كتاب النهاية[٤] Liber de Fine الذى يشتمل على مقدمة وثلاثة أقسام كبيرة تتضمن أفكاره ومقترحاته .

أما عن الفكرة الرئيسية التى يمكن استخلاصها من كتابه ، فهى كما أشرنا منذ قليل ، أن للبعثات التبشيرية أهمية تعادل أهمية الحملات الصليبية فى اجتذاب المسلمين إلى الديانة المسيحية . واقترح لل فى كتابه مهاجمة الأراضى الإسلامية براً وبحراً فى آن واحد ، وتتركز مهمة الأسطول فى منع أى اتصالات أو علاقات تجارية بين المسيحيين والمسلمين ، فى الوقت الذى يقوم فيه هذا الأسطول بنقل المحاربين لتدمير التحصينات الساحلية فى أراضى الدولة المملوكية[٥] . واقترح لل ، أيضًا ، احتلال جزيرة رودس ومالطة واتخاذهما قاعدتين للبحرية

---

(١) جرونيباوم (جوستاف) : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، مجموعة الألف كتاب رقم٢ ، نشر مكتبة مصر بالفجالة ، (بدون تاريخ) ، ص ٧٣ - ٧٥ .

(٢) راجع : Atiya, The Crusade, p. 75 ؛ رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢٤/٣ (الترجمة العربية) .

(٣) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٤) انظر : Daniel (N.A.), " The Sack of Alexandria", in : Archaeological and Historical Studies, (1979), Publication of the Archaeological Society of Alexanderia, Alexandria 1979, p. 57 n. 20 ؛ وراجع : عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٥ - ١١٣٦ .

(٥) Atiya, The Crusade, PP. 79 - 82 .

المسيحية ، لكى تتمكن من منع أى تبادل تجارى بين المسيحيين من ناحية وبين الإسكندرية والشام من ناحية أخرى ؛ فقد رأى أن هذا كفيل بالضغط على السلطان المملوكى وخضوعه فى فترة لا تتجاوز ست سنوات (١).

وفى عام ١٣٠٩م / ٧٠٩هـ ينتهى لل من تأليف كتاب جديد يعرف باسم كتاب استرداد الأراضى المقدسة : Liber de acquisitione Terrae Sanctae تناول فيه المسائل التى تعرض لها فى كتابه السابق مع تعديل بسيط فى الترتيب إذ اقترح فيه طريقًا آخر تجتازه القوات الصليبية لكى تصل إلى الأراضى المقدسة ، ونادى بضرورة احتلال القسطنطينية أولاً حتى يتقدم الجيش الصليبى عبر آسيا الصغرى متجهًا نحو الأراضى المقدسة ليستردها من المماليك ، فى الوقت الذى يبحر فيه الأسطول المسيحى من أنطاليا ليهاجم الإسكندرية ودمياط ورشيد ، وبذلك يعجز السلطان المملوكى عن مواصلة القتال عندما يفقد ممتلكاته فى الشام وأهم مدنه الساحلية فيضطر إلى تسليم أراضيه إلى اللاتين (٢).

والملاحظ فوق هذا ، أن آراء لل فى كتابيه قد اتسمت بالتعصب ضد المسيحيين الشرقيين والمسلمين على حد سواء (٣). وعندما انتهى من تأليف كتابه الأخير ، تراءى فى الأفق نذير حملة صليبية جديدة ؛ فقد أعرب فيليب الجميل عن رغبته فى إعداد حملة صليبية ، إلا أنه كان يهدف فى الواقع إلى انتزاع أموال الكنيسة ، ولم تكن دوافعه وتتنذ ظاهرة للعيان ، وهو إلى هذا كان يعتقد أن البابوات فى أفنيون بجنوب فرنسا قد أصبحوا فى متناول يده ، وأنه يستطيع إلزامهم بأداء الضرائب بغرض القيام بحرب صليبية لاسترداد بيت المقدس (٤).

أما عن البابا كليمنت الخامس فقد أظهر الانصياع الدائم للملك ، وبادر بجمع كل ما كتب عن الحملة لكى يسترشد به الملك فيليب (٥). وفى الوقت نفسه تقدم الكثير من الدعاة بالمقترحات والمشاريع الخاصة بهذه الحملة المقترحة ، ووضعت المؤلفات التى رفع منها ما رفع

---

(١) Atiya, op. cit., p. 82 .

(٢) Atiya, op. cit., pp. 84 - 5.

(٣) راجع : رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٧٢٥ (الترجمة العربية : Danial, The Sack of Alexandria, p. 57).

(٤) Atiya, The Crusade, p. 48 .

(٥) رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٣ / ٧٢٥ .

للملك أو للبابوية أو إلى مجلس فيين الذى انعقد فيما بين عامى ١٣١١و ١٣١٢م / ٧١١ و ٧١٢هـ . وعلى الرغم من أن فيليب الجميل لم يقم بتجهيز أية حملة صليبية ، إلا أن هذه الآراء والأفكار كانت فى حد ذاتها ثروة غذت أدب الدعاية الصليبية فى ذلك العصر(١). ولذا نجد بطرس ديبوا Pierre Dubois - وهو من رجال القانون الفرنسيين - يتقدم إلى الملك فيليب برسالة يوجه شطراً منها إلى أمراء أوربا ، يطلب إليهم فيها الاشتراك فى الحملة تحت زعامة ملك فرنسا . وأفرد توصيات خاصة تتعلق بالطريق الذى يجب أن تسلكه الحملة ، والوسائل اللازمة لتمويلها . وأشار أيضًا إلى أنه يجب على الكنيسة أن تنفض يدها من الأمور الزمنية والمدنية ، وضرورة سحق الداوية ومصادرة ممتلكاتهم ، ومصادرة جميع ممتلكات الأديرة غير القابلة للإصلاح (٢). ثم تقدم جيوم دى نوجاريه Guillaume de Nogaret - كبير المستشارين الدبلوماسيين لدى الملك فيليب - إلى البابا برسالة فى سنة ١٣١٠م / ٧١٠هـ تحوى مقترحاته عن حملة صليبية ، إلا أن هذه المقترحات كانت محدودة ، تركزت أساسًا فى الكلام عن وسائل تمويل الحملة من أموال الكنيسة ، بالإضافة إلى أن أول ما أشار به هو القضاء على الداوية (٣).

وعمد البابا كليمنت إلى طلب النصح من الأمير الأرمنى هيتوم كوريكوس Hethoum of Corycus - الذى كان قد لجأ إلى فرنسا وأصبح مقدمًا لدير فى برايمو نسترانت Praemon-strant ، قرب بواتييه Poitiers . ومن ثم أصدر هذا الأمير فى سنة ١٣٠٧م / ٧٠٧هـ كتابه المعروف باسم Flos Historiarum Terre Orientis الذى اشتمل على خلاصة موجزة لتاريخ الشرق الأدنى ناقش فيها عن دراية ومعرفة أحوال الدولة المملوكية . وأوصى هيتوم بتوجيه حملة مشتركة تسير بحراً وتتخذ من قبرس وأرمينية قاعدتين لها ، وأيد التعاون مع الأرمن ، والتحالف الوثيق مع المغول (٤).

على أن هناك آراء مماثلة عبر عنها فيما بعد وليم آدم William Adam الدبلوماسى البابوى الذى طاف فى أرجاء شاسعة من الشرق ، وأوغل فى أسفاره حتى بلغ الهند ، وأضاف اقتراحًا

---

(١) Atiya, The Crusade, p. 48 .

(٢) Atiya, op. cit., pp. 49-52 ؛ وانظر أيضًا : عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٦ .

(٣) Atiya, The Crusade, pp. 52-55.

(٤) راجع : رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢٧/٣ . (الترجمة العربية) .

مؤداه أن يكون للمسيحيين أسطول فى المحيط الهندى لكى يقطع الطريق على تجارة مصر الشرقية ، ورأى أيضًا ضرورة أن يسترد اللاتين القسطنطينية (١).

وصنف وليم ديورانت William Durant أسقف مينده Mende رسالة فى سنة ١٣١٢م / ٧١٢هـ أوصى فيها باستخدام الطريق البحرى ، وأكد على ضرورة إعداد حملة صليبية (٢). أما أمير البحر الجنوى بنيتو زكريا Benito Zaccaria الذى سبق أن كان حاكمًا عسكريًا لطرابلس ، فقد سجل آراءه عن القوات البحرية التى يجب إعدادها (٣).

وإلى جانب كل ذلك ، فقد كانت هناك مقترحات أخرى تفوق هذه المقترحات من الناحية العملية وصفها ثلاثة من أعلام الصليبيين الذين كانوا يشتركون دائمًا فى كل حملة صليبية . ففى سنة ١٣٠٧م / ٧٠٧هـ وصل إلى أفنيون مقدما الداوية والاسبتارية ، فطلب منهما البابا كليمنت أن يبديا آراءهما بشأن الحملة . فبادر مقدم الداوية جيمس مولاى James Molay على الفور بإرسال تقرير إلى البابا أوصى فيه بأن تقوم فى البداية عشر سفن كبيرة بتطهير البحار ، ثم يتلو ذلك إرسال جيش لا يقل عدده ما بين اثنى عشر ألفًا وخمسة عشرة ألف فارس وبين أربعين وخمسين ألف راجل ، وينبغى حمل الجمهوريات الإيطالية على التعهد بنقلهم ، وضرورة حشد رجال الحملة فى قبرس لمهاجمة دولة المماليك على الساحل الشامى(٤).

وحدث بعد ذلك بأربع سنوات – عند انعقاد مجمع فيين – أن كتب فولك فيلاريت Foulques Filarite مقدم الاسبتارية إلى فيليب ملك فرنسا ينهى إليه ما سبق لطائفته أن أعدته ، وما تستطيع أن تجريه من استعدادات للحملة الصليبية . وفى الوقت نفسه تقدم هنرى الثانى دى لوزنيان ملك قبرس بآرائه إلى المجمع ، وتتلخص فى فرض حصار اقتصادى على الدولة المملوكية ، ولكن لما كان هنرى لا يثق فى الجمهوريات الإيطالية ؛ فقد أصر على

---

(١) Atiya, op. cit., PP. 64-7.

(٢) Atiya, The Crusade, PP. 67-71.

(٣) Mas - Latrie ؛ فى رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢٨/٣ ؛ Atiya, op. cit., PP. 60-61

(٤) انظر : رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢٨/٣ (الترجمة العربية) .

عدم الركون إليهم فى نقل أفراد الحملة وأيد فكرة شن هجوم على مصر ذاتها ، باعتبارها أسهل بلاد السلطان المملوكى منالاً فى رأيه [١].

وعلى الرغم من كل هذا النشاط الزائد فى عهد الملك فيليب الجميل ، وتشجيعه للنظريين والعمليين من الدعاة طوال مدة حكمه ، وتظاهره بأنه سوف يقوم بحملة صليبية لاستعادة الأراضى المقدسة ، فلا يخفى بعد كل ذلك أن أغراضه الحقيقة كانت تظهر بوضوح فى مذكرات نوجاريه الذى أوضح فيها بذكاء تلك الأساليب التى يجب أن تتبع لتمويل سيده الملك الفرنسى من دخل الكنيسة تحت ستار المناداة بتلك الحملة الصليبية الزائفة : ولعل ما ورد فى مذكرات نوجاريه يعبر أصدق تعبير عن عقلية فيليب الجميل [٢].

وأعقب ذلك فترة من الهدوء بعد أن فترت حدة ما استلهمه الملك فيليب من آراء حول الحملة الصليبية [٣]. إلا أن هذه الآراء انبعثت من جديد فى سنة ١٣٣٠م / ٧١٣هـ على يد خلفه فيليب السادس ، فلقيت نواياه الخاصة بإعداد حملة صليبية كل التشجيع من البابا يوحنا الثانى والعشرين ، الذى سارع إلى إصدار مرسومين بابويين ، أولهما فى ١٦ يونيو ١٣٣٠م / ٧٣١هـ مخولاً الملك حق جمع عشور سنتين ، وثانيهما فى ديسمبر ١٣٣١م / ٧٣٢هـ مانحًا الملك وأتباعه صكوك الغفران التى تمنح عادة فى أوقات الحرب وتحت ستارها[٤]. وعلى هذا أخذ الملك فيليب السادس يعد عدته ، فاتفق مع البنادقة على نقل مؤنه وذخائره إلى الأراضى المقدسة ، واتخذ الإجراءات التى تكفل تزويد جيوشه بالإمدادات من فرنسا ونابلوى وصقلية وكريت واليونان ، مسترشداً فى كل ذلك بنصائح بعض الخبراء فى شئون الشرق من أمثال جى دى فيجفانو Guy de Vigevano طبيب يوحنا ملك برجنديا الذى أعد تقريراً لما تتطلبه الحملة من معدات حربية ، مع بيان نوع المعدات وقيمتها الحربية [٥].

---

(١) Atiya, The Crusade, PP. 58 - 60 ؛ وراجع أيضًا : رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٢٩/٣ (الترجمة العربية) .

(٢) Atiya, op. cit., PP. 61 - 62 .

(٣) رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٣٨/٣ (الترجمة العربية) .

(٤) Atiya, The Crusade, P. 95 .

(٥) Atiya, op. cit., p. 96 .

أما عن الداعية بيركارد Burcard الذى كتب مؤلفه الشهير تحت اسم " دليل الملك فيليب Directorium ad Philippum Regem " ، فقد اقترح كل المشروعات المتعلقة بالحروب الصليبية التى كان الملك فيليب السادس مزمعًا القيام بها ، ورفع مؤلفه هذا إلى الملك نفسه[١]. وكان بيركارد يتميز بشخصية قوية وقدرة فائقة على الكتابة والتأليف ، واكسبته رحلاته وتجاربه فى الشرق خبرة واسعة ، ويعتبر مؤلفه من أهم الوثائق فى الدعاية للحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى [٢]. وقد ارتحل بيركارد إلى الشرق الأدنى سنة ١٣٠٨م / ٧٠٨هـ بقصد الحج حيث قضى أكثر من أربع وعشرين سنة بشّر خلالها بالمسيحية على المذهب الكاثوليكى الرومانى وناب عن البابوية فى جذب الأرمن إلى العقيدة الكاثوليكية [٣]. وبعد عودته من الشرق كانت فكرة فيليب السادس عن الحروب الصليبية قد ذاعت فى أوربا بصفة عامة وفى فرنسا بصفة خاصة [٤].

وقد أعد بيركارد فى سنة ١٣٣٢م / ٧٣٣هـ مؤلفه الذى ينقسم إلى جزأين كبيرين ، يتحدث فى أولهما عن بعض الأمور التمهيدية اللازمة للحروب الصليبية ، ثم أشار إلى ما تحتاجه الجيوش من مؤن وذخائر ، والطريق الذى يمكن للصليبيين اتخاذها : أما القسم الثانى فيشتمل على الخطة الرئيسية للحملة التى يؤيد فيها بيركارد فكرة الحصار البحرى للممالك الإسلامية وإعادة تحريم التجارة مع الإسكندرية ودمياط وبقية الأسواق الإسلامية [٥]. وأشار إلى ضرورة الاتفاق مع البندقية وجنوة بشأن نقل المعدات [٦]، ومع جزيرة قبرص التى ستتخذ قاعدة حربية للأسطول [٧].

وعلى الرغم من تعدد مقترحات بيركارد إلا أنها لم تكن بالغة النفع ، لأن ما أظهره من العداء والكراهية نحو المسيحيين الشرقيين يفوق كراهيته للمسلمين ، فاعتبر الاستيلاء على

---

(١) Atiya, op. cit., P. 96 .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٧ .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٧ .

(٤) Atiya, The Crusade, p. 98 .

(٥) Atiya , op. cit., pp. 98 - 101 .

(٦) Atiya, op. cit., p. 100 .

(٧) عاشور : المرجع السابق ، ص ١٣٣٨ .

الصرب الأرثوذكسية وعلى بيزنطة جانبًا جوهريًا لكل حملة صليبية ، ولذا لقيت مقترحاته معارضة شديدة فى البلاط الفرنسى تبرز فى عدم موافقة الملك والمجلس الاستشارى للطريق الذى فضله بيركارد لخط سير الحملة (١). كما عارضوا غزو بلاد الصرب والقسطنطينية وآسيا الصغرى (٢). وبينما كانت الاستعدادات للحملة قائمة على قدم وساق من جانب الملك فيليب، إذ تقدمت البندقية بعرضها لتكوين حلف ضد الأتراك فى آسيا الصغرى يتكون من ملوك فرنسا وبيزنطة والاسبتارية والقبارسة إلى جانب البابوية ، وذلك لما لمسته البندقية من انتشار سريع للأتراك ونمو فى قوتهم البحرية مما قد يعرض تجارتها فى الشرق للخطر (٣). ونجحت فعلاً فى تكوين ذلك الحلف فى مقر البابا يوحنا الثانى والعشرين ، فتم على هذا إبرام معاهدة تنص على إرسال حملتين إلى آسيا الصغرى ، تقوم الأولى منهما بعملية استكشافية للتأكد من عدم وجود سفن تركية قد تهدد سلامة الأسطول الصليبى ، وعلى أن تكون الحملة الثانية هى الحملة الرئيسية الى ستغزو الأتراك . وقامت بالفعل الحملة الأولى بمهمتها بنجاح فى سنة ١٣٣٣م / ٧٣٤هـ ودمرت معظم الأسطول التركى وحوصرت البقية الباقية منه فى خليج أزمير، وهرب الأمير التركى ورجع الصليبيون إلى بلادهم منتصرين (٤).

وكان لنجاح هذه الحملة مبشراً للملك فيليب السادس وللصليبيين بنجاح الحملة الثانية ، ولكن ما لبث أن ظهر فى الأفق خطر جديد هدد الصليبيين ودفعهم إلى تغيير خططهم ، بعد أن وصلت إلى الملك فيليب السادس أخبار عن تحركات الأسطول الإنجليزى واتجاهه نحو فرنسا لمهاجمتها . فأسرع فيليب إلى باريس لجمع قواته دفاعًا عن سلامة بلاده (٥).

وهناك أيضًا الداعية مارينو سانودو Marino Sanudo الذى يحتل مكانة هامة بين دعاة القرن الرابع عشر . وقد ولد مارينو سانودو فى البندقية عام ١٢٧٩م / ٦٦٩هـ وقام بعدة

---

(١) Atiya, The Crusade, P. 110 .

(٢) Atiya , op. cit., P. 111 .

(٣) Atiya, Loc. cit.

(٤) Atiya, op. cit., PP. 111- 113 ؛ وانظر أيضًا : Edbury, The Crusading Policy, P. 91 N.8

(٥) Atiya, op. cit., p. 113 ؛ وانظر أيضًا : عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٩ .

رحلات فى شرق البحر المتوسط وفى إيطاليا واليونان والشام ومصر [١]. ويعتبر كتابه " سر المؤمنين " Secreta Fidelium Crucis والذى يعرف أحيانًا باسم " أحوال الأرض المقدسة " Conditiones Terrae Sanctae أهم مؤلفاته على الإطلاق[٢] . وقد استغرق منه تأليفه خمسة عشرة عامًا ، إذ بدأ الكتابة فيه فى عام ١٣٠٦م / ٧٠٦هـ وانتهى منه فى عام ١٣٢١م / ٧٢١ هـ وأهدى نسخة منه إلى البابا يوحنا الثانى والعشرين فى ديسمبر ١٣٢١م / ٧٢١هـ [٣]. وتناول مارينو سانودو فى كتابه هذا الخطوات الثلاث التى يراها ضرورية للقيام بحملة صليبية ناجحة : أما الخطوة الأولى ، فكان يرى ضرورة إضعاف مصر والتضييق عليها اقتصاديًا وإذا ما تمت هذه الخطوة يشرع فى اتباع الخطوة الثانية التى تتلخص فى غزو المماليك فى مصر . وأما الخطوة الثالثة والنهائية ، فقد أوضح فيها الوسائل والطرق التى يمكن أن تؤدى إلى نجاح الغزو وإلى أن تصبح الأرض المقدسة فى أيدى اللاتين [٤].

وكان سانودو يرى أنه من العبث إرسال حملة برية إلى مصر ، إذ كان هذا معناه الانتحار ، لأن الجيوش المصرية المسلحة كانت أقوى من أية قوة غربية ومن ثم كان من الصعب إخضاع مصر بهذه الطريقة . ولذا كان من الأجدى الضغط أولاً على موارد مصر الاقتصادية ، ويتلو ذلك قيام الدول الغربية بأكملها بحملة على مصر دون أن تتكبد خسائر فادحة فى الأرواح . وذكر سانودو أن أراضى السلطان لا تنتج ذهبًا ولا فضة ، ولكنه يعتمد على التجار المسيحيين الذين يتجرون فى التوابل والبضائع الأخرى التى يشترونها من الهند ، ويتقاضى عليها السلطان ضرائب أثناء مرورها بمصر ، فلو قضى على هذه التجارة لوقت ما فإن مصر سوف يقضى عليها اقتصاديًا ، وهو ما سوف يؤدى إلي افتقارها . وأضاف سانودو أيضًا أن من واجب البابا أن يهيىء أسطولاً لوقف المعاملات التجارية مع مصر [٥]. إلا أن سانودو أدرك فى الوقت نفسه استحالة وقف المتاجرة مع الدول المملوكية فجأة وعلى هذا فلابد من البحث

---

(١) Atiya, The Crusade, PP. 119 - 25.

(٢) Atiya, op. cit., p. 119 .

(٣) Atiya, op. cit., pp. 119 - 20, 124 .

(٤) عاشور : الحركة الصليبية ، ص ١١٣٩ - ١١٤٠ .

(٥) Atiya, op. cit., PP. 125 - 126.

عن طرق تجارية أخرى تحقق للمسيحيين موارد بديلة ، فكانت دراسته بهذا تتسم بالعمق ، واشتهرت إقتراحاته بأنها كانت بعيدة النظر فضلاً عن شمولها[١].

ولما كان سانودو قد أوضح حججه فى كتابه هذا ، فقد كان من الصعب على ولاة الأمور أن يغفلوا عن خطته ، فكانت النتيجة أن أعلنت الحرب الاقتصادية على مصر . ولكن فشلت عمليات الحصار كما ذكرنا من قبل لأن البندقية وجنوة وغيرهما من الجمهوريات البحرية التى كانت تعتمد فى حياتها على التجارة وما تدره عليها من أرباح لم تكن على استعداد لأن تضحى بمكانتها التجارية ومكاسبها المادية التى كانت بالنسبة إليها فوق كل اعتبار آخر . وبالإضافة إلى أن مقترحات سانودو هذه فيما يتعلق بالحملة لم تكن لتتحقق إلا إذا كان هناك تعاون بين جميع الدول الأوربية ، وهو أمر لم يكن من المستطاع تحقيقه فى ذلك الوقت[٢].

لعلنا نخلص مما سبق أن من أهم الملامح المميزة لتاريخ الحروب الصليبية إبان العقود الثلاثة أو الأربعة الأولى من القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى هو كثرة الدعاة من مختلف الطبقات ممن سعوا فى كتاباتهم إلى غرض واحد ألا وهو الحث على مؤازرة قضية الحرب المقدسة ، فخضع الحجاج ورجال التبشير وأرباب السياسة ورجال الكنيسة والمحاربون لمختلف الخطط التى وضعت عن مشروعات الحرب الصليبية ، تلك الخطط التى رسمها أصحاب السلطة ومن بينهم البابوات والملوك والمجامع الدينية ، فدارت مناقشات مسهبة حول الخطط المدونة على هيئة وثائق فيما يتصل باستعدادات ومقاصد واحتمالات نجاح الحملات الموجهة نحو الشرق [٣].

وأخيراً توجهت جهود الدعاة والمتحمسين للحرب الصليبية فى ذلك العصر ، عندما وجه الغرب عدداً من الحملات باتجاه الشرق فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى / النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى [٤]، مما أفضى إلى أن تمر الكتابة الأدبية عن الدعوة للحرب الصليبية بمرحلة من مراحل الفتور الملحوظ ، إذ تحولت أفكار القائمين على الدعوة

---

(١) رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٣٩/٣ (الترجمة العربية).

(٢) Atiya, The Crusade, PP. 126 - 27 .

(٣) Atiya, op. cit., P. 128.

(٤) Atiya Loc. cit .

للحرب الصليبية إلى مرحلة التنفيذ فأضحت الاتصالات الدبلوماسية وإجراء المفاوضات للعمل المباشر بديلاً لنشرات الدعاية الدينية والرسائل – أى المقالات – التى صنفت عن الحرب الصليبية . ولعل أفضل ما يصور هذا الاتجاه الجديد هو كل من بطرس دى توماس[١] Pierre de Thomas وفيليب دى مزيير[٢] Philippe de Méziéres وهما رجلان أتاحت لهما شخصيتاهما المعروفتان إلى جانب نفوذهما أن يسهما إلى حد كبير فى الترويج للحرب الصليبية أكثر مما بذله فى أغلب الظن المعاصرين لها[٣] . وفى مختتم القرن الرابع عشر ، تحول فيليب دى مزيير ، وقد تقدمت به السن وعند تقاعده ، إلى ذلك المنهج القديم الذى زود الآخرين بالتأليف عن الحروب الصليبية[٤] .

أما عن بطرس دى توماس ، فهو فرنسى الجنسية ، درس فى مستهل حياته علم الجدل الذى انتفع به كثيراً خلال دراساته وحياته العملية ، ثم تمكن بعد ذلك من الحصول على درجة الدكتوراه فى علم اللاهوت ، وذاع صيته ، وأثرت مواعظه فى الناس تأثيراً بالغًا حتى لقد أدت إحدى عظاته إلى أن تنهال المنح والهدايا على أحد الأديرة فى أفنيون بما يصل مقداره إلى ألف فلورين[٥] ، فوجد فيه البابوات والأساقفة أداة يعولون عليها لتنفيذ السياسة الخارجية للإدارة البابوية ووجد البابا كليمنت السادس Clement VI (١٣٤٢ – ١٣٥٢م / ٧٤٣ – ٧٥٣هـ) فيه مرشحًا مناسبًا لتوليه منصب أسقفية باداجوز (أو باداخوث) Badajoz فى إسبانيا[٦] وبعد وفاة كليمنت السادس اختاره البابا إنوسنت السادس Innocent VI (١٣٥٢–١٣٦٢م / ٧٥٣ – ٧٦٤هـ) ليضطلع بسفارات لها أهميتها فى بلاط الملك لويس ملك أبوليا وزوجته الملكة جوانا Joana ، وفى بلاط شارل الرابع Charles IV إمبراطور

---

(١) ولد بطرس دى توماس من أبوين متواضعين فى قرية ساليناك دى توماس Salignac de Thomas فى أبرشية سارلات Sarlat ، ولا نعرف تاريخ مولده على وجه التحديد ، والراجح أن ميلاده كان فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ؛ راجع فى هذا : Mas-Latrie, dan : Machaut, P. 281 (note 24); Atiya, The Crusade, PP. 129 - 30 وانظر أيضًا : . Jorga, Phil. de Méz., P. 131 n. 3 .

(٢) انظر ما جاء هنا فيما بعد ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) Atiya, The Crusade, P. 128 .

(٤) Atiya, op. cit., p. 129 .

(٥) Jorge, Phil. de Méz., p. 134 .

(٦) Atiya, The Crusade, P. 130 .

الصرب المنشق (على البابوية) إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة [١]، وعـينه فى الوقت نفسه أسقفًا على باتى Patti وليبارى Lipari فى صقلية [٢]. وعندئذ ، تنقل بطرس دى توماس فى إيطاليا وهنغاريا وسلافونيا والصرب ، متحديًا مهالك الطريق ، إلى أن أبحر أخيرًا إلى نيقوسيا (الأنقوسية) فى قبرس [٣].

وفى عام ١٣٥٧م / ٧٥٩هـ ، فى الوقت الذى كان فيه فى قبرس ، توجه بطرس دى توماس إلى الحج إلى الأراضى المقدسة ، متجاهلاً فى ذلك تحذيرات الملك هيو الرابع دى لوزنيان له من المجازفة بهذه المغامرة فى وقت كانت فيه الاستعدادات جارية بالفعل لإنفاذ حملة صليبية ، إلا أنه لم يأبه لهذا التحذير وانطلق إلى كنيسة القيامة وألقى موعظته فى حشد من المسيحيين على جبل صهيون ، ثم رجع - فى أغلب الظن - إلى فاماجوستا فى سنة ١٣٦٠م / ٧٦٢هـ من غير أن يلحقه أى أذى ، فنال بذلك استحسان البابا إنوسنت السادس نظرًا لشجاعته ، فعينه أسقفًا لمدينة كورون Coron فى شبه جزيرة المورة سنة ١٣٥٩م / ٧٦١هـ ثم رئيسًا لأساقفة كريت فى عام ١٣٦١م / ٧٦٣هـ ثم بطريركًا للاتين فى مدينة القسطنطينية فى العام التالى [٤].

وأصبح بطرس خلال سياحته فى الشرق على دراية تامة بشئونه ومشاكله ، مما أدى إلى اختيار البابا له قاصدًا رسوليًا خاصًا للشرق جميعه فى مهمة لها جوانب ثلاث : أولاً يدعو ويروج لحملة صليبية ضد المسلمين ؛ ثانيًا أن يتشبث فى مسعاه بإغراء كل المنشقين على الكنيسة الكاثوليكية بالعودة إلى كرسى البابوية فى روما ؛ ثالثًا أن يطهر جزيرة كريت من وصمة الهرطقة [٥]. وقد أبلى بطرس فى منصبه هذا بلاء كبيرًا حتى وصل به الحال إلى حد تعرض حياته للأخطار فى قبرس نتيجة لإصراره على تحويل الأهالى الأرثوذكس إلى المذهب الكاثوليكى [٦].

---

(١) Atiya, The Crusade, P. 131 and n.1.

(٢) Jorge, Phil. de Méz., pp. 134 - 35 .

(٣) Atiya, op. cit., p. 131 and n.3.

(٤) Jorga, Phil. de Méz., PP. 138 - 39 .

(٥) Jorge, op. cit., p. 140 ; Atiya, The Crusade, P. 142 .

(٦) راجع فى هذا : Makhairas, I, PP. 89 - 91 ; II, PP. 94-5 (note); Amadi, P. 409 .

أما من ناحية الحرب الصليبية ضد المسلمين ، فلم يتوقف القاصد الرسولى فى أي وقت من الأوقات عن الدعوة لها طوال حياته ، خاصة بعد زيارته المشهورة للأراضى المقدسة ، فى محاولة منه لإشعال نار الحماسة لشن حرب صليبية . وقد استعان بطرس بمهارته الدبلوماسية وفصاحته التى يشتهر بها لخدمة قضية الحرب المقدسة [١]. ويعزى إلى نشاطه الفائق فى واقع الأمر إمكانية إنفاذ الحملات المتتابعة لبطرس الأول دى لوزنيان ضد الأتراك فى آسيا الصغرى والمماليك فى مصر[٢] . ولقد وقع عليه اختيار البابا إنوسنت السادس - حتى وفاته - لكى يقوم بإثارة مشاعر غالبية الصليبيين وتأجيجها فى تلك الحقبة ، وأولاه ثقته نظراً لأنه لم يكن مجرد داعية لقضية الحرب الصليبية وإنما هو فوق هذا صليبى له نشاط فعال وعلى استعداد للقتال مع أقرانه المسيحيين فى حرب مقدسة ضد المسلمين [٣].

ويحتمل أن أعظم ما أسهم به هو ذلك الدور الذى قام به فى نهب وسلب مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م ، وقبل هذا التاريخ كان واحداً من ثلاثة أقطاب من المحركين للحملة على مصر ، وهم بطرس دى لوزنيان وبطرس دى توماس نفسه ، وفيليب دى مزيير . فهو قد دبر لهذه الحملة الصليبية ، وعاون فى تجميع القوات المحاربة من أقطار عدة فى الغرب الأوروبى[٤].

وكان لبطرس دى توماس مواقفه المشهورة خلال الحملة وبعد مغادرتها الإسكندرية إلى فاماجوستا حيث انتهت حياته فى ٦ يناير ١٣٦٦م / ٧٦٧هـ بعد أن عجل بنهايته هذا الجرح الذى أصيب به فى مدينة الإسكندرية [٥]. وقد خلّف بطرس دى توماس تراثًا من مثله العليا التى تحيى ذكراه عن الحرب الصليبية يتمثل فى صديقه الحميم ومريده فيليب دى مزيير . وقد التقى الرجلان فى أول مرة فى تلك الظروف المأساوية الى انتشر فيها الطاعون بفاماجوستا ، ووقف الرجلان - على كل حال - حياتهما على قضية الحرب الصليبية ، فكان هذا بوجه عام هو الصلة التى قوت روابط الصداقة بينهما [٦].

---

(١) Atiya, The Crusade, P. 133 .

(٢) Atiya, op. cit., P. 134 .

(٣) Atiya, Loc. Cit.; هذا ويذكر Jorga, Phil. de Méz, P. 204 n. 8 . أن تاريخ تعيينه فى هذه المهمة كان فى ٨ يونيه ١٣٦٤م .

(٤) Atiya, Loc. cit .

(٥) Atiya, Loc. Cit., p. 135 .

(٦) Jorga, Phil. de Méz., PP. 129 - 31 .

وعلى هذا كان فيليب دى مزيير هو الخلف الروحى لبطرس دى توماس . وهو كواحد من الحالمين وواحد من صوفية الحجاج إلى الأراضى المقدسة كان أيضًا بمثابة القوة الحيوية أو الروح الدافعة لكل شئون الشرق طوال استمرار عمله فى منصب المستشار فى مملكة قبرص[١] .

وقد ولد فيليب دى مزيير فى سنة ١٣٢٦ أو ١٣٢٧م / ٧٢٧ أو ٧٢٨ هـ فى أسرة نبيلة متواضعة بمقاطعة بيكارديا بفرنسا [٢]، وأنهى تعليمه فى وقت مبكراً ، وابتدأ حياته العملية النشطة فى سنة ١٣٤٥م بأن التحق بخدمة الفيكونت لوكتشينو Lucchino Visconti فى لومباردیا ، ثم بعد ذلك قام بالخدمة فى بلاط أندريه André ملك نابولى إلى أن أغتيل الأخير فى عام ١٣٤٦م / ٧٤٧هـ فغادر مزيير مدينة نابولى مرتحلاً إلى تشتالة بإسبانيا ، وقفل منها راجعًا إلى فرنسا ، حيث ظل بها فترة وجيزة قبل أن يبحر بادئًا رحلاته تجاه الشرق[٣]. وهنا يذكر يورجا Yorga أن فيليب كان موجوداً فى المعركة التى دارت قرب أزمير فى العام نفسه ١٣٤٦م / ٧٤٧هـ وأنه قد رسم فارسًا فى هذه المناسبة [٤]، ثم ترك همبرت Humbert ولى عهد فيين (الدوفين) وقائد الحملة وتوجه حاجًا إلى الأراضى المقدسة وفى طريقه إلى بيت المقدس تصور مزيير فكرة تكوين جماعة جديدة للفرسان أطلق عليها اسم " جماعة آلام المسيح " أو " العقيدة الجديدة المحبة ليسوع المسيح[٥] Nova Religo Passionis Jhesus Christi لكى تكون القاعدة الصلبة للقيام بحملة صليبية ناجحة من أجل

---

(١) Atiya, op. Cit. 136 ؛ وانظر أيضًا : Molinier (Auguste), " Discription de deux manuscrits contenant la régle de la Militia passionis Christi de Philippe de Méziéres" , dans : Archives L'Orient Latin, Publiées sous Le Patronage de la Société de L'Orient Latin, Paris 1881, Tome I, P. 336 .

(٢). Atiya, op. Cit., p. 137 ؛ ولكن راجع : Jorga, Phil. de Méz., p. 11 ؛ وقارن : Molinier, " Discription ". dans: Loc. cit.

(٣) Atiya, op. cit., p. 137 .

(٤) Jorga, Phil. de Méz., P. 54 .

(٥) Molinier, " Description", dans : op. cit., PP. 339 , 343 .

تخليص الأراضى المقدسة من سيطرة المسلمين [١]. وقد أصبح هذا التصور أو هذه الخطة همه الرئيسى طوال حياته العملية ، بل شغلت بعد تقاعده موضعًا رئيسيًا فى معظم مؤلفاته[٢]. وبعد زيارته لفلسطين أبحر إلى قبرس حيث حاول عبثًا أن يغرى الملك هيو الرابع دى لوزنيان (١٣٢٤م - ١٣٥٩م) بالأخذ بآرائه . وفى الوقت نفسه تم التعارف بينه وبين بطرس دى لوزنيان ولى عهد قبرس ، وكان هذا التعارف بمثابة نقطة تحول عظيمة فى حياة فيليب دى مزيير [٣]. إذ حالما تم تتويج بطرس الأول (١٣٥٩ - ١٣٦٩م) عين صديقه القديم فى منصب مستشار المملكة ، وهو المنصب الذى احتفظ به إلى أن أغتيل بطرس سنة ١٣٦٩م/ ٧٧١هـ ؛ ولا تتأكد فى الحقيقة أهمية حياة مزيير العملية كواحد من الدعاة وكدبلوماسى وواحد من الصليبيين إلا عندما استدعاه بطرس الأول إلى قبرس . وفى هذا الوقت بدأ اللقاء الفعلى مع بطرس دى توماس ، ثم رافق الملك بطرس فى رحلاته إلى أوربا وهى الرحلات التى استغرقت من أكتوبر سنة ١٣٦٢ إلى ٢٥ يونيو ١٣٦٥م / ٧٦٤ - ٧٦٧هـ بحثًا عن المقاتلين والأموال لحملته الصليبية التى شنها على الإسكندرية [٤].

ونستطيع القول بأنه منذ تعيين بطرس الأول دى لوزنيان لفيليب دى مزيير مستشاراً له فى مملكته قبرس بدأت الخطوات العملية للدعاية لحملات الملك بطرس التى شنها على ساحل آسيا الصغرى ومصر ؛ وكان بطرس قبل توليته عرش قبرس قد فكر فى إنشاء جماعة (إخوان السيف) وقد أفضى بأفكاره عن تكوين جماعته هذه إلى صديقه فيليب دى مزيير . ويذكر

---

(١) Atiya, The Crusade, P. 137 ؛ وعن تصورات فيليب دى مزيير لجماعته " آلام المسيح " : انظر : Jorga, Phil. de Méz., PP. 95 - 6

وتضم هذه الجماعة فرسانًا من جميع أنحاء أوربا على أن تقيم بصفة دائمة فى الأراضى المقدسة ، وتكون أهدافها هى إحياء ذكرى آلام المسيح من أجل إنقاذ البشرية وإصلاح المجتمع المسيحى وانتشاله من الشرور والآثام التى استشرت فى كيانه ، ثم انتزاع بيت المقدس والأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ، وأخيراً نشر العقيدة الكاثوليكية فى الأراضى الإسلامية ، انظر : Hamdy, Philippe de Méziéres and the New order of the Passion, I, P. 56 .

(٢) Atiya, op. cit., p. 137 .

(٣) Atiya, op. cit., p. 138.

(٤) Jorga, Phil. de Méz., p. 144 .

يورجا أنه من المحتمل أن فيليب دى مزيير هو الذى أوحى إلى بطرس دى لوزنيان بتكوين هذه الجماعة . ومن المرجح أن فيليب دى مزيير كان من أوائل فرسان جماعة السيف(١) .

وقد ازدهرت جماعة إخوان السيف حتى بعد وفاة مؤسسها وبالنظام نفسه .، ففى عام ١٣٩٦م / ٧٩٩هـ رسم أخوه الملك جاك الأول Jacques I واحداً من الحجاج فارساً من فرسان جماعة السيف ، ورسم الملك جانوس Janus فى عام ١٤١٣م / ٨١٦هـ نيقولاس دست Nich-olas d'Este وأربعة من أتباعه فرساناً فى الجماعة ، وانضم فردريك الثالث إمبراطور ألمانيا إلى هذه الجماعة فى سنة ١٤٣٦م / ٨٤٠هـ كواحد من الحجاج(٢) .

وهكذا أصبح فيليب دى مزيير الساعد الأيمن للملك بطرس فى مفاوضاته الموسعة التى عقدها فى بلاط الجمهوريات البحرية بإيطاليا ، وفى أفنيون فى جنوب فرنسا ، وفى عواصم الممالك الغربية ، بل أنه أصبح – خارج حدود المهمة التى قام بها الملك فى رحلته هذه – أهم قوة مؤثرة فى السياسة الأوربية . ولعل أعظم خدمة قدمها وتستحق الذكر بغرض توطيد السلام فى الغرب هو التقاؤه مع بطرس دى توماس فى سنة ١٣٦٤م / ٨٦٦ هـ عندما توسط هذان السفيران وبنجاح فائق فى ذلك الخصام والحرب الوشيكة الوقوع بين برنابو Bernabo فيكونت ميلانو والكنيسة (٣).

---

(١) Jorga, op. cit., p. 83 ؛ ولكن انظر : Machaut, PP. 11, 12. .

هذا ، وقد كان العصر متميزاً ومناسباً لتكوين الجماعات الجديدة من الفرسان ؛ ففى القرن الرابع عشر قام كثير من النبلاء بتكوين جماعات مشابهة لجماعة إخوان السيف ، ومنها جماعة نبلاء إمارة الدوفين التى كونوها للدفاع عن أنفسهم والاحتفاظ بسلطانهم ، وجماعة Escu d'or التى أسسها لويس البوربونى ، والجماعة التى كونها كونت سافوى فى نهاية حملته فى سنة ١٣٦٦م تحت اسم Annonciade . أما يوحنا ملك فرنسا فقد كان رئيساً لجماعة النجمة L'etoile التى أسسها سنة ١٣٥١م ؛ Jorga, Phil. de Méz., p. 83 .

(٢) Jorga, Phil. de Méz., pp. 84- 5 .

ويرجع يورجا أن أفراد جماعة القبر المقدس فى بيت المقدس قد انضموا إلى جماعة إخوان السيف ، وعن " الرنك " الخاص بالجماعة فهو مازال موجوداً على واجهة مبنى دار البلدية بمدينة البندقية ، وهى الدار التى كانت المقر القديم لعائلة كورنارو دى بسكوبى Cornaro de piscopi على القناة الكبيرة حيث كان ينزل الملك بطرس دى لوزنيان خلال رحلته إلى أوربا ، وفيها تم ترسيم فردريك كورنارو Fréderic Cornaro كفارس فى هذه الجماعة ، وأهدى كورنللى Coronelli خريطة قبرص إلى جان بابتست كورنارودى Jean-Baptiste Cor-naro de Piscopi فارس جماعة السيف ؛ راجع : Jorga, op. cit., p. 83 n.6 .

(٣) Atiya, The Crusade, p. 138 and n.3.

على كل حال ، كانت النتيجة الرئيسية للرحلة التى قام بها الملك بطرس هى هذه الحملة التى وجهت إلى الإسكندرية فى عاتم ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ ؛ وهو ما تدل عليه الشواهد عن دوره المرتبط بالدور الذى قام به بطرس دى توماس خلال الهجوم على الإسكندرية(١) . ولما فقد مزيير أباه الروحى القاصد الرسولى بطرس دى توماس فى أوائل عام ١٣٦٦م / ٧٦٧هـ ، غادر جزيرة قبرس على أمل الحث على مزيد من المساعدة لتكوين حملة صليبية جديدة . وفى خلال تغيبه عن قبرس ، دهمته صدمة اغتيال الملك بطرس فى يناير ١٣٦٩م / ٧٧١هـ ، فكان هذا نهاية لحياته العملية فى قبرس(٢) ، حيث عارض أشراف الجزيرة وأعيانها عودته إلى وظيفته ، فاعتزل الحياة العامة وتوقف نتيجة لذلك عن كونه واحداً من الصليبيين الفعالين وأصبح مجرد داعية بسيط للحرب المقدسة (٣). وفى سبتمبر سنة ١٣٨٠م / ٧٨٣هـ ، شاهد فيليب مملكة أخرى تزول بزوال شخصية شارل الخامس Charles V المعروف باسم شارل العاقل، فقرر عندئذ أن يعتزل الحياة العامة تمامًا ويمضى بقية أيامه داخل دير سيلستين فى باريس ؛ وبعد حياة حافلة بجوانب التوفيق والفشل ، تحول المحارب والداعية إلى واحد من أعظم مؤلفى العصر خصوبة ، وإن كان قد دون فى الفترة السابقة على اعتزاله فى سنة ١٣٦٦م تاريخ حياة صديقه وأبيه الروحى وسمى كتابه سيرة القديس بطرس توماس Vita S. Petri Thomasii . وحالما دخل فيليب دى مزيير دير سيلستين أملى على الرهبان مراسلاته الدبلوماسية وبعض أحاديثه التى ألقاها منذ ١٣٦٦م / ٧٦٨هـ (٥). وفى الفترة من ١٣٨٤ - ١٣٩٦م / ٧٨٦ - ٧٩٩ هـ وسع من آرائه وأكملها حول تصور حملة صليبية ناجحة فى ضوء تجربته فى الشرق . وبعد النكبة التى حلت بالفروسية الغربية فى نيقوبوليس Nicopolic أمضى فيليب عام ١٣٩٧م / ٨٠٠هـ فى كتابة رسالة جامعة صاغ فيها دفعة واحدة كل

---

(١) راجع ما جاء هنا فيما بعد فى الفصل الرابع ، ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٢) Molinier, " Descrpption", dans : Archives p. 336 .

(٣) Atiya, The Crusade, p. 139 .

(٤) Molinier, " Description", dans : op. cit., p. 336. وانظر أيضًا : Atiya, Loc. Cit., and n.1

(٥) Atiya, The Crusade, P. 139 and n.3 .

أفكاره وما يشير به فيما بهذا الموضوع ، ويبدو أنه قد كف عن الكتابة منذ ذلك الوقت وإلى أن وافته منيته فى شهر مايو ١٤٠٥م / ٨٠٨هـ عن سن تناهز الثانية والتسعين عاماً[١] .

ومما لاشك فيه أن الملك بطرس الذى نشأ وتربى فى ذلك العصر الزاخر بنشاط الدعاة الخصب من أجل استعادة الأراضى المقدسة ، قد تأثر بطبيعة هذا العصر من خلال أعماله الحربية التى قام بها سواء على ساحل آسيا الصغرى ضد الأتراك وعلى الإسكندرية أكبر ميناء لدولة المماليك ، ثم بعد ذلك على الساحل الشامى ، أن نحكم بأنه كان على دراية مباشرة أو غير مباشرة بمشاريع الدعاة خاصة تلك التى كانت تنادى بالقضاء على قوة مصر الاقتصادية . هذا ، بالإضافة إلى احتكاكه المباشر بفيليب دى مزيير - مستشاره والصديق المقرب إليه - ، وبطرس دى توماس - البطريرك اللاتينى للقسطنطينية والمندوب البابوى للشرق - اللذين آمنا بقضية استعادة الأرض المقدسة إيماناً مطلقاً ، وقاما بالخطوات العملية للدعاية لحملته التى تمخضت عن استيلائه على الإسكندرية وانتهت بانسحابه المفاجىء منها .

وقد حدد هذا العمل الجرىء ذروة نشاط الملك بطرس الحربى ، وهو ما ينظر إليه على أنه أعظم ضربة وجهها الصليبيون إلى الدولة المملوكية فى كل تاريخها[٢].

ولنا أن نتساءل هنا إن كان الملك بطرس قد أدرك منذ البداية هدفه الذى عمل من أجله وهو الاستيلاء على الإسكندرية ، أم أنه كان يهدف - فيما نسب إليه - بحملته هذه استعادة مملكة بيت المقدس ؟ والملاحظ فى هذا الصدد أن فيليب دى مزيير يؤكد لقرائه بأن الملك بطرس كان منذ حداثته يتوق إلى تحرير ميراثه العائلى أى مملكة بيت المقدس . فقد كتب الملك بطرس فى أوائل سنة ١٣٦٢م / ٧٦٤هـ إلى البنادقة عن مقاصده فى استرجاع الأرض المقدسة [٣]. وكرر البابا أوربان الخامس تأكيده بأن تعد فى سنة ١٣٦٥م/٧٦٧هـ حملة من أجل استعادة الأراضى المقدسة [٤].

---

(١) يحدد مولنييه يوم وفاة دى مزيير بالسادس والعشرين من شهر مايو ، أما يورجا فهو يحدده باليوم التاسع والعشرين من هذا الشهر ، وتبعه فى هذا الدكتور عطية ؛ راجع :
Molinier, " Description " , dans : op. cit., p. 137; Jorga, Phil. de Méz., p.511 ; Aliya, The Crusade, p. 140 .

(٢) Edbury, op. cit., p. 90 .

(٣) Atiya, The Crusade, p. 330 .

(٤) Atiya, op. cit., pp. 337 - 39 ; Edbury, op. cit., p. 92 and n. 16 .

وفى مواجهتنا لشهادة هذه المصادر ، وللقول المتعارف عليه بأن مصر كانت مفتاح الطريق لاسترجاع بيت المقدس ، وهو الرأى الذى تشدد المندوب البابوى بطرس دى توماس فى القول به فى مدينة الإسكندرية عند مواجهته لهؤلاء الذين رغبوا فى الجلاء عن المدينة (١)- كل هذا يدفعنا - إلى ترجيح أن الملك بطرس كان يؤمن إيمانًا حقيقًا بقدرته على استعادة بيت المقدس، ولكن يصعب علينا القول بأنه قد فكر فى الواقع فى قدرته على دحر المماليك فى مصر وعلى قيادة جيشه المنتصر إلى داخل أراضى مملكة بيت المقدس ، أو أنه فى حالة حصوله على فلسطين نظير مدينة الإسكندرية ، كان فى إمكانه حماية هذه المملكة والدفاع عنها (٢). ومثل هذا الشك يجد ما يعززه عندما نتفحص هذه المصادر تفحصًا دقيقًا ؛ فعلى الرغم من أن فيليب دى مزيير كان شاهد عيان ، إلا أنه كان داعية صليبيًا تتملكه فكرة أن بيت المقدس يجب بل ويمكن استعادته ، ومن المحتمل أنه كان هو نفسه كمستشار لقبرس الذى دون تلك الرسالة الموجهة إلى البنادقة (٣). أما المصدران الآخران الرئيسيان عن فترة حكم الملك بطرس، ونقصد بهما ماشو ومخيراس (٤)- اللذين يشيران إلى طموحه إلى استعادة بيت المقدس من غير أن يأتيا بما يدل على إبرازهما لهذه الفكرة ، نجدهما لايصوران حملة سنة ١٣٦٥م/٧٦٧هـ على أنها كانت تعمل على تحقيق هذا الهدف (٥).

وهنا يذهب إدبيورى فى تحليله لشخصية الملك بطرس ودوافعه الحقيقية وراء هجومه على الإسكندرية ، إلى أنه كان متأهبًا لكى يدع البابا أوربان الخامس وفيليب دى مزيير يستخدمان فكرة استعادة بيت المقدس لأغراض الدعاية ، إلا أن ذلك لا يعنى بالضرورة متابعة الرأى الذى يذهب إلى أن الملك بطرس فى الفترة الواقعة بين عامى ١٣٦٢ و ١٣٦٥م / ٧٦٤ - ٧٦٧هـ لم يكن يدور بالمثل حول بيت المقدس ، وإنما حول ما يراه القبارصة من علاقة أو صلة متبادلة بين قضية تجارتهم وأسلوب الدفاع عن جزيرتهم (٦). وهذه الحقيقة يمكن للباحث

---

(١) Jorga, Phil. de Méz., p. 134 .

(٢) Edbury, op. cit., p. 95 .

(٣) Edbury, op. cit., p. 95 .

(٤) Machaut, pp. 2, 10 ; Makhairas, I, p. 117 .

(٥) Edbury, Loc. Cit .

(٦) dbury, Loc. cit .

المدقق فى أعمال الملك بطرس الحربية التى قام بها قبل حملته على الإسكندرية وبعدها ؛ أن يصل إليها فى النهاية . فمن رأينا أن الملك بطرس لم يأت بجديد فى نظرته هذه أو تفكيره هذا ، وإنما كان ذلك فى الواقع سياسة من سبقه من ملوك قبرص خاصة بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١م / ٦٩٠هـ ، فكل من هنرى الثانى دى لوزنيان وهيو الرابع دى لوزنيان والد الملك بطرس ، كان مدركًا تمام الإدراك لهذه الحقيقة ، والتى مؤداها أنه إذا حدث فى وقت ما أن حقق المماليك أو الأتراك سيطرتهم على البحار ، فهذا يعنى أن تقع جزيرة قبرص تحت رحمتهم. وواقع الحال أيضًا يشير إلى أن معظم القوة البحرية صاحبة السيطرة فى شرق البحر المتوسط إنما يهيمن عليها التجار الإيطاليون والقطالونيون ؛ ولما كان لهؤلاء التجار مصالح ثابتة فى ازدهار قبرص التجارى ، فهو يعنى من جانبهم ضمان مستقبلها السياسى ، ولن يقف الأمر عند مدهم يد العون إذا تعرضت الجزيرة للخطر ، وإنما سوف تعين إيرادات التجارة- المحصلة على هيئة ضرائب ورسوم مفروضة على مبيعات الأسواق وكلها يتجمع فى يد التاج القبرسى - سوف تعين بصورة جوهرية على الانفاق على ما يلزم للدفاع عن الجزيرة . أما إذا توقف التجار عن التعامل التجارى فى قبرس ، فلن يعنى هذا فحسب أن الثروة الناجمة عن المعاملات التجارية سوف تنعدم من أيدى أصحاب السلطة فى قبرس ، وإنما سوف يؤدى إلى توقف المساعدات لها خاصة إذا عمد المسلمون إلى غزو الجزيرة[١] .

وقد سبق أن أوضحنا كيف أن الإسكندرية كانت تنتزع التجارة من فاماجوستا وعلى هذا يمكننا القول بأن السبب المباشر لغارة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية ، إنما كان يستهدف القضاء على دواعى اضمحلال حصة التجارة التى تعقد صفقاتها فى الإسكندرية الميناء الأكثر أهمية للدولة المملوكية [٢].

ومن هنا ، فالراجح لدينا أن الملك بطرس عندما وجه حملته إلى الإسكندرية كان يأمل فى أن يحقق واحداً من ثلاثة أهداف ، أولها : أن يستولى على المدينة ويحتفظ بها[٣] حتى يتمكن فى المستقبل هو ومملكته من الحصول على الأرباح من تجارتها ؛ وثانيهما : أن يفاوض

---

(١) Edbury, The Crusading Policy, pp. 95 - 6 .

(٢) ما جاء هنا من قبل فى الفصل الأول ، ص ٨٠- ٨١ .

(٣) راجع فى هذا : Machaut, PP. 100, 109 .

عليها المماليك طمعًا فى الحصول على مزايا تجارية على حساب تجار الغرب الأوربى المنافسين للقيارصة فى موانىء المسلمين وهو ما سوف تبرزه المفاوضات التى حدثت فى سنتى ١٣٦٧م / ٧٦٩ هـ و ١٣٦٨م / ٧٧٠هـ . أما ثالث هذه الأهداف فهو أنه إذا لم يتمكن من احتلالها احتلالاً نهائيًا - وهو ما حدث بالفعل - أن يعمد إلى تخريب الإسكندرية على أمل أن تتحول الثروة التجارية إلى فاماجوستا [(١)]. ومن هنا يمكننا القول بأن الملك بطرس إنما كرس جهوده للنضال من أجل تأمين سلامة قبرس أولاً وقبل أى شىء آخر وحمايتها عن طريق زعامتها أو سيطرتها التجارية ، وهو ما يفسره لنا استيلاؤه على أنطاليا الميناء التركى الهام . كما أن تخريب مدينة الإسكندرية عندما بات من الجلى استحالة الاحتفاظ بها لم يكن إلا مجرد محاولة لتدمير ميناء منافس لفاماجوستا ؛ وأما الحديث عن حملة صليبية واسترجاع بيت المقدس فلم يكن يعدو محاولة منه لتزويد الموارد القبرسية بالرجال والأموال من الغرب الأوربى. وعلى هذا يمكن القول بأن الملك بطرس كان رجل سياسة يتسم بالواقعية مع سذاجة وقصور فى تفهم مدى أو طبيعة القوى الاقتصادية السائدة فى ذلك العصر [(٢)].

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر تلك الأسباب التى انفرد بها النويرى السكندرى لاختيار الملك بطرس لمدينة الإسكندرية هدفًا لحملته ، وهى أسباب يعبر فيها النويرى السكندرى عن وجهة نظره ، مما يعتبر اجتهاداً منه فى تعليل دوافع الملك بطرس فيما يتعلق بحملته . والملاحظ أنها تفتقر إلى المعرفة التامة بأحوال كل من الغرب الأوربى وقبرس والتغييرات العالمية التى كانت تحدث فى الغرب من اقتصادية وسياسية ، وإن كان النويرى قد مس بعض النقاط التى ربما ساعدت الملك بطرس على معرفة أحوال مصر وخاصة أحوال موانيها ومدى الاستعدادات الدفاعية الموجودة بها .

وقد رأى النويرى السكندرى أن السبب الأول يدور حول الظلم الذى وقع على النصارى الشرقيين الذين طردوا فى سنة ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٥٥م خلال عهد السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد بن قلاوون من الخدمة فى دواوين الحكومة ، وأرغموا على لبس

---

(١) Makhairas, I, P. 153 .

(٢) Edbury, op. cit., p. 100 .

خشن الثياب تمييزاً لهم عن المسلمين ، وأخضعوا لأنواع أخرى من المعاملة السيئة مثل السب والضرب والإهانة من جانب العوام [١].

وأما السبب الثانى ، فهو رفض السلطان لطلب تقدم به الملك بطرس ليأذن له كعادة كل من تملك قبرس بأن يستلم التاج فى مدينة صور [٢].

ويتلخص السبب الثالث فى ذلك الأسلوب المتراخى فى التصدى لتعدى الفرنج فى مياه الإسكندرية على عهد السلطان حسن بن الناصر محمد مما أوحى لهم بقصور الدفاع عن المدينة وأنها غنيمة سهلة المنال [٣].

أما عن الأسباب من الرابع إلى السادس ، فهى تتضمن حوادث من النهب والسلب فى ناحيتى رشيد وأبى قير ، قرب الإسكندرية . مما أيد اقتناع الملك بطرس بانعدام وسائل الدفاع عن الساحل المصرى [٤].

وسابع هذه الأسباب هو قيام العوام بقتل الفرنج البنادقة المقيمين بالإسكندرية [٥].

على كل حال بدأ الملك بطرس رحلته إلى الغرب للدعوة لحملته ولكى يجمع أكبر قدر ممكن من المساعدات المادية والسعكرية ليتمكن من تحقيق هدفه فى مهاجمة الإسكندرية والاستيلاء عليها تاركًا ، الكل يعتقد أنه على وشك تخليص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين .

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٩٢/٢ - ٩٣ ، ٩٥ - ٩٦ ؛ ويتخلل هذا النص قوله : " فصارت الفرنج لما رأوا عوام المسلمين فعلوا بالنصارى الذميين مع ما فعلوه من استلامهم لهم بالضرب والإهانة ... فصار يرفعون بضائعهم وأثاثهم إلى المراكب بسرعة وسافروا وأخبروا نصارى الرومانية بما فعله المسلمون بأهل النصرانية " .

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٩٧/٢ . وكان سلطان مصر وقتذاك هو الناصر حسن فى سلطنته الثانية . وقارن ما جاء به النويرى السكندرى بما أورده / القلقشندى : صبح الأعشى ، ١٥٣/٤ ، وهو يتكلم عن مدينة صور .

(٣) النويرى السكندرى : ٩٧/٢ - ١٠١ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٠٣//٢ - ١٠٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ١٠٩/٢ - ١١٠ . ويعلل هنا النويرى السكندرى اشتراك البنادقة فى الحملة بسبب قتل المسلمين لأصحابهم المقيمين فى الإسكندرية .

وتعتبر رحلته هذه علامة مميزة فى تاريخ قبرص والحرب الصليبية المتأخرة ؛ فلم يحدث من قبل أن قام أحد ملوك قبرص المتوجين بزيارة للغرب اللاتينى (١).

غادر الملك بطرس قبرص فى يوم ٢٤ أكتوبر ١٣٦٢م / ٣ محرم ٧٦٤هـ(٢) متوجهًا إلى رودس حيث استقبل استقبالاً حسنًا من جانب روجر دى بين Roger de Pins مقدم الاسبتارية، ثم انضاف إلى الملك عدد من نبلائه القبارصة من حامية أنطاليا(٣) وبعدها أبحر الملك مع مجموعته إلى البندقية التى وصل إليها فى يوم ٥ ديسمبر ١٣٦٢م / ١٥ صفر ٧٦٤هـ ومكث بها حتى العام الجديد فى محاولة منه لإقناع الدوج لورنزو كلس Lerenzo Celsi بإمداده بالسفن اللازمة (٤). ومن البندقية ارتحل الملك إلى جنوة ماراً بلمبارديا بطريق مسترا Mistra وبادوا وفيرونا وميلان وبافيا ، حيث بقى الملك فى جنوة كل شهر فبراير وجزءاً من شهر مارس ١٣٦٣م / ٧٦٤هـ ، لتصفية الخلافات بينه وبين الجنوية ، ولضمان المساعدات من قوة بحرية عظيمة أخرى إلى جانب البندقية (٥). وغادرت المجموعة الملكية جمهورية جنوة فى غضون شهر مارس إلى أفنيون ؛ ويحدد وصولهم إلى البلاط البابوى بيوم الأربعاء ٢٩ مارس ١٣٦٣م / ١٢ جمادى الآخر ٧٦٤هـ أى بعد نحو ستة أشهر من وفاة البابا إنوسنت السادس واعتلاء البابا أوربان الخامس كرسى البابوية (٦).

ولما ترامى إلى سمع - هيو دى لوزنيان - ابن أخى الملك بطرس الذى كان يدعى حقه فى تاج قبرص بزيارة عمه لأفنيون ، سارع إلى هذه المدينة ليقدم شكواه إلى البابا أوربان الخامس وانتهى عرض هذه الشكوى بتأكيد البابا لقرار سلفه إنوسنت السادس بأنه على الملك بطرس أن يدفع لابن أخيه مبلغًا سنويًا قدره خمسة آلاف بيزنت (٧).

---

(١) Atiya, The Crusade, P. 330 .

(٢) Machaut, P. 21 ; Makhairas, P. 115; Strambaldi, p. 50 .

هذا ، وينص مخيراس على رحيل الملك من ميناء بافوس Paphos (غرب قبرص) ، أما " أمادى " فهو يحدد ميناء فاماجوستا مكانًا لمغادرة الملك بطرس من قبرص ؛ راجع : Makhairas, Loc. Cit.; Amadi, P. 412.

(٣) Makhairas, P. 115; Strambldi, P. 51 ؛ ولكن انظر أيضًا : Jorga, Phil. de Méz., P. 144 .

(٤) Jorga, op. Cit., PP. 145 - 47 et nos .

(٥) Jorga, Phil. de Méz., PP. 150 - 52 .

(٦) Atiya, The Crusade, p. 331 .

(٧) Makhairas, Loc. cit .

وفى الوقت نفسه تقدمت المفاوضات بشأن القيام بحملة صليبية مع الأمراء الذين صادف وجودهم فى أفنيون . وقد تصادف أيضًا وجود ملك فرنسا ، يوحنا الثانى الذى اشتهر بفروسيته وتقواه ولم يجد الملك بطرس صعوبة فى كسبه لصالح قضيته[١] . وعندما بشر البابا أوربان الخامس بحرب مقدسة فى ١٤ أبريل ١٣٦٣م / ٧٦٤هـ أعطى قيادة الحملة إلى يوحنا الثانى وعين الكاردينال تليراند دى برجورد Talleyrand de P´´rigord مندوبًا بابويًا لهذا الغرض[٢] . وكان من التوفيق للملك بطرس أن يكسب إلى جانبه ملك فرنسا ونخبة من فرسانه ، هذا بالإضافة إلى الوعود التى قطعتها البندقية للملك بطرس لمساعدته [٣].

ثم ارتحل الملك القبرسى بعد ذلك من أفنيون مواصلاً طريقه ليحصل على مزيد من المساعدة من دول الغرب . ففى صيف عام ١٣٦٣م / ٧٦٤هـ وصل بطرس إلى فلاندرز Flanders وبربانت Brabant وألمانيا [٤]؛ وفى بلاط الراين ، ارتحل من بازل Basle إلى ستراسبورج Strasbourg فى ٤ يوليو وإلى ماينس Mayence فى ٢٥ يوليو وإلى كولونيا[٥] Cologne ، ومنها عبر حدود ألمانيا متوجهصا إلى باريس التى وصلها فى شهر أغسطس من نفس العام ، حيث ناقش الخطط النهائية للحملة الصليبية مع الملك يوحنا الثانى الذى وافق على الانضمام إليه فى مارس من العام التالى للبدء فى حرب المسلمين [٦]. ومن عاصمة فرنسا ، ارتحل الملك بطرس عن طريق الشمال الغربى لفرنسا حتى روان Rouen وكاين Caen لكى يقابل شارل دوق نورماندیا والذى أصبح الملك شارل الخامس فيما بعد ، ومكث بطرس فى كاين ما يقرب من الشهر من ١٣ أغسطس إلى ١١ سبتمبر ١٣٦٣م / أول ذى الحجة ٧٦٤هـ ولكنه لم يحصل على استجابة حقيقية للانضمام إلى حملته [٧]. وبعد أن

---

(١) Machout, PP. 21-2.

(٢) Machout, P. 22 ؛ ويضيف ماشو هنا أن الملك جون الثانى والملك بطرس كانا أول من بادر بحمل الصليب من يد البابا ، ثم تبعهما مجموعة كبيرة من النبلاء من أقطار عدة .

(٣) Atiya, The Crusade, p. 332 .

(٤) Jorga, Phil. de Méz., p. 175 ; Atiya, The Crusade, P. 332 .

(٥) Jorga, op. cit., PP. 174 - 75 .

(٦) Atiya, The Crusade, PP. 332 - 333 .

(٧) Jorga, op. cit., p. 176 .

تجول فى بريتانى اتجه إلى شيربورج[١] Cherbourg ثم سار إلى كاليه وعبر القنال إلى دوڤر[٢] Dover ومنها إلى لندن لزيارة إدوارد الثالث ملك انجلترة [٣]. وقد تصادف وجود الملك داڤيد ملك اسكتلنده فى لندن فى ذلك الوقت [٤]. وأقيمت حفلة مبارزة كبيرة على شرف الملك بطرس فى سميثفيلد[٥] Smithfield ، ومنح ملك انجلترة كثيراً من الهدايا للملك بطرس ومن بينها سفينة ضخمة تعرف باسم كاترين كلفته حوالى ١٢ ألف فرنك ، وكانت قد بنيت ليقوم بها الملك برحلة إلى بيت المقدس للحج [٦]. وعلاوة على هذا ، فقد دفع الملك إداورد كل النفقات التى تكلفها بطرس فى رحلته إلى انجلترة وعودته منها [٧]. وعاد الملك بطرس إلى باريس للمشاركة فى احتفالات عيد الميلاد ، واتجه منها إلى أكويتين Aquitaine لرؤية الأمير الأسود [٨]. ومن المحتمل أن الملك بطرس فى خلال عودته من أكويتين قد سمع أخبار موت اثنين من أكبر حلفائه فى الحملة ، هما الكردينال تليراند دى برجورد المندوب البابوى للحملة الذى توفى فى ١٧ يناير ١٣٦٤م / ٧٦٦هـ ويوحنا الثانى ملك فرنسا فى

---

(١) Jorga, op. cit., p. 177 .

(٢) Froissart (Sir John), Chronicles of England, France, Spain and the Adjoining Countries, translated from the French by Thomas Johnes, New York, 1901 , Vol. I, P. 77 ؛ وانظر أيضًا : Jorga, Phil. de Méz., p. 178

(٣) Atiya, The Crusade, p. 333 .

(٤) Atiya, Loc. Cit.

(٥) Jorga, Phil. de Méz., P. 180 .

(٦) Atiya, The Crusade, p. 333 .

(٧) Jorga, Phil. de Méz., P. 180 .

(٨) Jorga, Phil. de Méz. p. 184; ؛ ويشير يورجا هنا إلى أن تاريخ وصوله إلى اكويتين غير معروف. أما عن الأمير الأسود Black Prince فهو إدوارد أمير ويلز (١٣٣٠-١٣٧٦) وكان من أشهر فرسان انجلترة ، وكان له دور كبير كقائد للمقدمة فى معركة كريس Crécy (١٣٤٦م) ، ولم يكن سنه يتجاوز وقتئذ ست عشرة عامًا ، وأدى دوراً كبيراً أيضًا فى القضاء على الفرنسيين فى معركة بواتييه ١٣٥٦م فى إحدى مراحل حرب المائة عام بين انجلترة وفرنسا ، انظر فى كل هذا : Uden, A Dictionary of Chevarly, p. 79 (art: Edward, Prince of Waled (1330-1376) .

شهر مايو ١٣٦٤م ، فسارع الملك بطرس بالعودة إلى باريس ليشارك فى جنازة صديقه ملك فرنسا وفى تتويج خلفه [١].

وفى أثناء حفل تتويج شارل الخامس فاتحه الملك بطرس فى أمر حملته ، إلا أن الملك شارل اعتذر نظراً لانشغاله فى حربه مع انجلترا[٢] . ثم تابع بطرس طريقه إلى وسط أوربا داعيًا لحملته على أمل اشتراك الإمبراطورية الرومانية المقدسة فيها ، ولزيارة نبلاء ألمانيا محاولاً جذبهم للمشاركة معه ى حملته . وقوبل بطرس بالترحيب من جانب فرسان وأهالى مدينتى اسلنجن Esslingen وايرفورت Erfurt ، وساند الكثير منهم قضيته [٣]. ومكث الملك القبرسى فى هاتين المقاطعتين شتائين وصيفًا حسبما يورد ماشو [٤]، ولكن لا يمكننا الأخذ بما جاء به ماشو ، وذلك للأسباب الآتية : أولاً : أن الملك بطرس كان موجوداً فى باريس فى ١٩ مايو ١٣٦٤م / ٧٦٥هـ حيث حضر حفل تتويج شارل الخامس ملكًا على فرنسا وقبل هذا التاريخ كان موجوداً فى سانت دنيس St. Denis فى ٧ مايو من نفس الشهر حيث شارك فى تشييع جثمان الملك يوحنا الثانى [٥]، ثم توجه بعد ذلك إلى انجلتراومكث فيها مدة غير معروفة ومنها توجه إلى ألمانيا وتجول بين المقطاعات الألمانية وكانت آخر محطة له فى كراكاو Cracow [٦]؛ عاد الملك بطرس إلى البندقية فى ١١ نوفمبر سنة ١٣٦٤م / ٧٦٦هـ ، أى أن زيارته لكل من انجلترا وألمانيا لم تستغرق أكثر من صيف ١٣٦٤م وحتى شهر نوفمبر من السنة نفسها ، وهو ما نستخلصه من ماشو نفسه [٧].

---

(١) انظر : Machaut, Pp. 23, 24 - 25 ; Froissart, Chronicles, I, pp. 81-2 ; Jorga, Phil. de Méz., P. 187 ; Atiya, The Crusade, P. 334 .

(٢) Machaut, PP. 25 - 26 .

(٣) Machaut, PP. 27 - 28 .

(٤) Machaut, P. 28 :

" Es Lieus où avoit esté
Bien ij. Yvers et un esté" .

(٥) Jorga, Phil. de Méz., P. 187 ؛ وهو ينقل هنا من Froissart من طبعة غير التى بين أيدينا ، وهو ما يأخذ به : Atiya, The Crusade, P. 334 .

(٦) Machaut, p. 39 .

(٧) Machaut, p. 47 :

" L'an mil ccc.iii.et sxexante,
De november L'onsune jour,
Cils roy, à qui Dieux doint honnour,
Vint et arriva á Venise" .

على كل حال ، تابع الملك بطرس رحلته فى ألمانيا ، وأوضح له حاكم فرانكونيا أنه لا يستطيع أن يستجيب بصفة مستقلة إلى طلبه ، وأن واجبه يحتم عليه أن يتبع ما يقرره له الإمبراطور [١]. وبعدها لجأ بطرس إلى دوق سكسونيا رودلف الثانى وهو قريب وصديق للإمبراطور ، وأقيمت المباريات للمبارزة وشارك الملك بطرس فيها وحصل على هدايا قيمة من مضيفه ، إلا أن الدوق رفض أن يتخذ أى قرار له صلة بالحملة من غير أن يستشير الإمبراطور أولاً والحصول على موافقته ، ولم يكن هذا يعنى رفضًا قاطعًا أو عدم مبالاة بطلب الملك بطرس لأن الدوق عرض عليه اصطحابه إلى مدينة براغ لاستشارة الإمبراطور [٢]. وبعد حوالى تسعة أيام من الاحتفالات[٣] غادر بطرس بصحبة دوق سكسونيا إلى العاصمة الملكية براغ وقوبل بحفاوة من جانب شارل الرابع (١٣٤٧ - ١٣٧٨م) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة [٤]. وأخيراً وبعد الاحتفالات التى أقيمت على شرفه [٥]، كاشف الملك بطرس مضيفه بالهدف الحقيقى من وراء زيارته [٦]، فاقترح عليه الإمبراطور شارل الرابع عقد مؤتمر مع الملكين الآخرين فى وسط أوربا وهما ملك هنغارية وملك بولندا فى كركاو Cracow لكى يتخذوا قراراً موحداً بشأن ما يطلبه بطرس من مساعدة [٧]. وفى العاصمة البولندية أعلن الإمبراطور شارل الرابع تأييده التام للحملة الصليبية وأيد الملوك الآخرون رأيه هذا [٨]، وقرر الإمبراطور إنفاذ رسل من قبله إلى أمراء ألمانيا يدعوهم إلى التعاون فى الحرب المقدسة [٩].

وكانت كراكاو - كما ذكرنا - آخر محطة فى رحلة الملك بطرس لأوربا ومن هناك قرر العودة إلى البندقية ؛ وفى أثناء مروره بالنمسا عرج على دوق النمسا فى فيينا ليدعوه

---

(١) Machaut, p. 29 .

(٢) Machaut, pp. 29 - 30 .

(٣) Machaut, p. 30 .

(٤) Machaut, p. 30 - 31 ;Atiya, The Crusade, p. 335 .

(٥) Machaut, p. 35.

(٦) Machaut, p. 37.

(٧) Machaut, pp. 37-9.

(٨) Machaut, pp. 40 - 1.

(٩) Machaut, pp. 41 - 2.

للاشتراك فى حملته ؛ ولكنه لم يلق منه وعداً صريحًا ، فأمضى وقته مستمعًا بمزيد من الولائم وحصل على الكثير من الهدايا الثمينة [١].

وخلال عودته أصبح اقترابه من بحر الأدرياتيك معروفًا لدى جمهورية البندقية وذلك فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٣٦٤م / ٧٦٦هـ[٢] فبدأت الاستعدادات لاستقباله ودخل الملك بطرس البندقية فى ١١ نوفمبر ١٣٦٤م / ١٤ صفر ٧٦٦هـ[٣] فاستقبله الدوج ونبلاء البندقية عند وصوله إلى خارج المدينة [٤]. وعلى الرغم من التعاطف الذى أبداه شيلسى Celci الدوج الجديد تجاه القضية وما أظهره من دوافع أكبر من تلك التى كان يبديها سلفه دلفينو Delfino فإن حماسة البندقية بوجه عام إزاء الحملة لم تكن تخلو من أنانية [٥،٦]، فقد أثبت الجيش القبرسى نفعه لجمهورية البندقية فى قمع ثورة كريت التى استغرقت الفترة من سنة ١٣٦٣ إلى سنة ١٣٦٤م / ٧٦٥ إلى ٧٦٦هـ ضد حكم البنادقة [٧]، ويصح أيضًا أن يقدموا المزيد من الخدمات لما فيه مصلحة البنادقة فى الشرق . وخلال إقامة الملك بطرس فى البندقية ليضمن عون الجمهورية البحرى ، عمل أيضًا على إقرار السلام مع الجنويين ؛ وهكذا تجنب ما قد يعجل بوقوع كارثة لخططه الصليبية ولكى يضمن الحفاظ على سلامة جزيرته قبرس من أى اعتداء من جانب الجنوية [٨]. وقد كتب الملك بطرس من البندقية فى ١٦ مايو ١٣٦٥م إلى

---

(١) Machaut, pp. 44 - 6 .

(٢) Machaut, pp. 46 - 7 .

(٣) Machaut, p. 47 .

(٤) Machaut, Loc. cit.

(٥ ، ٦) Atiya, The Crusade, p. 336 .

(٧) انظر Jorga, Phil. de Méz., p. 203; Atiya, op. cit., p. 336

(٨) Makhairas, I, PP. 135 - 39 ; Strambaldi, pp. 60 - 2 ; Amadi, p. 413 .

هـذا ، ويـورد Makhairas, op. cit., I, p. 149. أن الملك بطرس قد أرسل سفينة إلى جنوة ليذيع اتفاقية السلام مع الجنوية ، ومن المحتمل أيضًا أن يستدعى الملك بطرس المزيد من سفن الجنوية للاشتراك فى الحملة ، وقد اصطحبت هذه السفينة ثلاث سفن أخرى وعادت إلى قبرس حيث أعلن مرة ثانية اتفاقية السلام فى نيقوسيا وفى فاماجوستا ، ثم توجهت هذه السفن إلى رودس استجابة لتعليمات الملك بطرس .

جبريل أدرنو Gabriele Admo دوق جنوة معربًا له عن سروره لإبرام المعاهدة ومشيراً إلى حملته الوشيكة الوقوع ضد المسلمين(١) .

وفى نهاية الشهر التالى ، صعد الملك وفرسانه وكل هؤلاء الذين انضموا إليه من مختلف الأقطار الأوربية إلى مراكب الأسطول المجهز فى البندقية وأبحروا منها بالطريق التجارى المعتاد إلى الشرق(٢) إلى أن وصلوا إلى جزيرة رودس فى شهر يوليو ، كما سنبين بالتفصيل فى موضعه فى الفصل الثالث .

هذا وفى الوقت الذى كان فيه الملك يتجول من طرف إلى آخر فى القارة الأوربية (٣)، بذل مؤيدوه الرئيسيون لحملته ، أوربان الخامس ، بطرس دى توماس وفيليب دى مزيير كل جهد لإرساء قواعد السلام بين الكاثوليك المتنازعين فى الغرب وتحويل الاهتمام االعالمى نحو قضية استعادة الأراضى المقدسة . ففى ٣١ مارس ١٣٦٣م / ٧٦٤هـ كتب البابا أوربان الخامس إلى يوحنا الثانى ملك فرنسا يمتدح فيه استيلاء الملك بطرس على أنطاليا ويؤكد فى الوقت نفسه الخطر الذى لايزال يهدد المملكة المسيحية من جانب الأتراك ويحث على القيام بالحرب الصليبية . وفى التاريخ نفسه أنفذ مبعوثًا خاصًا إلى مطران ريمز Rheims يسأله هو ومساعديه أن يدفعوا ضريبة العشور المعتادة المفروضة للكنيسة وأيضًا صكوك الغفران الكاملة لكل هؤلاء الذين سوف يتبعون الملك فى مشروعه الصليبى (٤). وأرسل البابا أوربان أيضًا خطابًا آخر فى ١٦ أبريل ١٣٦٣م / ٧٦٤هـ ملتمسًا من ملك نافار أن يعقد السلام مع صهره يوحنا الثانى وأيضًا مع ملك أراجون لكى يعفوا ما بينهم من خلافات للعمل على شن الحرب فى الشرق(٥). وأرسلت الخطابات فى ٢٥ مايو ١٣٦٣م / ٧٦٤هـ تدعو معظم أقطاب المملكة المسيحية للمشاركة فى الحملة الصليبية ، ومنهم إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وملوك انجلترا وهنغاريا (المجر) وبوهيميا ودوقات لوكسمبرج والنمسا وسكسونيا وبفاريا(٦).

---

(١) Mas-Latrie, dans : Atiya, The Crusade, p. 3 .

(٢) Atiya, The Crusade, p. 337 .

(٣) Jorga, Phil. de Méz., pp. 202 .

(٤) Atiya, The Crusade, P. 337 .

(٥) Atiya, op. cit., p. 338 .

(٦) Jorga, Phil. de Méz., pp. 169 - 70 and nos .

وفى الوقت نفسه طلب البابا من لورانزو شيسلى دوج البندقية تجهيز السفن اللازمة للحملة[١].

ولقد رأى البابا أوربان الخامس من جانبه فى الحملة الصليبية التى يعتزم الملك بطرس القيام بها فرصة كبيرة لكى يخلص فرنسا وإيطاليا من الجماعات الحرة ، ويضع حداً لتجولهم فى فرنسا وإيطاليا للسلب والنهب ، وفى الوقت نفسه يقوى من الجيوش المحاربة ضد المسلمين فى الشــرق [٢]. ففى ١٤ أبريل سنة ١٣٦٤م / ٧٦٥هـ كتب البابا إلى سفراء البابوية البورنوز Alboronz أسقف سابينا Sabina واندروين دى لاروش Androin de la Roche وكردينال سانت مرسيلوس St. Marcellus ، كتب إلى هؤلاء يلفت نظرهم إلى روبرت وود هــاوس Robert Woodhous مبعوث جماعة الإنجليز فى بيزا التى ترغب فى المشاركة فى الحملة وطالبا بجمع الأموال لهم من الأراضى الإيطالية[٣] . وبعد ثلاثة أيام أرسل أوربان رسالتين إلى لورانزو شيلسى دوج البندقية وجبريل أدرنو دوق جنوة يرجوهما تزويد هذه الجماعات بالسفن اللازمة لنقلها إلى الشرق ، وهكذا يخلص إيطاليا من عمليات السلب والنهب التى يقومون بها . وفى خطاب آخر مؤرخ فى ٢٠ أبريل ١٣٦٤م وموجه إلى توماس دى يوفــورد Thomas de Ufford ، وهو فارس وقائد لجماعة إنجليزية أخرى فى إيطاليا يمتدح فيها حماسته وغيرته على الصليب ، وفى الوقت نفسه يحض جماعته على السير على نهجه المثالى . وأوصى البابا الملكة جوانا ملكة نابلى بوليام دى لابول William de La Pole لورد قلعة إشبى الفارسى الذى تناول الصليب من يده شخصياً ، واقترح عليه الانضمام إلى الحملة الصليبية على رأس عدد كبير من الإنجليز من تسكانيا ، وكان معتزماً المرور خلال مملكتها فى طريقه إلى أوترانتو ليبحر منها ، وسألها البابا أن تمدهم بالمساعدة [٤].

وصدر مرسوم بابوى أيضاً فى ١٧ مايو ١٣٦٤م / ٧٦٥هـ يمنح فيه قائد وجماعة الإنجليز فى إيطاليا كل الامتيازات الخاصة بالمحاربين الصليبيين مع صكوك الغفران الكاملة .

---

(١) Atiya, Loc. cit.

(٢) Atiya, Th Crusade, p. 339.

والمقصود بالجماعات الحرة جماعات من المرتزقة .

(٣) Atiya, The Crusade, p. 338.

(٤) Atiya, The Crusade, pp. 338 - 39.

وبالإضافة إلى هذا ، كتب أوربان فى ٢٤ مايو من نفس السنة ثلاث رسائل إلى كونت فلانتيواز Conte de Valentinois وإلى رالف سيد لوبيل Ralph, Sire de Louppy وحاكم إمارة دوفين Dauphiné وإلى اميديو كونت سافوى Amedeo Count of Savoy ملتمسًا منهم تأمين الطريق لتوماس بوشان Thomas Beauchamp ، وإيرل ويرويك War-wick وجماعته الإنجليزية وهم فى طريقهم إلى الأرض المقدسة [١].

أما عن الداعية الكنسى الثانى للحرب المقدسة بطرس دى توماس الذى خلف الكاردينال تليراند بريجورد المندوب البابوى الذى مات قبل استيفاء هذا العمل ، ومعه صديق الملك بطرس الحميم – فيليب دى مزيير – مستشار مملكة قبرس – الذى فعل أيضًا الكثير للوصول بالحملة إلى نتيجة ناجحة – فمن الصعب أن ندرس دراسة تامة ذلك العمل الدبلوماسى الذى انجزه كل من توماس ومزيير أكبر دعاة الحرب الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى . فقد كان فيليب دى مزيير مستشار الملك موجوداً فى البندقية فى أوائل سنة ١٣٦٤م / ٧٦٥هـ لكى يتفاوض بشأن اتفاقية تتعلق بالمعدات البحرية للحملة نيابة عن ملكه[٢]. ويبدو أن اللحظة لم تكن مناسبة لمفاوضات من هذا النوع ، لأن البنادقة كان ينتابهم القلق نظراً للثورة القائمة فى كريت وقتها ، ولم يكونوا مستعدين للإنصات لأية خطة من المحتمل أن تثير المسلمين مثلما لم يكونوا مبالين بأية حركة ضد المسلمين [٣]. وقد زاد من الصعوبة التى واجهت مزيير هذه الظروف غير المواتية . فقد كتب الدوج فى ٢٨ يناير ١٣٦٤م عارضًا إرسال فرقة صغيرة مكونة من ألف رجل بشرط أن يتوجهوا أولاً إلى كريت لتأكيد القضاء التام على روح الثورة بين الأهالى [٤]. ويرجع الفضل إلى نفوذ بطرس دى توماس الذى كان له الأثر فى الدور الذى قام به دى مزيير لاستعادة الهدوء فى كنديا فكانت نتيجة هذه الجهود الناجحة من جانب دى مزيير أن عرض لورنزوشيلسى دفع نصف نفقات المعدات بعد تأكده من قمع ثورة كريت [٥].

---

(١) Atiya, The crusade, P. 339 .

(٢) Atiya, op. cit ., p. 340 .

(٣) Atiya, Loc. cit .

(٤) Mas Latrie, dans : Atiya, The Crusade, P. 340 .

(٥) Atiya, The Crusade, PP. 340 - 41 .

ولكن على الرغم من مجهودات البابا أوربان الخامس وبطرس دى توماس وفيليب دى مزيير فى إعداد الحملة ، إلا أنه لم ينجم عن هذا الجهد ماكان يتوقعه الملك بطرس طبقًا للوعود التى سبق وأن حصل عليها خلال رحلته فى أوربا . وكانت الفرص المتاحة للملك بطرس لكى يحشد الجنود فى الغرب تبدو فرصًا طيبة ، فقد أنهت هدنة بريتانى الموقعة فى سنة ١٣٦٠م والتى لحقت بها معاهدة كاليه المبرمة فى العام نفسه ، أنهت العداء القديم بين كل من انجلترا وفرنسا . فكان الملك بطرس يأمل على هذا فى أن يساعده النبلاء الذين شاركوا فى الحروب بين انجلترا وفرنسا فاعتادوا من ثم على حب القتال ، وأن يعينه أيضًا الجند المرتزقة وجماعاتهم ؛ ولكن عدم إستقرار السلام فى فرنسا عقب هدنة بريتانى ، واستنزاف موارد التاج الفرنسى المالية لم يكن مما يبشر بالنجاح . ومع أن الملك بطرس قد أمضى أكثر من سنتين فى الغرب يحشد الجنود ويرتب لحملته ، فمن المحتمل - كما يورد فيليب دى مزيير - أنه قد أصيب بخيبة الأمل فيما يتعلق بالاستجابة لدعوته[١] . ولقد أبحرت قواته أخيراً من البندقية فى شهر يونيو سنة ١٣٦٥م / شوال ٧٦٦هـ وتواعد هو على اللقاء فى جزيرة رودس مع الأسطول الذى يجلب إليه جنوده من قبرس .

هكذا كانت الظروف قبيل الحملة القبرسية على الإسكندرية . دعاة عديدون خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى / النصف الأول من القرن الثامن الهجرى يضعون الخطط والمشاريع ويؤلفون الكتب بقصد إحياء الفكرة الصليبية التى ماتت على الساحل الشامى فى أخريات القرن الثالث عشر ، ويدخلون عناصر جديدة على خططهم ومشاريعهم فرضتها الظروف ولم تكن واردة بشكل واضح ومحدد من قبل ، فى مقدمتها حصار مصر المملوكية اقتصاديًا بهدف افقارها وإجبارها على التسليم وبالتالى يسهل تحقيق الهدف الصليبى الذى فشلت حملات القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى تحقيقه . فضلاً عن العمل على نشر الكثلكة بين المسلمين والعمل بهمة على تكوين جبهة لاتينية مغولية ضد الشرق الأدنى الإسلامى ، الأمر الذى يسهل على أهل الغرب مهمتهم . ثم بروز قبرس على مسرح الأحداث، ودخولها كطرف أساس فيه ، مستغلة كل الظروف التى استجدت على المسرح تحقيقًا لمصالحها الاقتصادية فى المقام الأول ، وذلك تحت رداء من الدعاية الدينية الزائفة التى لم تعد تلقى

---

(١) Edbury, The Crusading Policy. p. 93 .

الاستجابة الكافية من الغرب بسبب مشاغله ومشاكله العديدة التى انغمس فيها انذاك ، وبسبب تشابك المصالح وتداخلها وتصارعها فيما بينها والتى بلغت درجة من التعقيد كان مؤشراً بما ستئول إليه حملة بطرس فى نهاية الأمر .

الفصل الثالث

الحملة منذ إقلاعها من البندقية

وحتى وصولها إلى مياه الإسكندرية

(٢٧يونيو - ٩ أكتوبر ١٣٦٥هـ / ٧ شوال ٧٦٦ - ٢١ المحرم ٧٦٧هـ)

إبحار الأسطول الصليبي من البندقية صبيحة ٢٧ يونيو ١٣٦٥م ، وتكتم وجهته ، وتخوف البندقية من ذلك - وصول الأسطول إلى رودس ، واستكمال الاستعدادات للحملة (يوليو - ٤ أكتوبر ١٣٦٥م) - الروايات التي أثيرت حول اختيار الإسكندرية هدفًا للحملة - مدى علم السلطات المملوكية في مصر بأخبار الحملة ووجهتها ، ورد الفعل لديها - إعلان الملك بطرس رسميًا عن وجهة الحملة ، والآثار المترتبة على ذلك - تاريخ وصول الحملة إلى الإسكندرية ، والروايات التي قامت حوله - المسرح الجغرافي لمدينة الإسكندرية .

غادر الملك بطرس مدينة البندقية - كما ذكرنا في آخر الفصل السابق - صبيحة يوم ٢٧ يونيه ١٣٦٥م[١] بعد أن أصدر أمره إلى رجال الأسطول بالصعود إلى السفن في يوم ٢٢

---

(١) يوافق يوم الجمعة ، انظر : محمد مختار (اللواء) : كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية ، الطبعة الأولى بالمطبعة الميرية ببولاق مصر المحمية ، ١٣١١هـ ، ص ٣٨٣ .

يونيه ، أو - فى قول آخر - فى يوم ١٩ يونيه ، ثم وصلت إليه رسالة من البابا إربان الخامس (١٣٦٢ - ١٣٧٠م) فى الشهر التالى مؤرخةً ى ١٩ منه مباركًا ومهنئًا ، ومتمنيًا النصر له لمن معه من المقاتلين ممن حشدهم لهذا الغرض من مختلف البلاد التى قام بزيارتها(١) .

إلا أن أسطول الملك فى إبحاره صوب رودس كان واقعًا تحت مراقبة من جانب سفن البندقية للتعرف على وجهته الحقيقية التى تكتمها بطرس كتمانًا تامًا وبعد أن أحاط هدفه بنطاق من السرية المطلقة ، فلم يعلمه جنود الحملة خاصة البنادقة الذين التمس الملك إزاءهم كل وسيلة لكى يخفى عنهم نواياه الحقيقية ، وكانت التعليمات الصادرة من البندقية إلى قادتها المشاركين فى هذه الحملة تعليمات قاطعة فى هذا الصدد أى بالتعرف على هدف الحملة(٢). فقد أمرهم دوج البندقية بمصاحبة الصليبيين كمساعدين لهم فى الظاهر ، ولكنهم فى باطن الأمر يعملون كعيون له للكشف عن نوايا الملك بطرس ومن ثم إخطاره بها (٣)، وهو ما يفسر تلك المخاوف التى انتابت جمهورية البندقية خاصة وأن البندقية اشترطت على الملك بأن يلتزم بما تعهد به من عدم التعرض لبلاد السلطان المملوكى قبل نهاية شهر أكتوبر(٤) وألا تطأ أقدام رجاله أرض مصر قبل هذا التاريخ أى بعد أن تنتهى مراكبهم من وسق المتاجر من ثغر الإسكندرية (٥) .

---

(١) Jorga, Phil, de Méz., pp. 227 and n. 2 ؛ وقارن : Machaut, p. 49 ، فهو يحدد شهر مايو من السنة المذكورة تاريخًا لإقلاع بطرس بأسطوله من البندقية ، مع إغفال تحديد اليوم أيضًا :

Et sén parti en moys de May
Si come laissé dire le m'ay

وهو خطأ جنح إليه " ماشو " فيما يبدو لضرورة السجع ، وهو الملاحظ عنه فى أكثر من موضع من أشعاره. وقد تنبه ناشر " ماشو " إلى هذا الخطأ وصوبه فى الهامش الأيمن من الصفحة المذكورة ، ثم فى الحاشية رقم (١٣) الواقعة فى (P.279) ، مستندًا فى ذلك على وثائق البندقية نفسها التى تحدد يوم ٢٧ يونيه ١٣٦٥م تاريخًا لإقلاع ملك قبرس بأسطوله فى صبيحة ذلك اليوم فيما كتبه دوج البندقية إلى قائد بحريته فى خليج البندقية ، مكلفًا إياه بالعمل على اللحاق بأسطول الملك حيثما يتوجه . وسوف نعود إلى الإشارة إلى هذا التكليف وأسبابه فى موضعه بالمتن هنا بعد قليل .

(٢) Jorga, Phil. de Méz., p. 277 and n.4 .

(٣) Atiya, The Crusade, p. 347 .

(٤) Jorga, op. cit., Loc . cit .

(٥) عفاف سيد صبرة ، العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠ - ١٤٠٠م ، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٣ ، ص ٦٨ .

ومن هنا أصدرت البندقية أمرها فى يوم ٢٧ يونيه ١٣٦٥ - أى فى اليوم ذاته الذى أقلع فيه أسطول ملك قبرس[١] - إلى قادة المراكب فى خليج البندقية برفع التقارير اليومية عن الاتجاه الذى يواصل فيه أسطول الملك مسيره ، بل لقد تعدى هذا الأمر إلى ممثلى البندقية خارج نطاق خليجها فى بعض جزر البحر المتوسط مثل كريت لمتابعة هذه المهمة ، حتى لقد عمدت فى بدايات هذه المراقبة وفور أن رسا الملك بأسطوله فى مياه رودس ، عمدت إحدى سفن الحراسة إلى التوجه إلى البندقية تسوق الخبر ؛ وكلفت البندقية أيضًا قطعًا أخرى فى مياه رودس بمراقبة ما تقوم به مراكب الملك بطرس من عمليات ؛ وتابعت البندقية إصدار أوامرها ، فأنفذت بها على دفعتين إلى ممثليها فى جزيرة كريت بأن يقوموا بإبلاغ المسلمين بأن الملك بطرس فى حالة شنه الهجوم عليهم فإن جمهورية البندقية تنفى عن نفسها أية مشاركة فى هذه الحملة التى تجهل عنها كل شىء جهلاً تامًا[٢] .

على كل حال ، أقلع أسطول الملك بطرس - فى التاريخ الذى ذكرناه - يصحبه مجموعة من مشاهير الفرسان والرجال من البلدان المختلفة ، من فرنسيين وأبرزهم برسفال الكولونى ، وجان دى ريمس Jean de Reims الذى روى لماشو وقائع الحملة بعد رجوعه إلى فرنسا [٣]؛ وثمانمائة مقاتل من فرسان الإنجليز انضموا أيضًا إلى جيش الملك بطرس ومن أشهرهم سيد جراى Seigneur de Grey المعروف باسم لورد جراى دى كودنور Lord Grey de Codnor، وكان من بين أوائل من اقتحموا الإسكندرية رافعًا علم الكنيسة ، وكان هؤلاء الإنجليز - فيما يذكره بطرس دى توماس Pierre de Thomas - من أكبر الفرق عددًا من بين الفرق الأجنبية؛ وطائفة من الفرسان التيوتون ممن هرعوا ملبين نداء الملك بفضل توسط فيليب دى مزيير لديهم فيما يبدو ، وكان هؤلاء التيوتون من أكثر الجماعات تزمتًا وأشهرهم فى التزام النظام ، وهم من أوائل من عارضوا رحيل الصليبيين عن الإسكندرية بعد الاستيلاء عليها ؛ هذا بالإضافة إلى النبلاء الذين وفدوا من سائر أنحاء ألمانيا وشاركوا أيضًا بدور فى الحملة ؛ وكذلك بعض المحاربين من إيطاليا ؛ وشارك بالمثل اثنان من النبلاء البيزنطيين [٤].

---

(١) انظر هنا ما جاء منذ قليل فى ص١٢٤ الحاشية رقم (٢) ، ولكن قارن Atiya, The Crusade, p. 347 n. 1 .

(٢) Jorga, Phil. de Méz., p. 277 ؛ ولكن انظر ما جاء هنا فيما بعد بالفصل الخامس ، ص ١٢٤ ، ٢٠٢-٢٠٣ ، ٢٠٤ وصفحات أخرى .

(٣) انظر ما أدرجه Machaut, pp. 179 - 80 من معلومات استقاها من هذا المصدر .

(٤) Jorga, Phil. de Méz., pp. 278, 280 et n. 2 .

والملاحظ أن الملك بطرس لم يتوقف فى جزيرة كريت إذ لم يكن ثمة ما يدعوه إلى أن يرسو بمراكبه فى مياهها[١] ، ولكنه اتخذ طريقة مباشرة إلى جزيرة كاندى Candie [٢] ، فتوقف فيها بضعة أيام طلبًا . للراحة[٣] ثم غادرها مبحراً ليلاً ونهاراً بلا كلل حتى وصل إلى جزيرة رودس[٤] فى شهر يوليو بعد رحلة بحرية موفقة[٥] .

---

(١) Jorga, op. cit., p. 281 .

(٢) Machaut, p. 49 :

A Son Partir, Lui et sa gent,
S'en alerent par mer nagent,
Tiut droit en L'ille de Candie

و " كاندى " إحدى جزر البحر المتوسط مما يعرف بها " دى ماس لاترى " فى : Machaut, p. 312;
ولم يحدد موضعها ، ويبدو أنها بهذا التعريف إحدى الجزر الجنوبية فى الأرخبيل ، ويبدو أيضًا أنها من الصغر بحيث لا تدعو إلى ذكر اسمها فى الخرائط ، إذ لم نعثر عليها فى :
Calmett (Joseph), Atlas Historique, II : Le Moyen Age, Paris 1941, Cart n, XVII ;
وهى على كل حال - حسب تحديدها بأنها جزيرة كما فى كلمات " ماشو " وتعريف " دى ماس لاترى " بها - ليست " كاندى " عاصمة جزيرة كريت والمعروفة فى المصادر العربية باسم " الخندق " أو " قندية " ، انظر فى هذا : لويس (أرشيبالد) ، القوى البحرية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (بدون تاريخ) ص ١٦٩ ، وهـ بها ، وهى تعرف حاليًا باسم " كندية " ، وفى اليونانية Herakien . راجع : أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية ١٩٦٨ ، ص ٢٥٤ . فمن المعقول على هذا أن يكون المقصود هو الجزيرة وليس عاصمة كريت ، إذ أن هذا يتفق أيضًا وما أتى به " يورجا " وأدرجناه هنا فى أول هذه الفقرة من عدم توقف الملك بطرس فى جزيرة كريت .

(٣) انظر : De Mas Letrie, dans : Machaut. P. 279 n. 14 .

(٤) Machaut, p. 52 :

Or S'en va le roy et sa gent,
Nuit et jour par la mer nagent,
N'onques n'arresta li rois nobles
Tant qu'il vint en l'ille de Rodes.

(٥) لم تتضمن كل المصادر والمراجع الى بين أيدينا إشارة صريحة إلى هذا التاريخ الذى ينفرد به Jorga ولم يصرح بمصدره فى الموضع الذى ذكرناه عنه منذ قليل (P.281.) ، ولكنه يشير فى (P.28, n. 6.) إلى بعض مصادره الإيطالية التى تحدد وجود بطرس فى جزيرة رودس بداية من شهر يوليو : (nel mesa di Lu-glio) . والملاحظ أيضًا أن النصين اللذين أوردناهما من " ماشو " فى الحاشية رقم (٢٢) والحاشية رقم=

وكان الملك بطرس قبل مغادرته البندقية قد بعث بأوامره إلى أخيه نائبه فى قبرس لإعداد وتسليح جميع السفن الراسية فى دار الصناعة بفاماجوستا[١] وإنشاء مراكب جديدة ، وكل ما يمكن جمعه من سفن أخرى توجد فى الجزيرة ، مع بذل غاية الجهد فى ذلك ، حتى إذا وصل إلى رودس يجد كل شىء على أهبة الاستعداد ، وأمره أيضًا بإعداد المؤن اللازمة للحملة ، ثم توجيه كل ذلك إلى رودس بعد إتمامه انتظاراً لوصول الملك[٢] .

= (٢٤) يفيدان ضمنًا تحديد هذا التاريخ ، مما حدا بناشره " دى ماس لاترى " إلى أن يثبت فى الهامش الأيسر من الصفحة الخاصة بالنص الثانى ما يدل على وقوع الأحداث بعد مغادرة الملك بطرس البندقية خلال شهرى يونيه ويوليو من سنة ١٣٦٥ ، وقارن أيضًا المصدر القريب من المعاصرة ويعول عليه " يورجا " كثيراً : Makhairas, PP. 145, 147 .

وقارن أيضًا من المصادر المتأخرة :

Amadi (François), Chronique d'Amadi, Puliéa par René de Mas Latrie, Paris 1891, p. 414; Strambaldi (Diamède), Chronique de Strambaldi, Puliée par René de Mas Latir, Paris 1893, PP. 65 - 6 .

(١) Famagouste أو Famagusta ، هى (الماغوصة) فى المصادر العربية ؛ راجع : النويرى السكندرى : الإلمام ، ١ / ١١٠ و ٩٨/٣ .

(٢) Makhairas, P. 145 .

وعن الإشارة التى وردت فى المتن الخاصة ببناء سفن جديدة ، وهو ما لم يرد عند " مخيراس " ، راجع : Amadi, Loc. Cit; ؛ ولكن انظر أيضًا : Jorga, Phil. de Mez., P. 281 .

ولكن يلاحظ أن " ماشو " - المصدر المعاصر والسابق على " مخيراس " يخالف الأخير فيما يتعلق بالمكان الذى بعث منه الملك بطرس إلى أخيه نائبه فى قبرس وتاريخ رسالته إليه لكى يقوم بإعداد أسطول قبرسى ولينضم إليه فى رودس . فالمشاهد أن " ماشو " يحدد فى روايته جزيرة رودس مكانًا أنفذ منه الملك بطرس برسالته إلى أخيه فى هذا الشأن ، وذلك فى خلال شهر يوليو أى بعد وصوله إلى جزيرة رودس : انظر : Machaut, p. 52 .

فهو يشير هنا إلى أن الملك قد أمضى شهرين بكمالهما فى رودس لكى يحشد المتطوعين من هناك خاصة مقدمى الإسبتارية وفرسانهم ، ثم يستطرد إلى إرسال الملك البعوث إلى قبرس بشأن إعداد السفن ؛ فقد أورد " ماشو " بعد أن تكلم على وصول الملك بطرس إلى جزيرة رودس :

Lá demoura a ii. mois entiers,
Et on le vit moult volentiers,
Li maistres par especial,
Et les frees de l'Ospital
....
Lie roy ordena ses messassages,

وتم بالفعل تجهيز السفن فى جزيرة قبرس ، فأنفذ نائب الملك فى قبرس إلى أخيه بطرس - وكان لايزال موجوداً فى البندقية وقبل مغادرته إياها - يعلمه بإنجاز إعداد الأسطول ، فكان لذلك رنة فرح فى نفس الملك (١).

= Preudommes diligens et sages,
Où raison et bonne foy a ;
Et en Chipre les envoia.
Au partir leur dit doucement
At moult tres amiablement :
" Vous irez en Chypre; ordenez
" Que nous aiens planté de nez, "

ثم يسترسل " ماشو " بعد ذلك فيتكلم عن بقية ما أمر به الملك من تزويد الأسطول بالأزواد والأسلحة ، انظر فيه : pp. 52 - 3 ؛ ثم يستطرد بعد هذا مسجلاً فى روايته تلك الاستعدادات التى تأهبوا لها لتلبية طلبات الملك ، ثم وصول الأسطول القبرسى إلى رودس ؛ انظر فيه pp. 54 - 6 .

وعلى الرغم من أن الاستناد إلى " ماشو " يعتبر أساسيًا فى الموضوع ، إلا أننا - كما أوردنا بالمتن - اعتمدنا كلام " مخيراس " لأنه يتفق وما أدرجه " يورجا " الذى يستعين أيضًا بـ " مخيراس " ، ولكنه يؤسس روايته وبشكل جوهرى - على مدى صفحات كتابه عن " فيليب دى مزيير " - على ما ينقله من " بطرس دى توماس " صاحب " سيرة فيليب دى مزيير " ، خصوصًا فيما يتعلق برسالة الملك وهو فى البندقية وقبل رحيله عنها فى يوم ٢٧ يونيه ١٣٦٥ ، أى قبل إنفاذ الملك برسالته المشار إليها ، بل وعند وصول رد أخيه إليه كما سنشير إليه فى الفقرة التالية .

أما " ماشو " فالكثير من معلوماته - كما هو معروف - مستمد من الروايات الشفوية التى زوده بها بعض فرسان الحملة من الفرنسيين بعد رجوعهم إلى وطنهم وليس ثمة سبيل إلى التوفيق بين روايته ورواية "مخيراس" أو بالأحرى رواية " يورجا " المنقولة نقلاً صريحًا من " بطرس دى توماس " إلا بترجيح أن " ماشو " قد اختلطت عنده الرواية التى يستقيها من مصادره الشفوية ، أو أنه يسوق رواية أخرى لبعث آخر للملك بطرس وهو فى رودس إلى أخيه نائبه الذى - كما سيرد بالمتن هنا بعد قليل - لم يصل بالأسطول القبرسى قبل يوم ٢٥ أغسطس ، مع أنه غادر قبرس فى يوم ٢٥ يونيه ، أى أنه استغرق شهراً للوصول إلى رودس . ويفسر هذا التأخير - كما سنشير إليه أيضًا بالمتن - ما لحق نائب الملك من مرض وهو فى طريقه إلى رودس اضطره إلى الرجوع بسفينته إلى قبرس والاتجاه براً إلى نقوسيا للعلاج ، وعدم توجه قطع الأسطول فى إثر ذلك مباشرة إلى رودس لأسباب سنسوقها ، ومن ثم أرسل الملك بطرس مرة أخرى بمبعوثيه يتعجل وصول الأسطول.

(١) Makhairas, p. 145 .

ثم غادر نائب الملك جزيرة قبرس قائداً للأسطول المتوجه من فاماجوستا نحو رودس باستدعاء الملك ، وذلك في يوم ٢٥ يونيه سنة ١٣٦٥ ، ولكن الأسطول وصل إليها - على كل حال - متأخراً وبعد وصول الملك إليها[١] - كما سنرى بعد قليل - إذ لم يكد يشرع فى إبحاره حتى توقف الأسطول فى أليكى[٢] Aliki (لارنكا Larnaka)، فقد أصيب نائب الملك بالمرض مما اضطره إلى أن يقطع رحلته ويعود إلى قبرس فى سفينته ويتوجه إلى العاصمة نيقوسيا[٣] Nicosia ؛ وتابع الأسطول طريقه مقلعًا من أليكى فبلغ ميلى[٤] Myli فشُحنت منها الخيول فى السفن ، إلا أن رجال الأسطول لما طالت عليهم غيبة نائب الملك ،

---

(١) Makhairas, pp. 145 - 147

وراجع فى الصفحة الأخيرة (147) قائمة تتضمن أسماء مشاهير الرجال الذين اصطحبهم نائب الملك معه.

(٢) هى كما وضعناها بين قوسين فى المتن (لارنكا) . وقد علق عليها ناشر " مخيراس " فى أكثر من موضع ، فأليكى هى الاسم الذى كان يطلق فى العصور الوسطى على لارنكا ، بسبب قربها من مكان يستخرج منه الملح يعرف ببحيرة الملح إلى الغرب منها . ولارنكا القديمة هى المدينة ، وميناؤها يعرف بأليكى ، إذ تقع لارنكا فى الداخل فهى ليست على الساحل ، ويتصل بها الميناء فى البحر . وقد أطلق عليها عدة أسماء مختلفة ، هى : Kition و Larnaka و Aliki و Salinca و Tuzla - وهو الاسم التركى لـ Salinea - ، والملحة memlcha ، وهو الاسم الذى أطلقه العرب عليها ويرد ذكره عند حاجى خليفة ، ومن أسمائها أيضًا : Marina أى الفُرضة ، و Scala أى المرفأ ، وكل هذا يعنى حرفيًا المكان نفسه ؛ انظر :

Dawkins, in : Makhairas, vol, II, pp. 50 (n0tes), 311 and 314 - 15 (index II) .

وقد ذكرها " يورجا " بالاسم : Salenes كما هى فى الفرنسية ، راجع: Jorga, Phil. deMéz., p. 282:

ويبدو أن أليكى هى (الاتبيك) كما وردت محرفة فى : إلمام النويرى السكندرى : ٣ / ٩٩ فيما يرجع ناشر الإلمام فى هـ (١) بالصفحة المذكورة . وربما كان هذا هو تحريف التحريف كما فى نسخة الهند من مخطوطة الإلمام (لوحة ١١٨أ) عن أقرب رسم لكلمة (الأليك).

أما (الملحة) ، فقد وردت برسم (الملاحة) فى كلام النويرى السكندرى الإلمام ، ٩٨/٣ .

(٣) أو Nicosie، وهو الاسم الحديث للعاصمة القبرسية Lekosia ، انظر : Dawkins, in : Mikhairas, vol. II, p. 315 (indexII) وهى المعروفة فى المصادر العربية باسم (الأفقسية) ، وورد ذكرها فى : إلمام النويرى ، ١ / ١٤٠ و ٣ / ٩٩ .

(٤) أو the Mills ، وهى مرسى أو ميناء ، غير أنه يصعب تحديد موقعها فهو مجهول ، ولكن يبدو أنها كانت تقع فى الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة القبرسية . ومن ناحية أخرى ، فإن " دى ماس لاترى " فى حاشية له على " سترامبالدى " يذهب - بلا سبب وجيه - إلى أن موضعها كان على الساحل الشمالى من الجزيرة ؛ انظر فى كل ذلك تعليقات ناشر " مخيراس " ، فى : Makhairas,Vol,II,pp. 101(notes),315 (indexii). = .

واصلوا سيرهم – بعد أن كانوا سيروا مع سفينة النائب ثلاث سفن أخرى – فى اتجاه رودس ؛ أما نائب الملك ، الذى لم تتحسن صحته وإنما ازدادت سوءاً ، فقد أمر السفن الأربع المذكورة بالإقلاع إلى رودس [١]. فلما كان يوم ٢٥ أغسطس سنة ١٣٦٥/ ٧ ذى الحجة ٧٦٦هـ وصل الأسطول القبرسى إلى رودس فاستقبله الملك بسرور زائد [٢]، وأشاع الحماسة البالغة فى نفوس رجاله الذين أبدوا رغبتهم فى حمل السلاح لمقاتلة المسلمين ممن كانوا لا يساوون – فى تقديرهم – مقدار أو ثمن حبتين من البندق [٣].

وهكذا انضم الأسطول القبرسى إلى أسطول الملك الموجود فى رودس [٤]، فاجتمع لديه الجنود والمعدات والسفن ، غير من انضاف إلى جيشه وأسطوله من فرسان الاسبتارية وبعدة

= ونزيد هنا على ما ذكره ناشر " مخيراس " إلى أن " دى ماس لاترى " أضاف فى حاشيته ما جاء به عن هذا الموضع تحت اسم Li Mollini – بالإيطالية – ومن أنه كان أحد مرافىء السفن على الساحل الشرقى لآسيا الصغرى ، انظر : Strambaldi, p. 46 n. 13 .

(١) Makhairas, p. 147 .

(٢) op. cit., p. 149 .

(٣) Machaut, p. 56 :

Le Soudan ne prisent ii nois

ويكشف هذا القول عن نظرة أهل الغرب اللاتينى إلى المسلمين التى كانت تتسم بالتزمت والكراهية . ولكن قارن :; Jorga, Phil. de Méz., p. 281

فهو هنا يستأنس بماشو – فى الصفحة التى ذكرناها عنه – فيما يتعلق بتلك المشاعر التى انتابت رجال الملك ، إلا أنه يورد وصفها عند كلامه على ما بعثه الملك بطرس من أوامر وهو فى البندقية إلى أخيه نائبه فى قبرس لتجهيز الأسطول القبرسى ، وهو ما لايوافق نص ماشو .

(٤) Machaut, p. 56 .

وقد أثبت أيضاً سترامبالدى التاريخ المذكور فى المتن هنا ، وأشار إلى انضمام الأسطولين فى مياه رودس، وما انتاب ملك قبرس من سرور ؛ انظر : : Strambaldi, p. 66

((Et a di agosto 1365 de Christo
gionsero a Rhodi tutta l'armda; et
Vwd ndola, il re hebbe grande allegressa))

أما " أمادى " ، ففى كلامه خلط واضح ، فهو يحدد يوم ٢٥ أغسطس تاريخاً لوصول الملك بطرس نفسه إلى جزيرة رودس ؛ راجع : ((... et a di 25 avosto, venne il re a Rhodi)) ; Amadi, p. 414 .

ولكن قارن أيضاً : عاشور ، قبرس ، ص ٥٨ .

من سفنهم بالجزيرة [(١)]، فبلغ عدد رجاله عشرة آلاف ، غير ألف فارس ، وغير الرماة والمنجنيقية ، وأربعة آلاف من الخيالة ، بالإضافة إلى المؤن والأقوات والآلات بما لايزيد عليه[(٢)]، والكل فى انتظار إشارة البدء بالإقلاع فى أسطول يزيد على مائة سفينة[(٣)] . وهكذا ، تمت الاستعدادات لهذه الحملة الصليبية فى خلال شهر سبتمبر من عام ١٣٦٥م[(٤)] / المحرم من عام ٧٦٧هـ .

وعقب تمام هذه الاستعدادات ، أعلن الملك بطرس فى جيشه عزمه على الرحيل من رودس من غير أن يفصح عن هدفه [(٥)]. واجتمع بخواصه من كبار رجال الحملة لتحديد وجهتها[(٦)] ، واستطلع رأى حاجبه برسفال الكولونى ، فسأله أن يدله على أنسب المواضع التى ينصحه بأن يشن منها هجومه على المسلمين ، نظراً لسابق زيارته لبلاد المسلمين فى كل من الشام ومصر ؛ فأشار عليه بمهاجمة الإسكندرية خاصة فى يوم جمعة ، وشرح له الأسباب التى تحدوه إلى اختيار هذه المدينة [(٧)]؛ وهو ما قمنا باستعراضه مفصلاً فى الفصل السابق عن الأسباب الحقيقية وراء هذا الاختيار [(٨)].

وقد تردد الملك بطرس بعد سماعه رأى حاجبه ، وأبدى تخوفه من مهاجمة مثل هذه المدينة الكبيرة الحصينة وأهلها فى مائة ألف نسمة ، وهم فى هذه القلة من المقاتلين[(٩)]؛ إلا أنه اقتنع

---

(١) Machaut, p. 59 ; Makhairas, pp. 149, 151 .

(٢) De Méziéres, Vita patri, dans: Jorga, Phil. de Méz., P. 383.

ويقترب هذا الرقم لرجال الحملة فى مجموعه مما ذكره النويرى السكندرى : الإلمام ، ٣٠٤/٣ ، فهو يقول: (وكانت عدة الفرنج - عل ما قيل - ستة عشر ألفًا)

(٣) De Méziéres, Vita, dans : Jorga, loc. cit .

وسوف نقوم بعرض روايات القدامى من معاصرين ومتأخرين واختلافهم حول عدد مراكب أسطول الملك بطرس الذى غادر به جزيرة رودس ، وذلك فى موضعه عند الكلام على وصول الملك بطرس بأسطوله إلى ميناء الإسكندرية .

(٤) Atiya, The Crusade, p. 345 .

(٥) Machaut, p. 59 .

(٦) Jorga, Phil. de Méz., p. 284 .

(٧) Machaut, PP. 59 - 63 .

(٨) راجع فيه : ص ١٤٣ - ١٤٧ .

(٩) Machaut, p. 63 ، ولكن قارن ما أتينا به هنا ، ص٨٠ -٨١.

فى نهاية الأمر ، واختار يوم الغد[١] من هذا الاجتماع موعداً للتوجه صوب الإسكندرية ، على أن يتم التظاهر طوال الطريق بأنهم فى سبيلهم إلى جزيرة قبرس - وهى ليست غايتهم - حتى لا يفطن الأعداء إلى قدومهم[٢] . ثم بين لهم الملك بأن واجبهم يلزمهم بأن يقوموا بشن الهجوم على من انتزع منه حقه فى ميراثه[٣] ولايزال فى حوزتهم ، وإذا كان على المرء أن يخوض غمار المعركة ، فعليه توجيه الضربة إلى رأس الحية[٤]، وهكذا تم الأمر ، وانعقد العزم ، على توجيه الضربة إلى الإسكندرية نفسها [٥].

ونقرن هنا باقتناع الملك بطرس بما أغراه به حاجبه برسفال الكولونى من اختيار الإسكندرية هدفًا لحملته ، تلك الأسباب السبعة التى أوردها المؤرخ المصرى المعاصر والشاهد لوقائع الحملة

---

(١) من المستبعد - فى رأينا - أن يحدد الملك بطرس بين يوم وليلة وجهة الحملة بناءً على استشارة سريعة كما يذهب " ماشو " ، بل لابد له من دراسة طويلة ومتأنية لكى يشرع فى انجاز مثل هذا العمل الضخم بمهاجمة مدينة كبيرة وحصينة مثل الإسكندرية ، ولابد أن تستند هذه الدراسة على معلومات تتعلق بالأحوال الداخلية فى مصر وفى الإسكندرية على وجه التحديد . ومن البديهى - على هذا - أن يبث الملك عيونه وجواسيسه فى مصر ليزودوه بالأخبار والمعلومات عن أحوال الإسكندرية ونقط الضعف والقوة فيها ولتبصيره بالأحوال العامة فى مصر ، وهو ما يؤكده النويرى السكندرى فى عدة مواضع عمن ألقى القبض عليه من جواسيس الملك بطرس ؛ راجع : مخطوطة الإلمام (نسخة الهند) ، لوحة ٢٢١ أ - ٢٢١ ب ، ٢٢٤أ - ٢٢٤ ب وهى نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع .

وبالإضافة إلى هذا ، فمن المنطقى أن نردد أن الملك بطرس كان مطلعًا على مشاريع الدعاة - من أمثال مارينوسانودو - وضرورة القضاء على دولة المماليك أولاً ليتسنى لهم استرجاع بيت المقدس . فقد كان مصدر قوة المماليك فى ثرواتهم الطائلة الى يعود أكبر جزء منها إلى ما يفرضونه من رسوم على البضائع التى تمر من الشرق إلى الغرب وبالعكس من خلال مدينة الإسكندرية أكبر ميناء وأهم مركز تجارى فى دولتهم ، ولكن راجع ما فات هنا من قبل فى الفصل الأول ، ص ٩١ - ٩٢ وفى الفصل الثانى ، ص ١٤٤ .

(٢) Machaut, Loc. cit.:

" Nous penrons demain nostr voie
Vers Alexandre; Et toute voie,
Nous ferons semblance de traire
En Chipre, qui est le contraire;
Ne puist estre nostre venue"

(٣) المقصود : مملكة بيت المقدس الصليبية .

(٤) De Méziéres, Vite, dans : Jorga, Phili. de Méz., p. 284 .

(٥) Jorga (Nicolas), Histoire des Croisaides, Paris 1924, p. 189 .

فى بدايتها فى هذا الصدد ، وهو ما كنا فصلنا الكلام عليه فى موضع سابق [١]. فكل من تعليلات النويرى السكندرى وتوضيحات برسفال الكولونى تمدنا بصورة شبه متكاملة عن سبب اختيار الملك بطرس لمدينة الإسكندرية غرضًا لحملته الصليبية . هذا إلى جانب ما سبق أن ذكرناه من تحليلات خاصة بهذا الهدف .

إلا أن ما اتفق عليه الملك مع أقطابه كان يجب - كما أشرنا - أن يظل فى طى الكتمان . ومن هنا بادر الملك بطرس باتخاذ الإجراءات والاحتياطات الكفيلة بمنع تسرب أخبار الحملة وهدفها إلى المسلمين ، خاصة بين الجنود الإيطاليين المشاركين فيها إذ انعدمت ثقته بهم [٢]، وخوفًا من أن يفشوا سر مقصده بأن يبعثوا بتحذير إلى السلطان المملوكى فى مصر عن هدف الحملة نظير امتيازات تعود عليهم بالأرباح الوافرة بتجارتهم مع مصر ؛ ولذا عمد الملك عند دراسة خطة الحملة مع صفوة ثقاته وناصحيه - من أمثال بطرس دى توماس وفيليب دى مزيير - عمد إلى أن تظل هذه الخطة فى طى الكتمان إلى أن يَعُد الصليبيون فى الاتجاه الصحيح بحرًا نحو الإسكندرية[٣] ؛ ويبرر كل هذا تلك السياسة التى اتبعتها البندقية إزاءه وفيما أصدرته من تعليمات لتسقط أخبار مسير أسطوله بعد مغادرته البندقية ؛ وهو ما أتينا بتفاصيله فى بدايات هذا الفصل .

فكان أول ما اتخذه الملك بطرس من احتياطات ، أن بعث رسولاً منه إلى أخيه النائب فى قبرس يطلب منه أن يمنع أية سفينة من مغادرة الجزيرة إلى بلاد الشام حتى يظل أمر الحملة سرًا مكتومًا وحتى لا يتنبه القوم هناك إلى الغرض من رحلته المرتقبة ، ثم زاد التكتم والتمويه - ليصعب إطلاع أفراد الحملة فى رودس على جلية الأمر - بأن أذاع المندوب البابوى، بطرس دى توماس - بأن الحملة تستهدف الشام نفسه [٤].

وعلى الرغم مما أذاعه المندوب البابوى ، فقد انتشرت الشائعات واختلفت الظنون حول هدف الحملة بين أفراد جيش الملك ، بل أن الغالبية العظمى من قادة الجيش من ذوى الرتب الرفيعة

---

(١) راجع هنا : الفصل الثانى ، ص ١١٠ - ١١١.

(٢) عاشور : قبرس ، ص ٦٠ .

(٣) Atiya, The Crusade, PP. 345, 347 .

(٤) Makhairas, P. 151 ؛ ولكن انظر أيضًا : عاشور ، قبرس ، ص ٦٠ .

ظلوا على جهل تام بوجهة الحملة ، ولم يحاول الملك بطرس وبطرس دى توماس ومستشار قبرس - فيليب دى مزيير - التصدى إلى كل التكهنات المتضاربة ، طالما بقى الأسطول مرسيًا فى مياه رودس[1] .

وعلى الرغم أيضًا من كل هذا التكتم وهذه السرية ، فإن أخبار الحملة وتجهيزات الملك بطرس لها ، والأخبار عن رحلته إلى الدول الأوربية ، والمغزى من وراء هذه الرحلة ، والأنباء عن رودس واتخاذها قاعدة لأسطول الحملة ، كل ذلك لم يكن خافيًا على أهل ثغر الإسكندرية والمسئولين فى القاهرة ، خاصة ما كان من تجمع أسطول الملك فى جزيرة رودس . ولا نجد فى كل ما بين أيدينا من مصادر معاصرة ومتأخرة من ذكرٍ لهذه الاستعدادات والغرض منها ووصول أخبارها إلى مصر ، سوى ما أورده كل من النويرى السكندرى والمقريزى . وقد اكتفى المقريزى من كل ذلك بعبارة مقتضبة يعلق فيها على التهاون من جانب المسئولين فى القاهرة عندما وصلتهم الأخبار قبل الواقعة نفسها ببضعة أشهر ، فلم يقع الخبر منهم موقع التصديق ، حتى إن السلطان الأشرف شعبان - وقد بلغه وهو فى سرياقوس نبأ الواقعة - طيّر بالخبر إلى يلبغا الأتابك فى القاهرة - وكان قد خرج متصيداً -لتفحص الخبر والتثبت منه « فتوهم أن تكون مكيدة يُكاد بها ، فبادر ودخل داره خارج القاهرة »[2]. ويستطرد المقريزى مبينًا بداية الاستعدادات لمواجهة الموقف ، إلا أنه يبادر فيقول : " فقدّر الله - تعالى - فى ذلك أن أهل الثغر كان قد بلغهم منذ أشهر اهتمام الفرنج بغزوهم ، فكتب بذلك الأمير صلاح الدين خليل ابن عرام - متولى الثغر - إلى السلطان والأمير يلبغا ، فلم يكن من الدولة اهتمام بأمرهم"[3].

أما النويرى السكندرى ، فقد أوضح بكل جلاء أن مصر كانت على بينة من تحركات وأعمال وأهداف الملك بطرس - كما ذكرنا فى الفقرة قبل السابقة . أى منذ بداية رحلته إلى أوربا وطوافه فى بلادها تمهيداً لحملته ، وذلك قبل سنوات من هجومه على الإسكندرية . ونخرج من كلامه الوافى والذى يبين حقيقة الموقف أن المسئولين سواء فى الإسكندرية أو

---

(١) Atiya, The Crusade, P. 374 .

(٢) السلوك ، جـ ٣ ، ق١ ، ص ١٠٤ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ ٣ ، ق١ ، ص ١٠٥ .

القاهرة كانوا على علم بكل ذلك ، ولكنهم لم يتخذوا أىّ إجراءات استعداداً للأمر باستثناء الأمير زين الدين خالد نائب السلطان بالإسكندرية[١] ؛ فيقول النويرى السكندرى :

---

(١) لا يحدد النويرى السكندرى تاريخًا لهذا الخبر . وقد أشار إلى الأمير زين الدين خالد مرتين فقط ، إحداهما ما ورد هنا بالمتن ، والأخرى فى نص يأتى فى نسخة الهند من الإلمام المخطوط وهو يتكلم على (التحفظ من الجواسيس) وما رواه عن إلقاء القبض على جواسيس الملك بطرس فى الإسكندرية قبل الوقعة ، فيقول : (.. كما رؤى فى ولاية زين الدين خالد – نائب السلطان بالإسكندرية – نصرانى سوقى دخل خندق سور الإسكندرية ... إلخ) ؛ انظر : الإلمام ، لوحة ٢٢١أ ، وهو نص لم يرد فى الإلمام المطبوع .

ويبدو أن الخبر فى النص الوارد هنا فى المتن ، يتحدد بالشهور الأخيرة قبل الحملة مباشرة ، وهو ما توضحه إشارة النويرى إلى استعدادات الملك بطرس فى رودس التى بدأت منذ وصوله إلى تلك الجزيرة حتى خروجه منها على مدى أشهر يوليو وأغسطس وسبتمبر ١٣٦٥م ، وهو ما يوافق فى الشهور الهجرية كلاً من ذى القعدة وذى الحجة ٧٦٦هـ والمحرم ٧٦٧هـ (راجع : التوفيقات الإلهامية) ، أى أن الأمير المذكور كان متوليًا لثغر الإسكندرية خلال هذه الشهور أو حتى الأول منها على أقل تقدير . إلا أن اللافت للنظر أن متولى الثغر فى تلك الفترة هو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام الذى توجه للحج فى شهر شوال من سنة ٧٦٦ هـ وأناب عنه الأمير جنغرا الذى لايرد اسمه فى الإلمام إلا بهذا الرسم فقط ، والذى استمر فى نيابته عن ابن عرام حتى رجوعه فى أواخر المحرم من سنة ٧٦٧ هـ (راجع : الإلمام ١٣٢/٢) وقد استولى الفرنج على الإسكندرية . ولم نجد من جانبنا أى ذكر للأمير زين الدين المذكور فى كل المصادر المعاصرة والمتأخرة التى بين أيدينا من تواريخ وتراجم ؛ انظر عن ولاية ابن عرام لثغر الإسكندرية فى نوبات مختلفة قبل الوقعة وبعدها (واليًا ثم نائبًا) :

Abd Ar - rezig (Ahmad), Les Governeurs d'Alexandrie au Temp des Manlûks, dans: Annales Islamologique, t. XVIII (1982), Imprimerie de l'Imstitut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire, 1982, p. 133 et Passim.;

ولم يتعرض الدكتور عبد الرازق هنا لذكر الأمير زين الدين خالد ضمن من تولوا الإسكندرية قبل الوقعة.

ونص النويرى الذى أتينا به فى الفقرة الأولى من هذه الحاشية ، يصرح بولاية الأمير زين الدين خالد بالإسكندرية بالإضافة إلى نعته بأنه (نائب السلطان) بها . ووظيفة (نائب السلطان بالإسكندرية) لم تكن معروفة قبل وقعة بطرس دى لوزنيان ، وإنما هى من المستجدات بعد الوقعة ؛ فكأن المراد هنا هو نيابة الأمير زين الدين خالد عن السلطان للقيام بأعمال يكلف بها ويقوم بتنفيذها .

والواقع أن المقصود بولاية الأمير زين الدين خالد – فيما نرى – لا تعنى هنا وظيفة الحاكم الأعلى الذى ينوب عن السلطان فى الثغر بهذا المعنى ، وإنما هى وظيفة تدل على من يقوم بالإشراف على عملية البناء والتشييد ، أى متولى العمارة . ولفظة (المتولى) لم تكن تعنى هنا المهندس أو البنّاء (بتشديد النون)، وإنما هى تعنى من كان يفوض إليه الإشراف على البناء ؛ وكان الغالب فى ورود هذا اللفظ أن يُحذف ما يضاف إليه من أعمال كما فى متولى الأوقاف ومتولى بيت المال ، أو والى الأسطول أو والى البريد ... إلخ . والملاحظ أيضًا أن ناظر العمارة كان من اختصاص أحد الأمراء ، فى حين أن ولايتها كانت من اختصاص أمير آخر، وكان الناظر له الإشراف والتوجيه ، وللوالى الإشراف المباشر والتنفيذ؛ راجع كل ما جاء فى هذه الفقرة =

باستثناء الأمير زين الدين خالد نائب السلطان بالإسكندرية[١] ؛ فيقول النويرى السكندرى :

" ... ثم إن القبرسى لما قصد غزو الإسكندرية ، استنجد بملوك النصارى بإشارة الباب (أي : البابا) لهم فى ذلك ... فلما أعانت ملوك النصارى صاحب قبرس بالمال والرجال والغربان - بإشارة الباب لهم فى ذلك - تعمّرت المراكب له - على ما قيل - برودس ، لأنها دار صناعة الفرنج ، فكانت عمارتها - على ما قيل - فى أربع سنين ، وذلك فى مدة طوافه على الملوك . فلما رجع إلى قبرس[١] ، وجدهم تهيأوا له ، فجمع ما جاء به على ما عُمّر له ، وتوجه إلى الإسكندرية . وكانت الأخبار تأتى إلى الإسكندرية بأن العمارة عند القبرسى ، فاستهم نائب السلطان بها - وهو الأمير زين الدين خالد - فرفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر ، وصار يجتهد فى العمارة ، ويرسل

= فى :حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ٣ / ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ١٠١٦ ، ١١٨٣ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ .

ومن هنا كانت ولاية زين الدين خالد لثغر الإسكندرية إنما هى ولاية العمارة بها والإشراف عليها ، وهو ما باشر تنفيذه بتعليته سور الإسكندرية عند الباب الأخضر كما هو وارد فى نص النويرى السكندرى بالمتن هنا؟.

(١) كذا ؛ وكان الأولى به أن يقول : (رودس) .

يطلب من الأمير يلبغا الخاسكى - مقدم الجيوش المنصورة - الإعانة على عمارة السور ، ويعلمه بخبر عمارة القبرسى للمراكب الحربية ، فيقول : إن القبرسى أقل وأذل من أن يأتى إلى الإسكندرية "[1] .

وهو نص تنقصه التفاصيل ، إلا أنه جامع لكل الخطوات التى يمكن الكلام عنها فيما تمنا بدراسته فى الفصل الثانى وكل ما أتينا به حتى الآن فى هذا الفصل ، وهو إن دل على شىء فإنما يدل على أن أخبار ملك قبرس كانت تصل إلى مصر أولاً بأول منذ توجهه إلى أوربا ثم عودته إلى رودس . ومع كل هذا ، فلم يكن رد الفعل عند المسئولين - فيما خلا زين الدين خالد - بأكثر مما ورد ففى نص النويرى : " إن القبرسى أقل وأذل من أن يأتى إلى الإسكندرية" . فكان من نتائج هذا التهاون وهذا الاستخفاف بتلك الأخبار من جانب الدولة المملوكية الذى يشرح كلمة المقريزى المشار إليها منذ قليل : " لم يكن من الدولة اهتمام " ، واستبعاد أولى الأمر من تصورهم أن يجرؤ أحد على الإغارة على الرسكندرية وهى ذلك الثغر العظيم الذى رجع كل من قصده بالخيبة والفشل[2] .

---

(١) الإلمام ، ٢/١١٠ - ١١١ . ويستطرد النويرى السكندرى فى إثر ذلك (ص١١١) معبراً عن تعجبه إن لم يكن استنكاره لموقف يلبغا وعدم مبادرته لاتخاذ موقف إيجابى حيال خطورة هذا الخبر وتغافله ، فيقول: " وما علم يلبغا أن شرارة أحرقت الجلمود ، وبعوضة أهلكت النمورد ، ودَيْلَمَة (فى المطبوع : (ودودلمة) ، وكذا فى مخطوطة الهند (لوحة ٧٤أ) ومخطوطة برلين (لوحة ١٩٧أ) ، ولا معنى لها ، والدَّيْلَمَة - والجمع الديلم - واحدة النمل والقردان ، وهى من أعداء الإبل خاصة ؛ راجع : الزمخشرى (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ، أساس البلاغة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤١هـ / ١٩٢٢م ، ١/٢٨٠ (مادة : د ل م) قتلت فيلاً ، وبرغوثًا أسهر ملكًا جليلاً ... ثم أغفل أيضًا قول الشاعر :

لايستخفّن الفتى بعدوه ... يومًا وإن كان العدو ضئيلا

إن القذى يؤذى العيون قليله ... ولربما قتل البعوض الفيلا

(٢) انظر : عاشور ، قبرس ، ص ٦١ .

وليس عجيبًا أن يورد النويرى السكندرى مثل هذه المعلومات عن تحركات الملك بطرس، فالغالب أن أخبارها قد وصلت إلى مصر عن طريق التجار الذين كانوا يترددون على الإسكندرية من حين لآخر(١) .

على كل حال ، فقد حان وقت إقلاع أسطول الحملة من رودس . ففى يوم السبت الرابع من أكتوبر ١٣٦٥م (٢)/ ٦ من المحرم ٧٦٧هـ ، صعدت العساكر السفن من غير تحديد أيضًا لوجهة الحملة ، وصعد الملك بالمثل إلى سفينته يصحبه المندوب البابوى وكبار رجاله ؛ ولما التأم شمل الجميع فى المراكب ، ألقى بطرس دى توماس خطبة مقتضبة على ظهر سفينة الملك ، ومنح بركته لهذا المشروع المقدس ، فردد المحتشدون فى خليج رودس صدى أصوات جمهور الناس الذين علت صيحاتهم تشق عنان السماء وهم يهتفون - كما فى كلمات فيليب دى مزيير - " عاش ، عاش بطرس ملك بيت المقدس وقبرس قاهر المسلمين " (٣):

Vitat, Vitat Petrus et Cypri rex, Contra " Saracenos infideles "

ثم صدرت الأوامر بعد ذلك إلى مقدمى السفن بأن يسيروا بازاء ساحل آسيا الصغرى(٤) حتى يصلوا إلى جزيرة قرامبوزا(٥) Crambusa . وهناك ، مكث رجال الحملة يومًا واحدًا

---

(١) انظر : عاشور : قبرس ، ص ٦٠ و هـ (٧) بها ، وهو يستخلص ذلك من بعض القصص الشعبى المعاصر ، فيما ينقله صراحة من (باول كاله'، منارة الإسكندرية فى خيال الظل المصرى) تناول فيها طرفًا من إغارة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية على لسان واحد من رسل الكتيلان (القطلونيين) ينبّه عن مراسلة الملك بطرس للكتيلان لمناصرته على ما ينتويه من مهاجمة مصر والإسكندرية على وجه التحقيق .

(٢) Machaut, p. 64 .

وبعد أن ينص " ماشو " على إقلاع الملك من رودس إلى قرامبوزا Crambusa ، يورد أن الملك حضر قداسًا صباح يوم الأحد التالى - وهو حسب تقويم هذا العام يوافق الخامس من أكتوبر - وأقلع فى اليوم ذاته من قرامبوزا بما يفيد أن إقلاع الأسطول من رودس إنما كان - عند ماشو نفسه - فى يوم السبت الرابع من أكتوبر .

(٣). De Mézières, Vite , dans: Jorga , phil. de Méz. p. 285 et n. 4 وانظر أيضًا :

Atiya, The Crusade, p. 348 .

(٤) Atiya, op. cit., Loc. cit .

(٥) جزيرة صغيرة تقع بعيداً عن ساحل آسيا الصغرى قرب رأس خلقدونية Cape Khelidonia إلى الشرق من ميرا Myra فى خليج ستاليا Golf de Satalie المعروف أيضًا بخليج أضاليا Adalia (انطاليا)؛ انظر : De Mas Latrie, dans: Machaut, p. 280 n. 18; Dawkins, in: Makhairas,II, pp.115-117.

تزودوا فيه بالمياه ، ثم غادروها فى اليوم التالى - الأحد ٥ أكتوبر - مبحرين من جديد فى طريقهم إلى الإسكندرية[١] . وهنا ينفرد " ماشو " من بين المصادر الغربية - المعاصرة والمتأخرة - بإشارة نادرة عن اللحظة التى اختارها الملك للإعلان رسميًا عن وجهة الحملة ؛ فيذكر أن الأسطول بعد مغادرته قرامبوزا وأصبح فى عرض البحر بعيداً عنها ، تردد صوت النفير (من سفينة الملك) عاليًا وواضحًا إشارة لتوقف سفن الأسطول ، فتوقفت جميعها للاستماع إلى ما سوف يعلنه الملك الذى أصدر أمره بأن تسلك جميع السفن الطريق صوب الإسكندرية [٢]. إلا أن الملك بطرس انتابه القلق بعض الشىء بعد واجه معارضة من رجاله الذين أذهلهم الخبر ، وأفصحوا عن تذمرهم بقوة بأن أبدوا تخوفهم من مهاجمة مدينة حصينة تمتاز بالضخامة كالإسكندرية التى قد يستحيل الاستيلاء عليها ؛ فبذل الملك جهده لتبديد مخاوفهم ، فوعدوه - أخيراً - بأن يبذلوا ما فى طاقتهم [٣]. ومن ثم ، واصل الأسطول مسيره تجاه الإسكندرية فى رحلة استغرقت خمسة أيام إلى الساحل المصرى من يوم إقلاعه من رودس ، وأربعة أيام منذ مغادرته قرامبوزا[٤]، تقاذفته فى بدايتها - بعد الرحيل من قرامبوزا - الأمواج العالية وشتتته الرياح العنيفة ، إلا أن البحر ما لبث أن هدأ فواصل

---

(١) Machaut, pp. 64, 65 .

(٢) Machaut, pp. 64 - 5 :

Eins fist sonner une tropette,
Qui haut et sonne et trompette,
Lors s'arresta tout le navire
Pour oir ce qu'on vorra dire.
Li rois commanda qu'on leur die
Que chascuns le sieve á navie
Tout droit le chemin d'Alixandre.

وقد اكتفى " يورجا " بمجرد الإشارة إلى توجه الأسطول إلى الإسكندرية بعد الإبحار من قرامبوزا وابتعاده عنها ، ولكنه أغفل كل التفاصيل التى أتينا بها هنا فى المتن ، راجع : Jorga, Phil . de Méz., p. 286.

أما الدكتور عطية ، فهو ينص على أن الملك أعلن رسميًا عن هذه الحملة وهو فى قرامبوزا نفسها ،راجع : Atiya, P. 448 and n. 1 .

(٣) Machaut, PP. 65 - 6 .

(٤) Jorga, phil. de Méz., p. 286 .

الأسطول مسيره فى أمان ؛ ثم لاحت للأنظار مدينة الإسكندرية فى صباح يوم الخميس ٩ أكتوبر ١٣٦٥م / ٢١ المحرم سنة ٧٦٧هـ حيث ألقى الأسطول مراسيه فى داخل الميناء القديم(١) .

هنا نلاحظ أن القدامى - من معاصرين ومتأخرين - قد اتفقوا فى جانب واختلفوا فى جانب آخر عند تحديد تاريخ وصول أسطول الحملة إلى مياه الإسكندرية . والمشاهد - بادىء ذى بدء - أن النويرى السكندرى قد انفرد بتحديد يوم الأربعاء العشرين من المحرم من السنة تاريخًا لظهور سفن أسطول الحملة فى مشارف مياه مدينة الإسكندرية (٢). ولا يوجد فى المصادر الغربية أو العربية ذكر لهذا اليوم بهذا التحديد فى التاريخ ، ولكن يتفق معه فقط كل من ابن كثير - المؤرخ الشامى المعاصر - والمقريزى - المصدر المتأخر - فى تحديد اليوم بالأربعاء ، ولكنهما يختلفان فى تاريخه ؛ فهو عند ابن كثير الثانى والعشرين من المحرم(٣)، وأورده المقريزى الحادى والعشرين منه (٤). أما ابن تغرى بردى - الذى ينقل من المقريزى - فلم يشر إلى اليوم ذاته - الأربعاء - ولكنه ضمنه ما نص عليه من استيلاء الفرنج على

---

(١) Machaut, p. 67 ; Makhairas, p. 151 ; Amadi, p. 414 ; وانظر أيضًا : Jorga, Loc. cit.

(٢) الإلمام ، ٢ / ١٣٦ - ١٣٧ : " لما كان فى يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة ، ظهر فى البحر مراكب مغربة ومشرقة ، زعم أهل الإسكندرية أنهم تجار البنادقة ينتظرونهم يأتون بمتاجرهم على جارى عادتهم كل سنة " .

فهذا الشهر عندما يوافق شهر أكتوبر هو موعد وصول سفن البنادقة لتبادل المتاجر ؛ قارن ما ذكرناه هنا من قبل فى ص١٢٤ من اشتراط البنادقة على الملك بطرس بألا يهاجم بلاد السلطان المملوكى إلا بعد شهر أكتوبر .

(٣) ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل) : البداية والنهاية ، الطبعة السادسة ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ٣١٤/١٣ : " ووردت الأخبار بما وقع من الأمر الفظيع بمدينة الإسكندرية من الفرنج ... وذلك أنهم وصلوا إليها فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شهر الله المحرم .. " . وهو لم يحدد اليوم والتاريخ فى كتاب آخر له هو : الاجتهاد فى طلب الجهاد ، الطبعة الأولى ، مطبعة أبى الهول ، القاهرة ١٣٤٧هـ ، ص ١٢ ؛ وطبعة أخرى من الكتاب نفسه أحدث منها : تحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١ ، ص ٧٣ : " هجم هؤلاء ... الفرنج ... فى محرم سنة سبع وستين وسبعمائة على ثغر الإسكندرية " .

(٤) السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١٠٤ : " .. فورد الخبر فى يوم السبت رابع عشرينه بمنازلة الفرنج مدينة الإسكندرية ، وأنهم قدموا يوم الأربعاء حايد عشرينه " .

الإسكندرية فى يوم الجمعة ٢٣ من المحرم عنده [١]. ونلاحظ أيضًا أن ابن حبيب - وهو مؤرخ شامى معاصر آخر - يورد الخبر فى استهلال حوادث سنة ٧٦٧هـ من غير أن يذكر يومًا أو تاريخًا [٢] :

وينفرد أيضًا النويرى السكندرى بتحديد صباح اليوم التالى - الخميس ، أى ٢١ من المحرم - تاريخًا لوصول سفن الأسطول بإزاء ساحل الجزيرة ثم رسوّها - فى اليوم نفسه - فى بحر السلسلة أى الميناء الغربى أو الميناء القديم [٣] .

وأما المصادر الغربية المعاصرة ، فينص فيليب دى مزيير على وصول الأسطول إلى مياه الإسكندرية فى يوم عيد القديس دنيس Denis ، وهو يوافق التاسع من أكتوبر - سنة ١٣٦٥م - [٤] ، فى نحو الساعة السادسة [٥] . ولكن " ماشو " - وإن أغفل ذكر يوم الأربعاء المشار إليه - فهو يحدد ما يوافق نص النويرى السكندرى من دخول الميناء القديم - الميناء الغربى - فى يوم الخميس الموافق لعيد القديس دنيس ، من غير ذكر لتاريخ اليوم ، وهو يوم ٩ أكتوبر كما أشرنا ، وبما يتفق أيضًا وما استشهدنا به من فيليب دى مزيير [٦] .

---

(١) النجوم : ١١ / ٢٩ : " وفى سنة سبع وستين وسبعمائة ، أخذ الفرنج مدينة الإسكندرية فى يوم الجمعة ثالث عشرين المحرم " .

(٢) ابن حبيب (الحسن بن عمر) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦، ٣ / ٢٨٨ .

(٣) الإلمام ، ١٣٧/٢ : " فلما أصبح يوم الخميس ، أقبلت المراكب الكثيرة ، طالبة ساحل الجزيرة ، منشورة قلاعها ... إلى أن حطت قلاعها ببحر السلسلة " ؛ وانظر أيضًا : ١٧٨/٢ : " وذلك أنهم أتوها يوم الخميس حادى عشرين المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة " .

(٤) لا يحدد فى الواقع فيليب دى مزيير التاريخ ذاته (٩أكتوبر) ، ولكنه - كما جئنا به فى المتن - ولكنه يحدد اليوم بيوم الاحتفال بعيد القديس دنيس ، ثم هو بعد ذلك يحدد اليوم التالى على هذا العيد كما يرد عنه أيضًا بيوم الجمعة الرابع من أكتوبر وصوابه يوم الجمعة ١٠ من أكتوبر ، وهو تاريخ اقتحام مدينة الإسكندرية ، وسوف نقوم فى موضع قريب بشرح أسباب الأخذ بهذا التاريخ الأخير الذى ورد محرفًا عنده ، استئناسًا بما يذكره كل من ذى ماس لاترى فى تعليقاته على " ماشو " ، وكذلك " يورجا " فى كتابه عن فيليب دى مزيير ، وسنحدد الموضعين اللذين استأنسنا بهما عنهما ، انظر الفصل الرابع ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٥) Vita, in : Atiya, p. 348, n. 2 " hora quasi sexta" .

(٦) Machaut, p. 67 : Qu'au viez port, devant Alexandre,
Vint Li bons roys sans plus atendre,
En un juedi, ce m'est avis,
Jour de la feste St. Denis .

وأما المصادر الغربية المتأخرة ، فمنها مخيراس ، الذى يحدد اليوم نفسه - الخميس ٩ أكتوبر - تاريخًا لوصول سفن الأسطول إلى الإسكندرية [١]، وهو ما يذكره أمادى Amadi مع إغفال الإشارة إلى يوم الخميس وساعة الوصول[٢] ، ويحرف سترامبالدى Strambaldi هذا التاريخ إلى يوم الخامس من أكتوبر [٣].

وأما عن المحدثين ، فقد ذكر " يورجا " فى هذا الصدد صباح يوم الخميس ٩ أكتوبر ، فيما ينقله من " أمادى " و " بسترون " Bustron ، ولكن يبدو أنه ينقل تحديد الساعة من "بسترون " ، إذ لم يشر إليها أمادى كما ذكرنا منذ قليل [٤]. واتبع الدكتور عطية ما جاء عند النويرى السكندرى عن يومى الأربعاء والخميس ، بالإضافة إلى ما رجع إليه من المصادر الغربية المعاصرة ، ولكنه يحدد - نقلاً من فيليب دى مزيير - الساعة السادسة من مساء يوم الخميس وقتًا لوصول سفن الأسطول إلى الإسكندرية [٥]، وينقل منه رنسيمان Runciman هذا التاريخ مكتفيًا بذكر مساء هذا اليوم [٦]. وقصر جروسيه Grousset إشارته على ذكر رُسوّ الأسطول فى يوم التاسع من أكتوبر[٧] واستأنس الدكتور عاشور بما هو وارد عند النويرى السكندرى عن اليومين المذكورين [٨].

---

(١) Makhairas, p. 151 .

(٢) Amadi, p. 414 .

(٣) Strambaldi, p. 68 : " ... et alli 5 di ottobrio 1965 gionse in Alessandria " .

(٤) Jorga, Phil. de Méz, p. 286 and n. 5 .

(٥) Atiya, The Crusade, p. 348 and n . 2.

(٦) Runciman, Vol, III, p. 445 .

(٧) Grousset, L'Empire, p. 342 .

(٨) عاشور : قبرس ، ص ٦٢ - ٦٣ ؛ وانظر أيضًا من البحوث التى تدور حول الموضوع وتحدد يوم الخميس ٩ أكتوبر تاريخًا لوصول الأسطول إلى الإسكندرية : حسن حبشى ، هجوم القبارصة على الإسكندرية ٧٦٧هـ = ١٣٦٥م ، من نصوص جديدة للنويرى ، فى : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس عشر (١٩٦٩) ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ١٦ ؛

Daniel (N.A.), " The Sack of Alexandria, in : Archaeological and Historical Studies, 6 (1979), Publication of The Archaeological Society of Alexandria, Alexandria 1979, p. 40

ويأتى المستشرق باول كاله بتاريخ مغاير هو ٧ أكتوبر ١٣٦٥م ، ولم يحدد مصادره ؛ انظر له : صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٤٤ .

وهكذا يورد النويرى السكندرى أدق التواريخ باليوم والتوقيت منذ أن لاح الأسطول لأنظار أهالى الثغر وهو فى مشارف مياه الإسكندرية ، فيصور لنا بكل دقة تحركات الأسطول بداية من ظهوره إلى أن ألقى بمراسيه فى الميناء الغربى ، بما يتفق معظمه وما جاءت به المصادر الغربية . ومجمل القول فى هذا الصدد أن الأسطول قد ظهر فى الأفق البعيد فى يوم الأربعاء ٢٠ المحرم (٨ أكتوبر) ، وهو يوم سابق على ما تذكره المصادر الغربية خاصة ، ثم ظهر أمام الإسكندرية مباشرة فى يوم الخميس تاليه (٩ أكتوبر) .

وما أتى به النويرى السكندرى عن يوم الأربعاء يفسره ومن ثم يؤكده نص صريح للمقريزى يدل على ما كان من عمليات الرصد والمراقبة من أعلى المحارس ، وذلك فى قوله : " فلما توجه ابن عرام إلى الحج وجاء أوان قدوم مراكب البنادقة من الفرنج ، لاح للناظر عدة قلاع فى البحر " [١]. ويمكن لنا أن نضيف إلى عمليات المراقبة والرصد هذه ما يرجح به الدكتور عطية وجود مراكب استطلاع مصرية فى مياه الإسكندرية [٢].

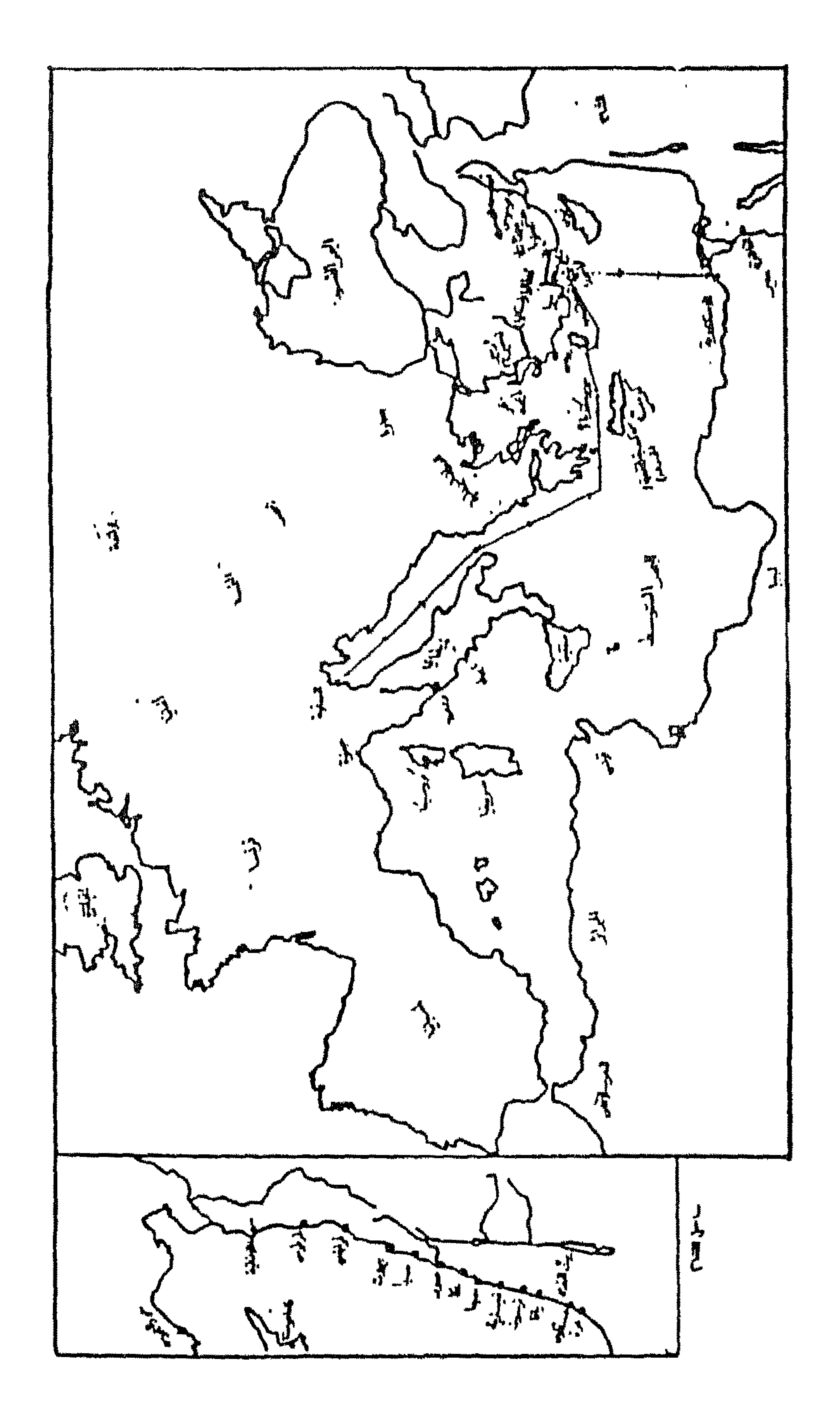
ويبدو لنا - على كل حال - أن ما ورد من اختلافات أو تناقضات أو نقص فى المصادر المعاصرة من غربية وعربية ، إنما ينحسم باتفاقها فى إجماعها على تاريخ واحد نجح فيه الصليبيون فى اقتحام مدينة الإسكندرية والاستيلاء عليها ، وهو يوم الجمعة العاشر من أكتوبر سنة ١٣٦٥ ، الموافق للثانى والعشرين من المحرم من سنة ٧٦٧هـ الذى ينفرد النويرى السكندرى بتحديده - أى اليوم الثانى والعشرين من المحرم - من بين المصادر العربية جميعها.

والذى نراه أيضًا ، أن الأسطول لم يصل إلى ميناء الإسكندرية دفعة واحدة - وهو ما سوف نلاحظه بعد قليل - وإنما تتابعت سفنه بعضها فى إثر بعض والناس على الساحل يرقبونها ، ثم لما تكاثرت وتلازمت ، اندفعت إلى الساحل لتدخل إلى الميناء الغربى ، وهو ما يتأيد بما كرره النويرى السكندرى فى موضع لاحق عنده من أن أسطول الحملة قد أتى ثغر الإسكندرية فى يوم ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧هـ (٩ أكتوبر ١٣٦٥م) . بل وينهض الدليل أيضًا على عدم

---

(١) السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١٠٥ .

(٢) Atiya, The Crusade, p. 348 n. 2.



خريطة رقم (٢) خط سير حملة الملك بطرس من البندقية إلى الإسكندرية

ظهور سفن الأسطول جميعًا ، ما أشرنا إليه من قبل[١] من تعرّض الأسطول للرياح الهوجاء واصطخاب البحر وعلو أمواجه وهو فى طريقه إلى الإسكندرية بعد مغادرته قرامبوزا ، مما أدى إلى تشتت سفنه ، وهو ما يفسره أيضًا ما ذكره " ماشو " من أن الملك لم يشأ أن ينزل بقواته إلى البر فى إثر دخوله الميناء الغربى مباشرة ، بل هو عمد إلى إصدار الأمر بعدم النزول إلى البروالتريث حتى تلحق به - فى الميناء - بقية سفنه التى أتى الشطر الأكبر منها قبل حلول الظلام مباشرة[٢] .

ويحسن أن نختتم هذا الفصل بعرض مركز لأهم معالم مدينة الإسكندرية التى كانت مسرحًا لأحداث الحملة .

كما هو معروف فإن الإسكندرية قام بتأسيسها الإسكندر الأكبر بعد استيلائه على مصر فى سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، فى موضع قرية مصرية قديمة على شاطىء البحر المتوسط تعرف باسم راقودة ، ويواجهها على مقربة من هذا الشاطىء جزيرة فاروس [٣]. وبعد تأسيسها ، بنى فى العصر البطلمى رصيف أو جسر حجرى عرف بالهبتاستاد Heptastad [٤]، لكى يصل جزيرة فاروس بالساحل ، مما هيأ للمدينة ميناءين أحدهما هو المعروف فى وقتنا الحاضر بالميناء الشرقى - حيث شيد فوق أقصى الطرف الشرقى من جزيرة فاروس على يمين الداخل إلى الميناء ذلك المنار الشهير ، والآخر وهو الميناء الغربى . وقد شقت فى هذا الجسر فتحات تتيح للسفن المرور من ميناء إلى الآخر ، ثم تعرض جانبًا هذا الجسر للترسيبات ، مما أدى إلى تكوين

---

(١) راجع هنا ص ١٤٠ .

(٢) Machaut, p. 67 :

Li roy ses besonges ordonne,
En atendant sa compaignie,
Dont il Vint la Plus grant partie
Einfois que la nuit fust venue.

(٣) Breccia(E.), Al exandrea ad S Egyptum, Bergumo, 1914, pp. 16 - 7 ؛ وانظر أيضًا الشيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، فصلة من المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٢ ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٥م ، ص ١٩١ ، ١٩٧ ؛ وله أيضًا : تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ، ص ٥ ، ١٢ .

(٤) أى سبعة ستاد أو سبع غلوات والستاد Stad يقدر بنحو ١٨٥ مترًا ، راجع : Breccia, p. 59.

عنق من الأرض ربط الجزيرة باليابسة ، ومن ثم أصبحت الجزيرة جزءاً من هذه اليابسة أو البر الأصلى [١].

وعلى الرغم من أن الإسكندرية لم يقصد من بنائها أن يتخذ منها عاصمة لملكه[٢] ، إلا أنها كانت " أولى مدن العالم أو ثانيتها "[٣] ، وأصبحت فى العصور الوسطى أولى المدن البحرية لمصر والشرق [٤]. بل كانت منذ العقود الأولى بعد فتح العرب بها ملتقى العديد من تجار العالم [٥]. أما فى الفترة التى تسبق حملة الملك بطرس دى لوزنيان عليها بنحو خمسة عشر عامًا ، كانت إلى كونها أولى مدن مصر البحرية أعظم مدن السلطان المملوكى ، حسبما يذكر الرحالة الألمانى لودلف فون ساشم Ludolf Von Sachem وذلك فى وصفه لها فى سنة ١٣٥٠م[٦] / ٧٥٠ - ٧٥١ هـ .

وكان لموقع المدينة الفريد فى الطرف الشرقى من الساحل الأفريقى[٧] وبين خط عرض ٣١ ١٣ / شمالاً وخط طول ٢٩ ٥٨ / شرقًا [٨]، قد هيأ لها الاتصال السهل بين قارات العالم

---

(١) Morris, Whitehead (pub), Services Guide To Alexandria (Second edilion, Alexandria, 1940, p. 11.

(٢) Jouguet (P.), L'Impérialisme Mecédonien et i' Hellenisation de l'Orient, Paris, 1937, p. 273 .

(٣) ديودور الصقلى : ديودور الصقلى فى مصر ، القرن الأول قبل الميلاد نقله من اليونانية وهيب كامل، ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر (بدون تاريخ) ، ص ٩٨ .

(٤) Breccia, p. 22 .

(٥) Arculf (The Bishop), The Travels of Bishop Arculf in the Holy Land Towards A.D. 700, in : Wright, Thomas (ed.), Early Travels in Palestine, Ams. Press, New York, 1969, p. 10 .

(٦) راجع كالة : صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٣٧ .

(٧) لوبير (جراتيان) : دراسة عن مدينة الإسكندرية ، فى : كتاب وصف مصر (لعلماء الحملة الفرنسية) ، مج ٣ (المدن والأقاليم المصرية) ، ترجمة زهير الشايب ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الخانجى بمصر ، ١٩٧٨م ، ص ٢٩٩ .

(٨) انظر تعليقات فولكوف deg V.Aolkoff فى :
Bretten (1585 - 1586), I FAO), Le Caire, 1976, p. 23 n. 34 .

المعروفة قديمًا وهى إفريقية - حيث تقع - وآسيا وأوربا ، مما أضفى عليها تلك المكانة المتميزة خاصة من ناحية الاتصال التجارى والحضارى بين هذه القارات الثلاث . فلقد اشتهرت الإسكندرية بأهميتها التجارية ، وهو ما سوف نلمسه طوال استعراضنا لفصول هذه الرسالة ومن أهم الأسباب التى أطمعت فيها القبارصة ، فكانت المحطة التجارية الهامة للتبادل التجارى بين الشرق والغرب .

ولقد نالت الإسكندرية إعجاب من كتبوا عنها من مؤرخين وجغرافيين ، بالإضافة إلى الرحالة المسلمين والغربيين . ومن أبرز ما كان يجتذب أنظارهم من معالمها الفريدة ، منارها الشهير الذى كان يستخدم لهداية السفن(١) . وقد مر بالمنار ما جعله ينتقص عبر السنين ، فكان أول ما أصابه - كما تقول الرواية العربية - هو تخريب جزئه الأعلى الذى يتمثل فى مرآته الضخمة ، ثم جعل المنار يتقلص شيئًا فشيئًا بفعل الزلازل حتى لم يبق من موضع أساسه فى سنة ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣م كما يقول النويرى السكندرى " إلا البقعة لا غيرها "(٢).

أما عن خليج الإسكندرية ، فهو الذى كان يمدها بالمياه العذبة عن طريق ما يتفرع عنه من قنوات جوفية تملأ الصهاريج الجوفية التى كانت منتشرة بالمدينة (٣). وكان هذا الخليج يسير

---

(١) راجع الشيال : طبوغرافية ، ص ١٩٨ .

شرع بطليموس الأول فى بناء منار الإسكندرية وتم بناؤه فى عهد بطليموس فيلادلفيوس ، راجع . Breccia, p. 93 .

وقارن النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٢٤ ب (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) : " وقيل أن منارة الإسكندرية بناها أحد البطليموسيين من ملوك اليونان بعد وفاة الإسكندر " .

(٢) الإلمام ، ٢٨٩/٥ ؛ ولكن أنظر فيه : لوحة ٢٢٤ب (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) . فهو يحدد هنا سنة ٧٧٦هـ ، فى قوله : " وقيل إن منارة الإسكندرية أحد عجايب العالم ، وقد محى أثرها الآن ، فلم يبق - فى سنة ست وسبعين وسبعمائة - منها غير الأساس " ؛ ولكن راجع أيضًا : ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى) : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، دولة المماليك الأولى ، دراسة وتحقيق دوريتا كرانولسكى ، المركز الإسلامى للبحوث ، بيروت ١٩٨٦ ؛ ص ٢٥٧ ، ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى) : الرحلة ، نشر دفرمرى C. Defrémery وسنجوينتى B.R. Sanguinetti باريس ١٨٥٣م ، ٣٠/١ .

(٣) بقى من هذه الصهاريج الجوفية واحد من أبرز المعالم الأثرية للإسكندرية فى وقتنا الحاضر ، هو صهريج النبيه) الذى يقع فى منتصف حدائق الشلالات الحالية والمعروفة من قبل باسم حديقة الخندق الشمالية، انظر خريطتنا رقم (١) .

محاذيًا لسور الإسكندرية الجنوبي على بعد ثلاثمائة متر منه[١] إلى أن يصب في الميناء الغربي . وكان لهذا الخليج أثره في ربط داخل البلاد بمدينة الإسكندرية بطريق تجاري واحد ، بل وتجاوز هذا إلى ربط هذه المدينة بالتجارة الشرقية الآتية من الشرق ومن الهند بوجه خاص[٢].

وكانت منازل الإسكندرية مبنية فوق صهاريج ماء ذات قناطر فوق أعمدة وأقواس[٣]، حتى بدت الإسكندرية وكأنها مدينة فوق مدينة ، وهو ما يشير إليه الرحالة الأندلسي القلصادي (من رحالة القرن التاسع الهجري / القرن الخامس عشر الميلادي) في قوله " وبناؤها تحت الأرض محكم " [٤].

ومن أبرز ما قيل عن الإسكندرية ما ذكره الرحالة ابن بطوطة التي زارها في سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ، ثم عودته إلى المغرب في سنة ٧٥٠هـ[٥] / ١٣٤٩م في قوله :

> " ... وهي الثغر المحروس ، والقطر المأنوس ، العجيبة الشأن ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ومآثر دنيا ودين ، كَرُمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الفخامة والإحكام مبانيها ، فهي الفريدة تَجَلَّى سناها ، الخريدة تُجَلَّى في حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمقترن المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها احتلاؤها ، وكل

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ، الطبعة الأولى ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، ١٣٠٥هـ ، ٤٥/٧ .

(٢) راجع ماركوبولو : رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد (عن الترجمة الإنجليزية لوليم مارسدن) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧م ، ص ٣٣٧ .

(٣) ليون الإفريقي (الحسن بن محمد الوزان الزياتي) : وصف إفريقيا ، نشر مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٣٩٩هـ ، ص ٥٧٢ .

(٤) القلصادي (أبو الحسن على الأندلس) : رحلة القلصادي ، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ، تونس ١٩٧٨م ، ص ١٢٥ .

وانظر أيضًا من الرحالة الأوربيين – على سبيل المثال :

Bretten (1585 - 1586), IFAO), pp. 25 - 6 , 77 ; Brown (1673 - 1679), (IFAO), Le Caire, 1974, p. 21; Huntington (1695), dans : Voyages en Egypte Pendant les années 1678 - 1701, (IFAO), Le Caire, 1981, p. 180 ; Morison (1694), (IFAO), Le Caire, 1976, p. 6.

(٥) راجع هذين التاريخين في : ابن بطوطة : الرحلة ، ١ / ٢٦ و ٣٠ على التوالي .

طُرفة فإليها إنهاؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا وصنّفوا فى عجائبها فأغربوا ... " (١).

أما البلوى السبتى - من رحالة القرن الثامن الهجرى / القرن الرابع عشر الميلادى - فهو يقول واصفًا المدينة عندما دخلها :

" ... فلم أرَ مدينة أحسن منها وضعًا ولا أبدع رَبعًا ولا أوسع مسالك ولا أعلى مبانى ولا أسمى مراقى ولا أجمل مراسم ولا أوضح معالم ، ولا أملح أزقّة ... وكفاها أن ليلها كالنهار فى تصرف العباد ، وإعادة مسائها كصباحها ، وهو غير المعتاد .. ومن أعجب صنعها أن بناؤها تحت الأرض كبنائها فوقها ، بل أعتق وأمتن ، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها ويتخلل جميع أزقتها تحت الأرض فتتصل الآبار بعضها ببعض .. "(٢).

أما عن الرحالة الغربيين ، فسوف نكتفى بذكر اثنين منهم ، أحدهما معاصر لابن جبير وهو بنيامين التطليلى ، والآخر زار الإسكندرية قبل الوقعة بخمسة عشرة سنة وهو الرحالة الألمانى لودلف فون ساشم .

أما بنيامين التطليلى فقد زار الإسكندرية قبل ابن جبير ببضع سنوات ، فجاء وصفه لها ثبت وثيق مفصل أحصى فيه الممالك والأقطار الأجنبية التى كانت تتبادل التجارة مع الإسكندرية فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى(٣) / أواخر القرن السادس الهجرى . والجديد في وصفه إشارة إلى نوع جديد من المنشآت عرفته الإسكندرية والثغور المصرية فى العصور الوسطى وهو الفنادق التى كان يأوى إليها تجار الممالك الأوربية المختلفة ، يسكنون فى أعاليها ، ويعرضون بضائعهم فى أسافلها (٤).

---

(١) ابن بطوطة : المصدر نفسه ، ١ / ٢٧ - ٢٨ .

(٢) البلوى (خالد بن عيسى) : تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسين السائح ، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامى ، المغرب (بدون تاريخ) ١ / ١٩٦ .

(٣) Benjamin of Tudela, The Travels of Benjamin of Tudela A.D. 1160-1173, in Wright, Thomas (ed.), Travels in Palestine, Ams. Press, New York, 1969, p. 123 .

(٤) راجع فى ذلك : الشيال : طبوغرافية ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

أما عن الرحالة الألمانى فون ساشم فهو يمدنا فى تقريره الذى كتبه فى سنة ١٣٥٠م / ٧٥١هـ بصورة بليغة عما كانت عليه الإسكندرية من حصانة وازدهار وتقدم عمرانى وصفة مبانيها ونظافة شوارعها . فيقول :

" ... وتتصف المدينة بالجمال الفائق والحصانة الشديدة ، فهى مزودة بأبراج عالية ، وأسوار منيعة .. ويمتاز داخل المدينة بحسن الرواء ، إذ يسود البياض لون أبنيتها ، فى حين تتفرع قنوات مياهها الجارية فى كل زاوية من شوارعها . وتلقى المدينة عناية خاصة للاحتفاظ بنظافتها إذ يوجد بها المحتسبة الذين يمنعون الناس من إلقاء ما يقلل من نظافة شوارعها أو مياهها ... وتبدو المدينة للوهلة الأولى وكأنها من المناعة بمكان ، بحيث يستحيل الاستيلاء عليها " [١].

وقد وصف الرحالة الأوروبيون الشكل الذى كانت عليه المدينة العربية داخل سورها المحيط، بأنه على هيئة مستطيل[٢] أو مربع[٣] أو أهليجى (بيضاوى)[٤] أو ما يقترب من الهلال[٥] أو هو يجمع بين المستطيل والبيضاوى[٦] .

وحدد " ماشو " مؤرخ حملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية طول سورها المحيط بأكثر من عشرة آلاف متر [٧]، وهو ما يقترب من تحديدات جراتيان لوبير لطول وعرض المدينة العربية[٨] . ويورد لنا النويرى أوصافًا معاصرة لأجزاء من أسوار الإسكندرية العربية فيما يتصل بتحصيناتها من قلاع وأبراج ومرام سهام وشراريف خلال الوقعة ، وما استجد من تجديدات وترميمات وإضافات لتحصيناتها بعد الوقعة ، وهو ما يتقابل -خاصة عند الوقعة- مع ما ذكره " ماشو " على لسان بيرسيفال دى كولون بأنها مدينة كبيرة واسعة وعريضة ، ذات

---

(١) فى : كاله : صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٣٧ .

(٢) Sandyas (1611), dans : Voyages en Egyupte des années 1611 et 1612, (IFAO), Le Caire, 1973, p. 110 .

(٣) ليون الإفريقى : وصف إفريقيا ، ص ٥٧١ .

(٤) Palern (1581), (IFAO), p. 8 .

(٥) Coppins (1636 - 1646), (IFAO), Le Caire, 1971, p. 19 ; Monconys (1646 - 1647), (IFAO), Le CAire, 1973, p. 14 .

(٦) Bremond (1643 - 1645), (IFAO), Le Caire, 1974, p. 18 .

(٧) Machaut, p. 61 : Sire, Alexandre est une Ville Qui tient de tours plus de X.mille .

(٨) راجع : كتاب وصف مصر ، ٣ / ٣٦٩ ، ٣٧٤ .

أبراج وأسوار عالية حصينة ، وكل باب من أبوابها تدعمه أبراج جميلة تضفى عليها المزيد من الحصانة ، ويحيط بالمدينة خنادق واسعة وعميقة[١] .

وكان سور الإسكندرية سوراً مزدوجًا وعرض الفصيل بينهما حوالى عشرة أمتار ، وينتصب عليهما أبراج ضخمة مبنية بالحجر الأبيض ، ويتلامس هذان السوران قريبًا من الحصن - أو القصر - القديم[٢] ويبلغ ارتفاع السور الخارجى نحو عشرين قدمًا[٣] (أى نحو سبعة أمتار) ويرتفع سورها الداخلى بأكثر من ذلك[٤] . أما عن سمك السور ، فيقدره الرحالة اليهودى مشولام بن مناحم - الذى شاهد أسوار الإسكندرية فى سنة ١٤٨٤م - بعشرة أذرع[٥] ، أى خمسة أمتار .

وكان لهذا السور أربعة أبواب رئيسية هى باب البحر ، ويقع فى أقصى الطرف الغربى من السور الشمالى ويطل بابه الخارجى على الميناء الغربى مباشرة ، وقد تعرض للحرق على يد القبارسة إبان الوقعة [٦]. ويقع بالقرب منه فى اتجاه الشرق باب الديوان [٧]. ويقع الباب الرئيسى الثانى وهو الباب الأخضر فى السور الغربى من منتصفه تقريبًا وفى نهاية شارع المحجة العظمى[٨]. ويقع خلف الباب الأخضر قصر السلاح فى موضع الزربية [٩]. وفى

---

(١) Machaut, p. 61.

(٢) Ghistele (1482 - 1483), (IFAO), pp. 111 , 124 ؛ وعن الحصن أو القصر القديم انظر الخريطة رقم (١) .

(٣) Coppin (1638 - 1646), (IFAO), pp. 22 - 23 .

(٤) Fabri (1483) , (IFAO), II, pp. 658, 660, 773; III, pp. 949, 950 .

(٥) انظره فى : Pitts (1685), dans : (1678 - 1701), (IFAO), P. 116n. 200 .

(٦) حدد بنيامين التطيلى صراحة هذا الباب على الميناء الغربى مباشرة ، انظر : Bejamin of Tudela, The Travels .., p. 122 ; Herreros, Quatre Vayageurs.., p. 27 .

(٧) Machaut, pp. 84-5 ؛ انظر أيضًا : الإلمام ، ج ٣/ ٢١٥ ويذكره النويرى السكندرى باسم باب الورد ، راجع ما جاء فى الفصل الرابع ص ١٧٢ - ١٧٤ .

(٨) هو الباب الرئيسى للمدينة من ناحية الغرب حيث ينتهى طريق المحجة العظمى . وقد أنشىء هذا الباب مقابل (باب القمر) القديم أو (الباب الغربى) وعرف باسم (باب القرافة) لأنه كان يؤدى إلى جبانة هناك ، راجع : الشيال : طبوغرافية ، ص ٢١٠ .

(٩) راجع : النويرى السكندرى : الإلمام ٢/ ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، وانظر خريطة رقم (١).

السور الشرقى من منتصفه تقريبًا يقع باب رشيد على طريق المحجة العظمى أو الشارع المسلوك (طريق الحرية الحالى - شارع فؤاد سابقًا) وهو أحد الأبواب التى حرقها أهالى الإسكندرية وهم ينجون بأرواحهم منه أثناء الوقعة [١]. ويقع إلى الجنوب منه باب الزهرى قرب الطرف الجنوبى للسور الشرقى [٢]. أما الباب الرئيسى الرابع فهو باب السدرة (أو باب الشجرة) ويقع فى السور الجنوبى فى منتصف النصف الغربى منه على وجه التقريب [٣].

وهناك الكثير من معالم الإسكندرية حينذاك مما لا يسمح المجال بالكلام عنه بالتفصيل ، إلا أننا سوف نشير إلى أهم هذه المعالم أثناء سرد حوادث الحملة فى الفصل الرابع من هذه الدراسة ، مثل مبنى الديوان (ديوان الخمس) ، وهو نفسه (مبنى الوارد والصادر) ، ودار الطراز ، ودار الصناعة الشرقية والغربية ، والأسواق والحوانيت والخانات ، التى نهبها الفرنج بالإضافة إلى معالم الجزيرة نفسها [٤].

تلك عجالة عن طبوغرافية مدينة الإسكندرية وأبرز معالمها إبان وقعة القبارصة والتى كانت مسرحًا لعدوانهم . فأحرقوا بعض مبانيها ومنشآتها ، وأعملوا السلب والنهب فى البعض الآخر ، وامتدت يد التخريب إلى جانب منها . وسوف تقص الفصول التالية حكاية ما أصاب المدينة على أيدى أولئك القوم من خراب ودمار مما لم تشهده منذ أقدم عصورها .

---

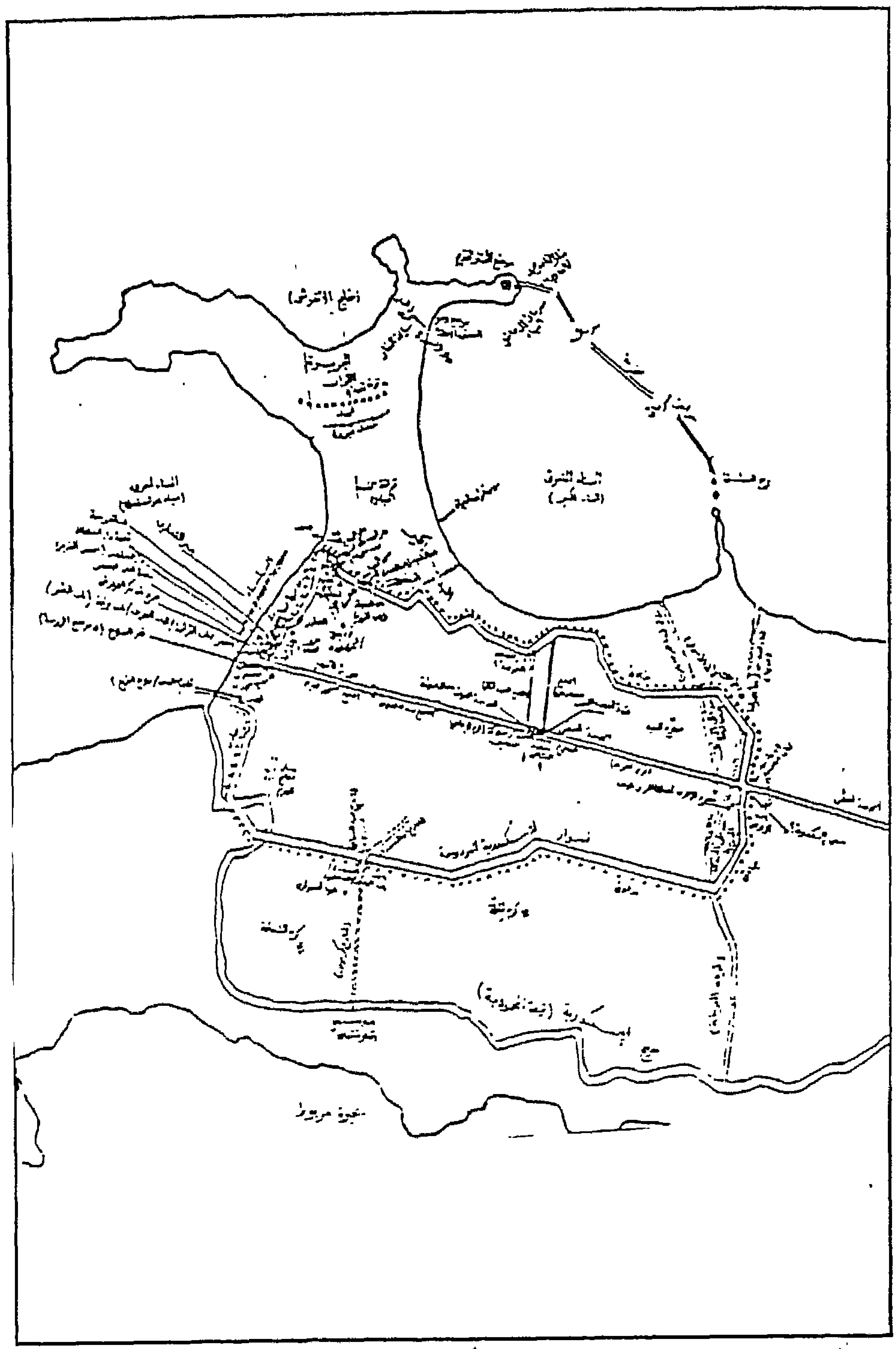
(١) انظر : خريطتنا عن طبوغرافية الإسكندرية رقم (٣) ، وعن تسمية المحجة العظمى بالشارع المسلوك، انظر فى : محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون : كتاب وقف بتاريخ ١٢ جمادى الأولى ٧٢٦ هـ (دراسة ونشر وتحقيق) ، فى : ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٢ / ٤٣٠ .

(٢) انظر خريطة رقم (٣)

(٣) كان يطلق على هذا الباب عدة أسماء منها (باب سان مارك) راجع : Combe (Et.) De la Colonne pompée au phare d'Alexandrie, dans : Bulletin de la Société Royale d' Acrhéologia d'Alexandrie No.3 (1934). Alexandrie, 1934, pp. 104 - 112) . p. 105 .

انظر أيضًا : Machaut, p. 91: الذى يطلق عليه اسم " باب البهار " La Porte du poivere " وتذكره بعض كتب البلدان باسم " باب الشجرة " نسبة إلى شجرة عاتية من أشجار السدر كانت تقوم إلى جانبه . راجع : الشيال : طبوغرافية ، ص ٢١٢ ، ويعرف باسم " باب الموسم " راجع : الحميرى (محمد بن عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، حققه إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، مكتبة ، بيروت ١٩٨٤ ، ص ٥٥.

(٤) راجع : الفصل الرابع من هذه الدراسة ، ص١٧٢ وصفحات أخرى ؛ وانظر أيضًا : خريطة الطبوغرافية رقم (٣).



خريطة رقم (٣) معالم الإسكندرية فى عهد الأشرف شعبان وقت نزول حملة بطرس دى لوزينان بها
(١٣٦٥م - ٧٦٧ هـ)

الفصل الرابع
وقائع الحملة على الإسكندرية
(١٠ - ١٦ أكتوبر / ٢٢ - ٢٨ المحرم)

الخلاف حول عدد قطع الأسطول الصليبى وأنواعها - رسو الأسطول فى الميناء الغربى فى ١٠ أكتوبر / ٢٢ المحرم ، وموقف الأهالى وجنفرا والحامية - عملية النزول إلى البر ، ومراحل الاشتباكات الدامية بين الفريقين ، ونتائجها - محاولات اقتحام المدينة ، واحتلالها ، وما أصابها من تدمير وتخريب - استمرار أعمال القتل والذبح ، والتدمير والتخريب ، والسلب والنهب ، وأهمية رواية النويرى فى هذا الصدد (١١ - ١٦ أكتوبر / ٢٣ - ٢٨ المحرم) - الانسحاب المفاجىء للأسطول الصليبى عن المدينة ، وأسبابه .

خلصنا من روايات المؤرخين القدامى والحديثين التى استعرضناها فى الفصل السابق حول تاريخ وصول الأسطول الصليبى إلى مياه الإسكندرية ، أن ذلك تم يوم الخميس ٩ أكتوبر ١٣٦٥م / ٢١ المحرم ٧٦٧هـ ، وإن كانت طلائعه قد ظهرت فى الأفق البعيد يوم الأربعاء ٨ أكتوبر / ٢٠ المحرم .

على كل حال ، بظهور مراكب الأسطول فى يوم الأربعاء اعتقد أهالى الثغر - كما أشرنا من قبل [١]- أنها سفن البنادقة قد أتت بمتاجرها فى مثل هذا الوقت من السنة ، فتحقق لهم بذلك الأرباح الوافرة ، خاصة وأن تجار الثغر قد جلبوا إليهم من اليمن أصناف البهار يبيعونها عليهم ؛ ولما لم تتحرك السفن وباتوا ليلتهم فى خوف شديد إلى أن طلع صباح يوم الخميس فتحركت مراكب الأسطول تطلب ساحل الجزيرة وقد ملأت البحر لكثرتها من كل جهة ، والناس تذهب بهم الظنون كل مذهب [٢]، فالعدد الذى يشاهدونه من قطع الأسطول يزيد عما اعتادوا رؤيته عند قدوم سفن تجار البنادقة ، فاعتراهم الشك فى أن يتمكن هذا الأسطول من إنزال ما يكفى من المقاتلين لإلحاق الضرر بمدينة تشتهر بمناعتها الشديدة [٣]، وكانت مراكب الأسطول كما شاهدها الأهالى وفيما قدره النويرى السكندرى نحو سبعين من المراكب الحربية[٤] مجمعة من أجناس مختلفة ، فى تفسيره قول ابن أبى حجلة :

---

(١) انظر ما قبله ، ص ١٤٣ وهـ٢.

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٢ / ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ٢ / ١٣٧ .

(٤) اختلفت المصادر المعاصرة والمتأخرة فى تقدير عدد سفن هذا الأسطول . فهو لدى المصادر الغربية - منذ تجمعه فى رودس ومسيره منها صوب الإسكندرية - تتراوح قطعه بين الستين سفينة والمائة وثمانين سفينة. أما المصادر العربية ، فهى تذكر رقمًا تكاد تتفق عليه وهو سبعون سفينة فهو فى (Vita) بطرس دى توماس ، فيما ينتقله De Mas Latrie, in : Machaut, p. 277 n.16 ٦٠ قطعة ، وفى : Makhuiras, p. 147 ١٠٨ قطعة ، وفى : Amadi, p. 414 ٩٢ قطعة . أما " ماشو " المعاصر فهو لا يحدد قطع هذا الأسطول ، وإنما يكتفى بذكر أنواعها من غير أى تحديد أيضًا لأعداد هذه الأنواع ؛ انظر : Machaut, p. 57، ومن المحدثين الذين تابعوا هذا أو ذاك من المصادر : Jorga, Phil. de Méz., p. 282 ٩٢ قطعة ، نقلاً من (أمادى) وإن لم يشر إليه : Atiya, The Crusade, p. 142 ١٠٨ قطعة نقلاً من " مخيراس .

أما المصادر العربية من معاصرة ومتأخرة ، فمنها : النويرى السكندرى : الإلمام ٢/ ٢٣٠ ، نحو ٧٠ قطعة - وعند ابن أبى حجلة فى قصيدة له يرثى فيها ثغر الإسكندرية ٧٠ قطعة فى : الإلمام ، ٢/ ٢٣٠ وهى ذات القصيدة المتضمنة فى مقامته التى أنشأها فى الوقعة وأدرجها ابن حبيب فى : تذكرة النبيه ، ٣/٢٩١ ؛ وابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ ١ ق ٢ ، ص ٢٤ ؛ وفى : ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٣/٢٨٨ ، ٧٠ قطعة ؛ وفى : المقريزى : السلوك ، جـ٣، ق١، ص١٠٥ ما بين ٧٠ إلى ٨٠ قطعة ؛ وفى : ابن تغرى بردى ، النجوم، ٢٩/١١ ، ٧٠ قطعة ؛ وفى : ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٢١، ٧٠ قطعة ؛ أما ابن كثير ، وهو معاصر ، فلم يورد شيئًا فى هذا الصدد ؛ راجع له : البداية والنهاية ، ٣١٤/١٤ ؛ وله أيضًا : الاجتهاد (طبعة القاهرة) ، ص ١١ - ١٢ ، و (طبعة بيروت) ، ص ٧٣ .

أتاها من الفرنج سبعون مركبًا فصاحت بها الغربان فى البر والبحر

فأتى البنادقة فى أربعة عشر غرابًا ، والجنوية فى غرابين ، والروادسة فى عشرة غربان ، والفرنسيس فى خمسة غربان ، والباقى من جزيرة قبرس [١].

ولقد تخير بطرس دى لوزنيان – من غير شك – الوقت الملائم للهجوم على الإسكندرية بهذا الأسطول ، فكان التوفيق حليفه لأسباب هى مزايا فى حد ذاتها – بالنسبة إليه – أتاحت له التوفيق ومن ثم الاستيلاء على الإسكندرية . فقد كان والى المدينة صلاح الدين بن عرام متغيبًا فى مكة بسبب الحج [٢]، فى الوقت الذى كانت فيه حامية المدينة قد تقلصت والحكومة المركزية غافلة عن حاجة المدينة إلي تسليحها وتقويتها[٣] ثقة من أولى الأمر فى

---

(١) الإلمام ، ٢/٢٣٠ . ويفيد نص النويرى السكندرى – وكما أشرنا إليه بالمتن هنا – تعدد الأجناس المشتركة فى هذه الحملة . ويضيف Machaut, p. 57 إلى ما ذكره النويرى السكندرى ، جماعة الإسبتارية واشتراكهم فى الحملة ، وهى الجماعة الدينية التى تجمع أجناسًا مختلفة من الغرب الأوربى . ويقع ذكر الكتيلان والأراجونيين من سكان قطالونيا وأراجون فى شمال شرق أسبانيا ضمن من كان لهم نصيب فى المشاركة فى هذه الحملة ؛ انظر : Madelena Luz Pomes, Los Aragoneses en la conquista Y Saqueo de Alejundria por Pedro I de Chipre, Estudio de Edad media de la Corona de Aragon, tomev, pp. 361 - 405 ، فى العبادى : تاريخ البحرية ، ص ٣٥١ .

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٢/١٣١ . كان جنغرا – كما أشرنا إليه فى موقعه بالمتن هنا من قبل – هو نائب ابن عرام فى غيابه – وكان سيىء التدبير لم يحسن – كما سنرى – مواجهة الموقف ، بل كان همه عندما دخل الإسكندرية نائبًا عن ابن عرام أن يستعرض الجنود من طوائفها المتطوعة الحارسة للميناء ليلة فى كل أسبوع ، ويشعر أنه بمثل هؤلاء الجنود تمتنع الإسكندرية عمن يقصدها مهاجمًا ؛ وفى ذلك يقول النويرى السكندرى ، الإلمام ، ٢/١٣١ – ١٣٢ : (.. فلما دخل جنغرا المذكور الإسكندرية ، رأى طوائفها المتطوعة الحارسة لميناها تنجرّ عليه من الجزيرة بقسيهم الخرج الموترة ، وأعلامهم الحرير المنشورة ، مع ما بأيديهم من المزاريق والرماح ، والدرق والصفاح ، والزرد النصنيد ، ومصفحات الحديد ، والنفط الطيار الصاعد منه لهب النار ، وهم بملبوسهم المختلف الألوان كالزهر فى البستان . فلما عاينهم جنغرا بكى وقال : هؤلاء أهل الجنة لرباطهم وجهادهم فى سبيل الله ، وقد طاب والله العيش بقوة هذا الجيش ، لو أتى إلى الإسكندرية جميع نصارى الرومانية ما قدروا مع هذا الجيش الثقيل على الإسكندرية ، بل يكسرون النصارى ، ويصيرونهم قتلى وأسارى) .

(٣) Atiya, The Crusade, p. 351 .

القاهرة بما كانت تتمتع به المدينة من أمن لم يعكر صفوه طويلاً [١]. هذا بالإضافة إلى أن الموسم كان موسم فيضان النيل وهى فى إبّانه والمياه تغمر الدلتا ولا يسهل الاتصال بالقاهرة إلا بالطريق الصحراوى البعيد ، فكان من المستحيل على هذا إيفاد نجدة سريعة إلى الإسكندرية [٢]. ولكن وعلى الرغم من كل هذه الأسباب التى تُعد من المزايا بالنسبة إلى الملك بطرس ، فقد أدرك المصاعب التى عليه مواجهتها فى المعركة القادمة ، نظراً لما اشتهرت به الإسكندرية لدى الغرب الأوربى من استحكامات وتحصينات وأسوار منيعة وأبراج عالية متينة ومداخلها المزودة بأبواب من الخشب المتين المصفح بالحديد [٣].

على كل حال ، كانت مشاعر أهل الثغر على ما شرحناه منذ قليل[٤] بعد أن لاحظوا عدم دخول سفن الأسطول إلى الميناء وذلك فى يوم الأربعاء ٨ أكتوبر (٢٠ المحرم) . ولكن ما إن لاح صباح يوم الخميس تالية (٩ أكتوبر - ٢١ المحرم) حتى أقبلت مراكب الأسطول قاصدة ساحل الجزيرة ، وقد ملأت البحر إلى أن حطت السفن فى بحر السلسلة (الميناء الغربى) من جهة الباب الأخضر ، فما كان من أهل المدينة - وقد أدركوا حقيقة الموقف - إلا أن بادروا يستعدون للأمر ، فقاموا بتعزيز أسوار وأبراج المدينة من جهة البحر والجزيرة برماة قسىّ الجرخ[٥].

---

(١) انظر : الإلمام ، ١ / ١ - ٢.

(٢) المصدر نفسه ، ٢/١٣٤ : (ودخل - أى بطرس - البلد باطمتنان ، وذلك فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة ، والنيل منتشر على البلاد ، قصد بإتيانه ذلك الزمن لتتعوق النجدة من مصر لبعد الطريق من الجبل) ؛ انظر أيضًا : كاله ، صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٤٤ .

(٣) انظر أولاً : خريطة رقم (٤) ، ص ؛ وانظر أيضًا : كاله ، صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٤١ - ٤٢ ؛ . Atiya, The Crusade, p. 352

(٤) يعبر " مخيراس " أيضًا عن المخاوف الى اعترت أهل الإسكندرية عند ظهور أسطول الحملة ؛ راجع : Makhairas, p. 151 .

(٥) الإلمام ، ٢/١٣٧ - ١٣٨ . والجرخ - والجمع جروخ : نوع من القوس الرامى الذى يرمى عنه النشاب والنفط ؛ انظر : Dozy (R.), Supplement aux Dictionnaires Arabes, Byrouth 1968, tome I, p. 182 .

وهو أحد أنواع القسىّ الذى يقابله فى الإنجليزية لفظ Crossbow وفى الفرنسية كلمة Arabléte ؛ انظر شروح درويش النخيلى على هذا النوع من الأقواس ، فى : كاله ، صورة وقعة الإسكندرية ، ص٦٩ ، هـ٤٥.

وعلى الرغم من أن الملك بطرس كان يمكنه النزول إلى البر فى يوم الخميس ٩ أكتوبر (٢١ المحرم) ، إلا أنه - فيما يبدو - فضل الانتظار إلى صباح اليوم التالى حتى تصل بقية مراكبه كما ذكرنا فى موضعه منذ قليل [١]، أو بسبب انتظار ما تطلعه عليه جواسيسه الذين أنفذهم إلى الساحل لاستطلاع أحوال المدينة كما سنشير إليه بعد أسطر قليلة ، ولكنه - على كل حال - اكتفى بأن أرسل قاربًا لجس الميناء بقميرة[٢] ، أمطره المسلمون بوابل من السهام ، فولى هاربًا حتى لحق بمراكب الأسطول[٣] .

فلما كان بعد الغروب من يوم الخميس هذا ، أوقد أهل الثغر الفوانيس على امتداد السور ، فى الوقت الذى كانت فيه مراكب الأسطول رابضة فى مكانها لا تتحرك من المكان الذى أرست به ، وقد انضم بعضها إلى بعض فى وحدة متماسكة كالطوف الصغير وسط البحر الكبير ، وبدأت مشاعر الناس بالثغر تستهين بأمر هذا الأسطول [٤]. وكان إيقاد الفوانيس إجراءً وقائيًا لمنع تسرب أحد من أفراد الأسطول إلى داخل المدينة تحت جنح الظلام . إلا أن النويرى السكندرى يورد أن الملك بطرس رمى من أعلى الجزيرة فى الليل جواسيسه فى زى لباس المسلمين يتفحصون وسائل الدفاع ، فداخلوا المسلمين ، فلاحظوا تجرد هؤلاء من لباس الحرب ، وقاموا بشراء بعض المأكولات ورجعوا بها إلى الأسطول وأخبروا الملك بطرس بخلو الجزيرة من المقاتلين المسلحين [٥].

---

(١) راجع الفصل الثالث ، ص١٤٣.

(٢) هى أداة لجس الأعماق كما هو واضح من السياق .

(٣) الإلمام ، ١٣٨/٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ١٣٨/٢ - ١٣٩ .

(٥) الإلمام ، ١٤١/٢ - ١٤٢ . وللمقريزى رواية أخرى ينفرد بها فى هذا الصدد ومخالفة لما أورده النويرى السكندرى ، ولكنها تتفق معها على كل فى نزول بعض الفرنج إلى الساحل فى مساء يوم الخميس المذكور ، فهو يذكر نزول جماعة من الفرنج فى يوم الخميس ليلاً بخيولهم ، وكمنوا فى التراب الذى بظاهر المدينة ، ولما ضرب الفرنج نفيرهم (راجع ما جئنا به فى المتن هنا ، ص ١٣٩عن ضرب النفير من سفينة الملك بطرس إعلانًا ببدء الهجوم فى صباح يوم الجمعة) ثم نزلوا إلى البر من مراكبهم ، خرج هذا الكمين وحمل من فيه على المسلمين حملة منكرة ، منضمين بلا شك - حسب رواية المقريزى - إلى الطلائع الأولى التى نزلت إلى البر . ولم نعثر على هذه الرواية ، وإلى جانبها رواية النويرى السكندرى فى المصادر الغربية المعاصرة خاصة دى مزيير - فيما ينقله عنه "يورجا" و"ماشو" . راجع المقريزى : السلوك ، ج٣ ق١، ص١٠٥- ١٠٦.

وقبل طلوع الشمس من يوم الجمعة ١٠ من أكتوبر (٢٢ من المحرم) ، وصل جمع من العربان تقوية لحامية المدينة ولأهلها ، وصاروا يتطاردون على خيولهم خارجين من الباب الأخضر حتى وصلوا إلى الجزيرة لا يحمل الواحد منهم غير سيفه ورمحه[١].

ولما كان بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة المذكور ، تجمع خلق من الأهالى وانتشروا على ساحل الجزيرة ، فمنهم من تسلح بأسلحة خفيفة ، ومنهم الأعزل المجرد من السلاح ، وانتشر معهم الباعة يبيعون على من بالجزيرة من الخاص والعام ، وقد تخلص الجميع من خوفهم من المراكب التى شاهدوها فى يوم الأربعاء ، ولم يعد يفزعهم اجتماع الأسطول فى الميناء [٢] ، والعوام يشيرون الجلبة صائحين يسبون الملك بطرس بصريح العبارة - كما يذكر النويرى - وهو ومن معه ساكت لا ينطق بكلمة [٣]. ولم يدر بخلد الأهالى ما سوف يتعرضون له من كارثة وشيكة الوقوع ، وهم - إلى هذا - لم يكونوا وقتئذ على دراية بأنواع الحروب وضروب الحصار فى موطنهم مما حدا بالنويرى السكندرى إلى أن يقول : (كان الخبر يأتى إلى القبرسى أن الإسكندرية بها طوائف قاعات يبيتون بساحل مينتها لم يعرفوا الحرب ولا باشروه أبداً)[٤]. وكان من أعظم أخطائهم أن خرجوا من تحصيناتهم لكى يواجهوا الموت ، مع ما انضاف إلى هؤلاء الأهالى من حامية ضعيفة مكونة من مجموعة صغيرة من المتطوعة ، وقوة من العربان ينقصها النظام على عزم منع نزول الفرنج من مراكبهم [٥].

وفى الوقت نفسه ، لم يكن جنغرا - نائب ابن عرام - بالشخصية التى يمكن لها أن تجابه الموقف بصلابة وبلا تردد . فعندما أشار عليه المغاربة وعلى رأسهم التاجر عبد الله بإخلاء الجزيرة والانسحاب وراء أسوار المدينة إلى أن تحضر النجدة من القاهرة ، لم يتبين لجنغرا صواب هذا الرأى ، خاصة بعد أن احتج الربط معترضين على هذا الرأى ، لأنهم لم يرغبوا فى

---

(١) الإلمام ، ٢ / ١٤٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ٢ / ١٣٩ - ١٤١ ، ويدل ما أوردناه فى آخر هذه الفقرة على أن الأسطول كان شديد القرب من ساحل الميناء الغربى عند الباب الأخضر .

(٣) يعبر المقريزى : السلوك ، ج٣ ق١ ، ص ١٠٥ ، عن هذه المشاعر خاصة ما كان من الباعة والصبيان، بقوله (... وليس لهم اكتراث بالعدو) .

(٤) الإلمام ، ٢ / ١١٤ .

(٥) راجع : Atiya, The Crusade, p. 354 .

ترك ربطهم وأصروا على البقاء خارج الأسوار للدفاع عنها ، واتهموا التاجر عبد الله وغيره من المغاربة بأنهم يريدون إخراب هذه الربط مثلما تسببوا فى إخراب بلدهم طرابلس الغرب عندما استولى عليها الفرنج[١] ؛ وهنا يعلق النويرى السكندرى على موقف جنفرا من هذه المشورة بقوله : " ولو كان المسلمون تركوا للقبرسى الجزيرة وتحصنوا بالسور ، وقاتلوا من ورائه كل رجس كفور ، لكان المسلمون بتحصينهم بالثغر ، سلموا من القتل والنهب والأسر ، وما كان عليهم من إخراب الربط المبنية لسلامة الإسكندرية ، من أذى الملة النصرانية . فالذين خافوا على ربطهم تخريب ، ودورهم التى داخل البلد نهبت ، وذلك بالرأى غير الصائب)[٢].

وعلى هذا ، ركن جنفرا لكلام أصحاب الربط ، وصم أذنيه عما أشار به التاجر عبد الله المغربى ، وكان جوابه له لا يتعدى قوله : (لست أترك أحداً من الفرنج يصل إلى الساحل ، ولو قُطعت منى الأوداج ، ونفذت المقاتل ؛ وإذا أراد الله أن يلطف بعبده ألهمه حسن التدبير، وإذا خذله شتت رأيه) [٣].

على كل حال ، كان الفرنج فى مراكبهم ينظرون أحوال الناس على الشاطىء وما هم عليه من عدم المبالاة ، فطمعوا فيهم [٤]، ولم يجد الملك بطرس أنسب من صباح هذا اليوم - الجمعة ، وهو اليوم المتفق عليه - لمهاجمة المدينة [٥]، فصمم على المبادرة بعملية إنزال الجنود ، فدوى صوت النفير على الفور فى سفينة الملك معلنًا بداية الهجوم ، فوقف بطرس دى توماس - المندوب البابوى - بأعلى مكان فى سفينته وهو فى كامل سلاحه ، رافعًا الصليب

---

(١) استولى الجنوية بقيادة فيليبو داريا Philippo Daria على مدينة طرابلس الغرب فى عام ١٣٥٤م ؛ راجع : كاله ، صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٧٣ هـ ٥٨ ؛ ولكن انظر أيضًا : النويرى السكندرى ، الإلمام ، ٢ / ٨ ؛ و ٣ / ٦٥ .

(٢) انظر كل ما جاء فى هذه الفقرة فى : الإلمام ، ٢ / ١٤٤ - ١٤٥ . ويشير النويرى السكندرى (١٤٤/٢) إلى أن السلطان الملك الأشرف شعبان رسم - بعد سنتين من وقعة القبرسى - بهدم ما تجدد فى الجزيرة من الربط والقصور احتراز من العدو أن ينزلها فيجد مأوى يؤويه ويتزود بالمياه من صهاريجها .

(٣) الإلمام ، ١٤٥/٢ - ١٤٦ .

(٤) الإلمام ، ١٤٦/٢ . ويقدر " ماشو " من تجمع من المسلمين بعشرين ألفًا ، ومخيراس بعشرة آلاف ؛ انظر على التوالى : Machaut, p. 68 ; Makhairas, p. 151 ؛ ولكن قارن ما أتينا به عن " ماشو " أيضًا فيما بعد ، ص١٦٩و هـ ١ .

(٥) Machaut, Loc. cit. : Si biaus, que plus bel ne convint .

فى يده ، وأخذ يمنح البركة للمقاتلين ، ومن ثم شرع الأسطول فى التقدم نحو الساحل [(١)] ، وانفصلت عن الأسطول أول سفينة بقيادة السير جون دى سير[(٢)] Sir John de Sur – أى سير جون صاحب صور ، وهو لقب اسمى فقط – ، وهى غراب التقدمة الذى يذكره النويرى السكندرى ، فشق غراب التقدمة هذا طريقه نحو البر ، فنزلت إليه طائفة من المغاربة خائضين فى الماء فى محاولة منهم لعرقلته ، فناوشوا من فيه القتال ، حتى إنهم أمسكوا الغراب بزيديهم وطلبوا من الزراقين[(٣)] إطلاق النار ليحرقوه ، ولكن أحداً لم يكترث ، فاستعجلوهم إطلاق النار ، فرموا بمدفع فيه نار كنار الحلفاء وقع فى الماء فانطفأ ، فكان لابد للمغاربة من الدفاع عن أنفسهم بالسيوف ، فالتحموا مع أصحاب الغراب فى محاولة يائسة للنجاة بأنفسهم ، ولكن الأمر انتهى بقتل المغاربة [(٤)]، ومن ثم نجح الغراب فى الدخول إلى الساحل، وتبعه آخر كان يرمى بالسهام : فلما دخلا البر تتابعت الغربان داخلة من أماكن متفرقة ، ولم يلبث الفرنج أن نزلوا سريعًا من مراكبهم بخيلهم ورجلهم ضحى نهار يوم الجمعة إلى البر[(٥)] الموافق للساعة التاسعة صباحًا [(٦)].

---

(١) Vita, in : Jorga, p. 292 .

(٢) Makhairas, p. 151 .

(٣) الزرّاقون – والمفرد زرّاق : وهم الذين يرمون النفط من الزرّاقة ، وهى أنبوبة خاصة يزرق بها النفط ؛ راجع : Dozy, Suppl., I, pp. 587 - 88 .

(٤) قارن : سالم : تاريخ الإسكندرية ، ص ٣٣٠ فهو يقول إثر نصه على إنطفاء نار المدفع : (وحدث خلاف بين المغاربة ، فتضاربوا بالسيف ، وسقط منهم عدد كبير صرعى) ، وهو ما لم يرد فى نص الإلمام الذى يرجع فيه الدكتور سالم إلى لوحة ٧٢ ب من (نسخة الهند) وهى ما توافق لوحة ١٠٣ ب من نسخة برلين ، وفى الإلمام المطبوع ج ٢ ، ص ١٤٦ وهى التى نرجع إليها هنا ، يقول النويرى السكندرى بالحرف الواحد : « فرموا بمدفع فيه نار كنار الحلفاء فوقع فى الماء فانطفأ ثم إن المغاربة وأصحاب الغراب ضربوا بعضهم بعضًا بالسيوف إلى أن قتلت المغاربة فى تلك المحاربة ، فحينئذ دخل الغراب الساحل ... إلخ » .

(٥) الإلمام ، ١٤٦/٢ ؛ وانظر هذه الصورة نفسها لمقاتلة المسلمين للفرنج وهم فى غراب التقدمة فى البحر ، فى : Machaut, p. 68 ؛ وراجع أيضًا : المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٠٥ .

(٦) تكاد تتفق المصادر حول الموعد الذى نزل فيه رجال الحملة إلى البر ووقت اقتحام المدينة ، وإن وقع بعض الاضطراب فى نصوص إحدى نسخ (Vita) لفيليب دى مزيير ، ولكن من السهل تعديلها من نسخة أخرى للكتاب نفسه بما يتفق وما أوردته بقية المصادر . فقد نبه دى ماس لا ترى فى تعليقه على " ماشو " (p. 281 n. 23) على الخطأ الوارد فى النسخة التى يرجع إليها من كتاب فيليب دى مزيير (Viota) التى=

....

= تحدد يوم الجمعة ٤ من شهر أكتوبر تاريخًا للاستيلاء على الإسكندرية Et Capta est civitas magna Alexandriae die Veneris , Octoberis mense quarta die "

ويحدد فى الوقت نفسه من هذه النسخة وقت النزول إلى البر بالساعة التاسعة صباحًا وبوقت اقتحام المدينة بالساعة الثالثة بعد الظهر (عصرًا) .

وقد أشار Jorga, Phil. de Méz. P. 29n, 4 إلى أن هذا الخطأ قد تم تصويبه من نسخة أخرى من كتاب دى مزيير (Vita) بما يتفق والتاريخ المتعارف عليه وهو ١٠ أكتوبر ١٣٦٥م ، ولكنه فى الوقت نفسه (انظر فيه p. 292 and n.2) حدد - استئناسًا بفيليب دى مزيير نفسه - وقت النزول إلى البر بالساعة الثالثة بعد الظهر Hora tertiarum) - وهو ، كما هو مشاهد فى كلمات دى مارس لاترى - وقت اقتحام المدينة ، وهو ما يوافق بعد الظهر Hora nona عند مزيير نفسه (راجع مرة أخرى Jorga, op. cit., p. 295 and n. 4) .
والمشاهد أن " ماشو " (p.96) يحدد بكل دقة وقت النزول بصباح اليوم المذكور - من غير تحديد ساعة معينة - وهو صباح اليوم التالى على انتهاء الاحتفال بعيد القديس دنيس (الموافق ليوم الخميس ٩ من أكتوبر) :
Lendemain de la St. Denis,
Einfois qui li jours fust finis

وهو يتفق وما ذكره دى ماس لاترى ، ويتفق بالمثل وما أورده : النويرى السكندرى ، ١٤٦/٢ ، من نزول الفرنج إلى البر وقت الضحى أى قبل الزوال « ضحى نهار يوم الجمعة » ، وهو ما نجده أيضًا لدى المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١٠٧ « صحوة نهار الجمعة » . وأما تحديد دى مزيير - حسبما يشير دى ماس لاترى - من اقتحام المدينة فى الساعة الثالثة بعد الظهر فهو يكاد يتفق فيه مع مخيراس (p.153) الذى يحدد الوقت بحوالى الساعة الرابعة ، وأيضًا مع النويرى السكندرى (١٦٦/٢) ويحدد الوقت بعصر يوم الجمعة المذكور .

ولقد حدد الدكتور عطية (The Crusade, p. 354) نقلاً من نص (Vita) نفسه الذى يرجع إليه "يورجا". حدد وقت النزول إلى البر بالساعة الثالثة ، ثم هو يستشهد " بماشو " لتحديد هذه الساعة بالذات مشيرًا إلى القطعة الثانية من أشعار " ماشو " وهى حسب ترقيمها (11. 2330) وتقع عند ماشو فى (p.71) من غير أن يذكر الدكتور عطية بيتًا من الشعر بعينه ، ولكن هذه القطعة تتضمن بيتًا يحتوى على الرقم ٣ الذى يستند إليه الدكتور عطية فى تحديد الساعة الثالثة ، وهو :
Qu'il le fist reculer iii. pas

ولا علاقة من قريب أو بعيد بالمعنى الذى يدور حوله هذا البيت والوقت الذى يحدده الدكتور عطية . فقطعة الشعر هذه عند " ماشو " والتى تحتوى على هذا البيت إنما تدور حول ما يقصه " ماشو " عن شجاعة الملك بطرس عندما واجهه - مهاجمًا - واحد من قادة البحر المسلمين إبان المناوشات الأولى للوقعة متحديًا الملك للنزال ومشيرًا إلى أن ما يحاول الملك الاستيلاء عليه هو بلده وأرضه ، وهو يهز فى يده رمحًا ضخمًا بكسوة الحديد يدفع من تسدد إليه الطعنة إلى الوراء لمسافة ثلاث خطوات (الخطوة فى المقياس اللاتينى تقدر بمتر ونصف المتر) فما كان من الملك - كما يورد " ماشو " إلا أن جاوبه ، منتضيًا سيفه بأن عليه (أى هذا=

وكان آميديه الثالث Amedée (أو : آميه الثالث Amé III) - من مشاهير فرسان الحملة - أول من نزل من سفينته خائضًا فى الماء ، فكاد يفقد حياته عندما أحاط به حشد من العربان ، ولم يتخلص من الخطر المحدق به وهو يقاتل ببسالة - كما فى كلمات " ماشو " - إلا بعد أن اندفع إلى نجدته اثنان من مارشالات الملك هما جان دى مورفو Jaen de Mopho وسيمون تينولى[1] Simon Thinoli . وتبع هؤلاء من المشاهير أيضًا فى النزول إلى المياه كل من هيج (هو) دى لوزنيان أمير الجليل Hugues de Lusignan Prince de Galelée - ابن أخى الملك بطرس[2] - ، فيكونت دى تيرين Visconte de Turenne ، وأبديا شجاعة فائقة وهما يناوشان المسلمين القتال ، ثم لم يلبث الملك بطرس نفسه أن غادر سفينته

= القائد) أن لا يشك أيضًا فى حد سيفه القاطع ووطأة ضربته من غير أن يتثلم :

Il avoit lá un amiraut,
Qui estoit venus á L'assaut.
Il dist au roy: " Viens-tu conquerre
"Nostre pais et nostre terre?
" Je te moustreray ta folie,
" Ton outrage et ta cornardie."
Lors donna au roy tel colée,
D'une fort Lance bie ferrée,
Qu'il le fist reculer iii.pas
Li roy li dist: " Tu ne scez pas
" Encor comment m'espée taille,
Mais briefment le saras, sans faille"

(١) Machaut, pp. 69 - 70 .

ولم يذكر " ماشو " فى الواقع غير اسم واحد فقط من هذين المارشالين ، وهو جان دى مورفو ، ولكن " دى ماس لاتيرى " فى حاشية له على " ماشو " (انظر فيه : P, 280 n. 20) يذكر المارشال الثانى على أنه سيمون تينولى بعد تحليلات استعان فيها بما ورد - فى غير هذه الواقعة - عند كل من " مخيراس " و"سترامبالدى " - الذى يطلق على سيمون تينولى اسم سيمون دى نورس Simon de Norés ؛ راجع : Jorga, Phil. de Méz., p. 293; Atiya, The : وقارن أيضًا ، Makhairas, p. 151 ; Strambaldi, p. 67 Simon de Norés : فهما يذكران الاسم الأخير ؛ Crusade, p. 335

(٢) راجع شجرة نسب وأسماء أسرة دى لوزنيان التى ألحقها دوكنز Dawkins - نقلاً من " دى ماس لاترى - فى آخر الجزء الثانى من كتاب " مخيراس " .

شاهراً سيفه ، وهو فى كامل عدته ، فرمى بنفسه فى غمار المعركة[١] التى كانت تدور وتتئذ فى مـيـاه الميناء الغـربى ، وقـد انضم إليـه كل من بريمون دى لافـونت Cremond de la Vaulte، وبرسفال الكولونى إثر نزولهما من سفينتهما ، وأظهر الملك بسالة نادرة - على ما يحكى " ماشو " خاصة وهو يواجه تحدى واحد من قادة البحر المسلمين ، على ما ذكرناه فى مـوضـعـه [٢]؛ وبرهن كل من جان دى مورفو وجى دى بافيه Gud de Baveus عى شـدة بأسـهـما بعـد أن قتـلا مجموعـة من المسلمين ؛ ثم لم يلبث أن نزل من جنود الحملة نحو من ثمانية آلاف مقاتل إلى مياه الميناء ، فانضموا إلى هذه الطلائع المقاتلة ، والملك يصيح فيهم أن يتقدموا ، والقتـال متواصل فى ضراوة حتى اصطبغت مياه الميناء باللون الأحمر بعد أن سقط من الجانبين عدد كبير من القتلى ، واستمر ضغط الصليبيين فلم يلبث أن اندفع المسلمون خـارجين من الماء ، فواصل الفـرنج تقـدمـهم فنجـحوا من ثم فى الاسـتـيـلاء على شـاطىء الميناء[٣].

وفى الوقت الذى كان فيه المسلمون يقاومون بعنف على شاطىء الميناء الغربى ، نزل أميرال رودس[٤] من سفينته بفرقته من فرسان الإسبتارية على يسار الجهة التى يدور فيها الاشتباك، أى فى الميناء الشرقى ، حيث ذراع الأرض الذى يوصل شبه الجزيرة بالمدينة ، فتسنى له بذلك مـهاجـمـة مؤخرة المسلمين الذين انحصروا بين القوتين المهاجـمـتين ، فتراجعوا وهم يتكبدون خسائر فادحة فى الأرواح ، والإسبتارية يطاردونهم إلى أن ألحقوهم بباب المدينة[٥] .

---

(١)انظر : Machaut, p.71.

Li roys de sa galée,
L'espée su poing, la teste armée
Et entra dedens la bataille.

(٢) راجع ما فات هنا من قبل ، ص١٦٣بقية هـ٦.

(٣) كل ما جاء فى هذه الفقرة موجود فى : Machaut, pp. 70 - 76 .

(٤) هو فـرلينو دايراسـكا Ferlino d'Airasca ، قائد فرقة الاسبتـارية المكونة من مائة فارس ، وكان مقدم الاسبتارية فى رودس قد جهزهم للمشاركة فى الحملة ؛ انظر : jorga, phil. de Méz., pp. 281 , 293.

(٥) Machaut, pp. 76 - 77 ؛ وانظر أيضاً : Jorga, Phil. de Méz., p. 293 .

والمقصود بباب المدينة الذى يذكره " ماشو " هنا بالمتن ، هو باب البحر بالميناء الغربى كما يدل عليه السياق من تتابع الأحداث فى إثر ذلك مباشرة ؛ وراجع عن باب البحر ، ما جاء هنا من قبل فى الفصل الثالث عند الكلام على أبواب مدينة الإسكندرية ؛ وانظر خريطة رقم (٤) .

ويستكمل لنا النويرى السكندرى فى وصف حَىّ - يتميز بإسهاب لا نجده لدى غيره من المعاصرين والمتأخرين - هذه الصورة التى أوردها " ماشو " ، فيتكلم عى سرعة وصول الفرنج إلى البر وخيالتهم توالى الرمى على المسلمين بالسهام ، يتقدمهم أصحاب الدرق(١) والسيوف فى أيديهم مشاة على الأقدام (٢).

ثم يواصل النويرى السكندرى كلامه ، فيورد أيضًا فى تصوير واقعى ما حل بأهل الإسكندرية من اضطراب وفزع أديًا إلى فوضى متناهية بينهم بعد أن نجح الفرنج فى أن تطأ أقدامهم الساحل ؛ فقد ترك الباعة موائدهم بما عليها من أطعمة ولاذوا بالفرار فى خوف بالغ ، والفرنج فى إثرهم ، فقُتل منهم من قُتل ونجا من نجا ، وسهام الفرنج تلاحقهم وهم يوالون الرمى على العريان (٣). المنهزمين أمامهم لا يلوون على شىء " فطاروا كطيران الحمام "(٤) .

---

(١) الدرقة - والجمع درق : الترس الدائر ، وتصنع من الجلود خاصة ؛ انظر : ابن هذيل (على بن عبد الرحمن الأندلسى) ، حلية الفرسان ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ و هـ .

(٢) الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٧٩ ب : " فرمت الخيالة على المسلمين بالسهام ، يقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام " . أما فى الإلمام المطبوع ، ١٤٦/٢ ، عن نسخة برلين ، لوحة ١٠٣ب ، فقد جاءت العبارة فيها محرفة تقلب المعنى المقصود تمامًا : " فرمت الخيالة المسلمين بالسهام ، يتقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام " . فكأن خيالة العريان هم الذين رموا على الفرنج ، وهو ما يخالف واقع الحال ، وما جاء فى نسخة الهند هو الصواب . وقد كان الدكتور عطية - ناشر الإلمام - قد تابع الخطأ نفسه فى : The Crusade, p. 355 ، مما ترتب عليه نتائج تبعد عن الواقع ، وهو ما سوف نعلق عليه أيضًا فى موضعه هنا فى الحاشية التالية .

(٣) يقول الدكتور عطية (The Crusade, pp. 355 - 356) وهو يصور لنا مقاتلة الفرنج للعريان : "... أما المقاومة الوحيدة المنظمة ، فكانت تتمثل فى جماعات العريان الذين تشكلت مقدمتهم من المشاة وتكونت مؤخرتهم من الخيالة . ولم يتحمل رجّالة المسلمين إلا بصعوبة تلك الصدمة الناتجة عن تكتيكات فرسان الفرنج المسربلين بالزرد ، فى الوقت الذى ارتشقت فيه سهام الصليبيين فى خيول المسلمين فى المؤخرة ، فهجت بهم الخيول مجفلة بين صفوفهم " ، وهو يسوق كل هذا اعتمادًا على النص المحرف فى نسخة برلين (لوحة ١٠٣ ب ؛ وفى المطبوع : ١٤٦/٢) الذى أتينا به وعلقنا عليه فى الحاشية السابقة - هنا . فما جئنا به من نسخة الهند (لوحة ٧٩ب) فى المتن منذ قليل وفى الحاشية ذاتها لا ينص على تكون جماعة العريان من الخيالة والرجالة ؛ فالنويرى السكندرى لم يذكر عن العريان أم مقدمتهم من الرجالة ومؤخرتهم من الخيالة . فما أوقع الدكتور عطية فى الخطأ فى كتابه المذكور ثم فى نشره للإلمام عن نسخة برلين هو هذا النص المتناقض مع نص نسخة الهند ، أى أن ما ذكره أولاً خطأ ترتبت عليه هذه النتيجة الخاطئة وهذا التخريج البعيد عن الحقيقة عن خيالة ومشاة العريان كمؤخرة ومقدمة .

(٤) الإلمام ، ٢ / ١١٦ .

وقد أجفلت خيولهم مندفعة وهى تتشتت على غير هدى ، والعريان يتراجعون منكسرين نحو سور المدينة أمام الفرنج المتسربلين بكامل عدتهم ؛ فما كان من الأهالى - وقد شاهدوا هزيمة العريان وفرارهم وإجفال خيولهم - إلا أن تدافعوا نحو الأبواب يطلبون النجاة بأنفسهم ، وتزاحموا عليها فى فزع وخوف ، فمات من مات ، وإن ثبت البعض منهم واجتهد فى مقاتلة الفرنج فقَتَل منهم إلى أن استُشهد(١).

وهنا تكاد تتقابل تلك الصورة التى أوردها النويرى السكندرى(٢) كما بيناها وما يسوقه " ماشو " مع رضافة فى السياق ؛ فهو يشرح كيف حاول كل فرد من الأهالى الفارين أمام جنود الملك بطرس أن يعمل جهده على النجاة بحياته باللجوء إلى داخل السور طلبًا للحماية ، وكيف عمد المسلمون إلى محاولة إغلاق باب المدينة وفشلهم فى أول الأمر نظراً لكثرة الجثث التى تساقطت فى أعداد كثيفة أمام الباب ، ثم تمكنهم أخيراً من إغلاقه بصعوبة شديدة (٣).

---

(١) الإلمام ، ١٤٧/٢ - ١٤٩ ؛ وفى كلمات النويرى السكندرى (١٤٧/٢) يصف ما كان عليه الفرنج من سلاح وعدة وانهزام المسلمين نحو السور : " ... كانت الفرنج مسربلة بالزرد النضيد ، متجلببة بصفائح الحديد ، على رؤوسهم الخوذ اللامعة ، وبأيديهم السيوف القاطعة ، وقد تنكبوا القسى الموتورة ، ورفعوا أعلام الصلبان المنشورة ، وصاروا يرمون على المسلمين (بالسهام) ، فارتشفت سهامهم فى أهل الإيمان ، وفى خيول العريان ، فهجت بهم الخيول فى كل جهة ومكان ، فانهزموا إلى ناحية السور " .

ثم يقول معلقًا فى موازنة بين كمال عدة الفرنج وانعدام تسلح المسلمين (١٤٧/٢ - ١٤٨) ؛ " وكانت الفرنج لابسين الحديد من الفرق إلى القدم ، والمسلمين كلحم على وضم ، فكيف يقاتل اللحم الحديد ، وكيف يبرز العارى لمن كُسى الزرد النضيد ؟!" .

وفى مقام استشهاد من استشهد ممن قاتل الفرنج ، يبرز لنا النويرى السكندرى (١٤٨/٢ - ١٤٩) صورة أخرى عن جسارة بعض أهالى الإسكندرية من غير المقاتلين ، منهم الشريف الجزار الذى هجم على الفرنج بساطور المجزرة " فجعل عظام جماعة منهم مسكرة " وهو يكبِّر إلى أن استشهد ؛ وأحد فقهاء المكاتب هو الفقيه محمد بن الطفّال ، رؤى وهو يقصد الفرنج ويضرب بسيف فى يده والفرنج يضربونه إلى أن " رزق الشهادة " .

(٢) الإلمام ، ١٤٨/٢ : " ثم إن أهل الإسكندرية لما رأوا ما لم يعهدوه أبداً ، ولا شاهدوه على طول المدى، رجفت منهم القلوب ، وصار كل واحد من عقله مسلوب ، لما رأوا من الرؤوس الطائرة ، والخيول الفائرة، فتزاحموا على الأبواب بعضهم على بعض ، فصاروا موتى بالطول والعرض " .

(٣) Machaut, p. 77 .

كل هذا يدور ، فى الوقت الذى حوصرت فيه جماعة من رماة قاعة القرافة المتطوعة فى رباطهم - الذى بناه لهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن سلام - حيث كانوا يبيتون ويقيمون صلواتهم [١]؛ ولما تكاثر الفرنج حول الرباط شرع رماة المسلمين فى أعلاه يرمون على الفرنج بسهامهم ، فقتلوا من الفرنج جماعة ، ثم نفدت سهامهم ، فعمدوا إلى شرفات الرباط يهدمونها ويرمون الفرنج بأحجارها ، ثم انقطع رميهم بعد أن نفدت حجارة الشراريف ، فتقدم الفرنج فكسروا شبابيك الرباط وصعدوا إلى الرماة - وكانوا يزيدون على الثلاثين - فذبحوهم بأجمعهم بخناجرهم باستثناء اثنين سقطا أسيرين فى أيدى الفرنج وثالث كان مختفيًا بصهريج الرباط ، وصارت دماء القتلى تجرى من ميازيب الرباط كجرى الأمطار وهى تتسرب منها ، وشوهدت هذه الدماء بعد الوقعة وقد تجمدت تحت هذه الميازيب [٢].

وخلال تلك الفترة ذاتها ، أصيب الأمير جنغرا بجراح من سهام الفرنج أثناء القتال الذى كان يدور ، وهو يشهد عملية هروب الأهالى ، فأحس الندم - ولكن بعد فوات الأوان - على مخالفته ما أشار عليه به التاجر المغربى من إدخال الناس إلى المدينة ليتحصنوا بأسوارها المنيعة ، وقصد إلى ناحية المطرق المحاذى لدار السلطان غربى الإسكندرية من ظاهر سورها خائضًا بفرسه فى الماء ومن تبعه من المسلمين ، فدخل الإسكندرية من باب الخوخة ، وأتى بيت المال - الواقع فى غرب المدينة - فأخرج ما به من ذهب وفضة من باب البر [٣]، ثم أمر بتجار الفرنج وقناصلهم المقيمين بالإسكندرية - وكانوا نحو الخمسين - أن يُنقَلوا تحت حراسة

---

(١) ويقع هذا الرباط بأرض الجزيرة . انظر خريطتنا رقم (٣) ، ص ١٥٣.

(٢) الإلمام ، ٢/١٥٠ - ١٥٢ . ويستقى النويرى السكندرى هذه الواقعة من الفقيه عبد الله بن أبى بكر قَيِّم مسجد القشيرى ، وهو مَنْ كان مختفيًا فى الصهريج المذكور . أما من لم يقتلهما الفرنج وأسروهما ، فقد حدَّث النويرى السكندرى عنهما الشيخ أحمد بن النشائى شيخ رماة قاعة القرافة بالإسكندرية فيما رواه له محمد الخياط أحد المأسورين - عند عودته من جزيرة قبرس مع العائدين من أسارى الإسكندرية - الذى أبقى الفرنج على حياته لصغر سنه ؛ أما الآخر ، فيعرف بحسين البياع ، لما أرادوا قتله ضحك لهم ، فضحكوا لضحكه وقالوا : " اتركوه لأنه ضحك موضع الخوف " ، فاستأسروه هو الآخر .

(٣) لم يحدد النويرى السكندرى هنا اسم هذا الباب ، ولكن يبدو أنه باب رشيد ؛ قارن : المقريزى ، السلوك ، ج٣ ق ١ ، ص ١٠٦ .

الجـبليـة[1]، وقد امتنعوا فى بداية الأمر عن الخروج ، فضرب أحد الجبلية عنق واحد منهم بسيفه ، فحين رأوا ذلك خافوا أن يُثَنّى بهم فأذعنوا بالخروج على وجه السرعة ، فأخرجوا من باب البـر[2] وهم مقيدون بالسلاسل ، وتوجه بهم الجبلية إلى دمنهور[3] . ومن المحـتـمل أن هؤلاء الجبلية قد أرسلوا إلى جانب هذه المهـمة مع توصية لإطلاع السلطان فى القاهرة على الوضع الحرج الذى تمر به مدينة الإسكندرية ، وللحث على الإسراع لانفاذ معونة عسكرية عاجلة لنجدتها [4].

وفى أثناء خروج الجبلية بتجار الفرنج وقناصلهم ، كان جنود بطرس قد اقتربوا من السور ، فبدأ المسلمون يرمونهم من أعلاه بالسهام ، فتعذر عليهم الوصول إليه لاقتحام المدينة من باب البـحر[5] على الرغم من الجهود الى بذلوها[6] . فقد عمد الفرنج " إلى بتّيّة خشب ملأوها حريقًا ، وقصدوا بها حرق باب البحر بكركرتها بأسنة الرماح ، فتتابعت عليهم السهام من أعلى السور ، فقُتل من الفرنج جماعة ، فحاروا فى أمرهم ماذا يفعلون ، فتركوا البتية تقد بنارها بعيداً عن الباب ، ورجعوا إلى ناحية الميناء الشرقية " [7]. أمام هذه المقاومة العنيدة الى تبذلها القـورة المقاتلة والتى تم شحنها فوق الأسوار العالية وفى الأبراج ، وهى القوة المكونة من أكثر من عشرين ألف مقاتل من الرماة عن قسيّ الجرخ ، كما فى كلمات

---

(١) المقصود بهم : الشرطة Die Polizisten كما فى كلمات : Kahel (paul), Die Katastrophe Des Mittelaterlichen Alexandria, dan : Mélange Maspero, III, Orient Islamique, Tome LXVIII (1940), Imprinerie de L'Institut Français D'Archéologie Orientale, Le Caire, 1940, p. 147 .

(٢) لم يحدد النويرى السكندرى هنا أيضًا اسم هذا الباب ، ولكن الراجح لدينا أنه باب رشيد .

(٣) الإلمام ، ٢ / ١٥٤ - ١٥٦ .

(٤) Atiya, The Crusade, p. 358 .

(٥) الإلمام ، ٢ / ١٥٦ .

(٦) Machaut, p. 77 .

(٧) بتيـة خشب - بكسر أو ضم أوله ، والجمع : بتاتى ، وبتيات - بمعنى : برميل من الخشب ، راجع : Dozy, Suppl., I, p. 50 .

مـاشـو"(١) فظلت الإسكندرية حتى وقتئذ سالمة وراء أسوارها ، ولم يبد عليها أنها سوف تسقط قريبًا فى أيدى الفرنج(٢) ، نظرًا لتركز الرماة بتلك الأعداد الكثيفة فى الجهة الغربية من السور الشمالى خلف باب البحر المواجه للجزيرة والميناء القديم حيث يستقر الصليبيون بأسطولهم ، إذ تبدو هذه الناحية من المدينة وكأنها الموضع الوحيد المكشوف الذى يسهل تعرضه للهجوم ومن ثم اقتحامه ؛ أما بقية السور الشمالى فى امتداده إلى جهة الشرق ، فقد كان فى مأمن ويصعب الاقتراب منه لأن مياه الميناء الشرقى تحده من الشمال ، ومياه الخليج - أى ترعة المحمودية حاليًا - تقع إلى الجنوب منه ، وهما بذلك شكلا خندقين طبيعيين من المياه يقطعان اتصال الصليبيين عما وراءهما (٣)، ومن هنا - فيما يبدو - كانت خطة الملك بطرس فى مهاجمة الإسكندرية من عند مينائها الغربى ثم فشله فى اقتحام سور المدينة وحرق باب البحر للنفاذ إلى داخل المدينة .

وهنا لم يجد الملك بدًا من إصدار أوامره بتوقف جنوده عن مواصلة الهجوم ، فدوّى النفير معلنًا ذلك ؛ وأحجم الملك عن الاستمرار فى محاولة الاقتحام ، فأمر جنوده بالتراجع عن الباب - فيما يتفق وما ذكرناه عن النويرى السكندرى الآن - خاصة وأن محاربيه قد أرهقهم القتال، وأصدر أمرًا آخر فى الوقت نفسه بأن يتهيأ بقية الجنود فى المراكب بلباس الحرب وينزلوا ببقية الخيول إلى الجزيرة التى كانت قد وقعت تمامًا فى أيدى الصليبيين ، فما لبثوا أن

---

(١) Machaut, pp. 77 - 8 :

Quant il furent dedens la ville,
Li Sarrazin, plus de xx. mille,
Monterent par dessus les murs,
Qui estoient haus et feürs,
Et n'i avoit porte ne tour
Qui n'eüst arbalestre à tour,
Et qui ne fust ters bien garnie
De trestoute autre artillerie

ولكن راجع ما فات هنا من قبل ، ص ١٦٠ هـ٤، فهو العدد نفسه الذى سبق أن ذكره " ماشو " (p. 68) عن جموع المحتشدين من أهالى الثغر فى الجزيرة والفرنج يرقبونهم من مراكبهم .

(٢) Jorga, Phil. de Méz. p. 293 ; Atiya, The Crusade, p. 358 .

(٣) انظر : Atiya, op. cit., pp. 358 - 9 .

لحقوا وخيولهم بالملك ، فوجدوه وقد ترجّل عن ظهر جواده رافعًا علمًا قد تخرقّ من كثرة السهام التى أصابته ، وهنا أمر الملك بطرس الجميع بأخذ قسط من الراحة وإسعاف الجرحى ومداواتهم ، فى حين ترك له الجميع فرصة التفكير فى كيفية أخذ المدينة [١].

وعلى كل حال ، فقد دعا الملك بطرس - إثر هذه الأحداث - إلى اجتماع مجلسه الاستشارى لمناقشة الخطة التى عليهم اتباعها للتمكن من الاستيلاء على المدينة ، خاصة بعد مقابلتهم للمسلمين وجهًا لوجه ، وما أدت هذه المواجهة إلى الوضع الذى أصبحوا هم عليه ؛ فانبرى واحد من البارونات من أمراء البحر[٢] Amiraut المتذمرين موجهًا كلامه إلى الملك بطرس مبديًا معارضته لمعاودة القيام بالهجوم على المدينة ، وعارضًا انسحاب الجيش لتجنب إهدار وإراقة دم الصليبيين فى مغامرة طائشة ، وأخذ يعلل كلامه بأن الإسكندرية مدينة حصينة ذات موارد ضخمة وأسلحة وافرة ، ويستحيل التغلب على أسوارها وعلى حاميتها ورماتها الذين يمكن لهم إحباط أية محاولة لاقتحام أسوارها ، ومن ثم فمن الخطأ البين مهاجمتهم ، إذ إن المسألة هنا ليست مسألة شجاعة وبسالة ، بقدر ما هى حاجة ملحة لتجنب هجوم تبدو نتائجه مخيبة للآمال إلى حد كبير ؛ وأضاف إلى هذا أنه إذا قدر لهذه الحملة مواصلة تقدمها داخل البلاد فيما وراء الإسكندرية ، فمن الضرورى أن يؤخذ بعين الاعتبار انعدام وجود معاقل أو حصون فى الطريق إلى القاهرة أو حتى إلى بيت المقدس يمكن للصليبيين اللجوء إليها عندما تضطرهم الظروف إلى ذلك ؛ ثم احتج بعد كل ذلك بأن عدد جنود الحملة سوف يتناقص باستمرار ؛ ولما أنهى الأميرال كلامه بعد أن استمع إليه أعضاء المجلس باهتمام زائد ، عقّبوا مؤمنين على كلامه بأن ما نطق به هو الحق الصُّراح [٣].

---

(١) Machaut, pp. 78 - 80 .

(٢) لم يذكر لنا " ماشو " هنا اسم هذا الأميرال ، ولكن من المحتمل - كما يرى Jorga. Phil. de Méz., p. 294 n. 2 - أن يكون من عناه " ماشو " هو أميرال رودس أى أمير بحرية جماعة الاسبتارية ، أو هو كما يرجح أيضًا أميرال قبرص ، وإن كان يؤكد بالمثل أن كلاً من قائد بحرية رودس وقائد بحرية قبرص كان ضمن المتذمرين ؛ انظر أيضًا : Atiya . The Crusade, p. 357 n. 3.

(٣) Machaut, pp. 80 - 2 ؛ وانظر أيضًا : Atiya, The Crusade, p. 357 وكانت عبارة أعضاء المجلس الأخيرة التى وجهوها إلى الملك ويعلنون فيها فى الوقت نفسه ولاءهم له :

" Sir, par nostre loyauté,

" Il vous dit pure vérite".

وبعد أن استمع الملك إلى الجميع ، تطلب الأمر فى الرد عليهم أن يستثمر فيهم النخوة والحمية لمواصلة القتال ، فما كان منهم - خوفًا من أن يلقى أحد باللوم عليهم ويعيب موقفهم المتخاذل - إلا أن وافقوا الملك على معاودة الهجوم على المدينة المنيعة للاستيلاء عليها ، وأبدوا تمام استعدادهم للانصياع لأوامره ، فأمر الملك بمناد أن ينادى بين جميع الرتب من أعلاها إلى أدناها باجتماع الرأى على اقتحام المدينة ، وأن ينادى بينهم أيضًا بمنح أول رجل يعتلى الأسوار مكافأة مقدارها فلورين Florin ذهبًا ، وخمسمائة للرجل الثانى وثلاثمائة للثالث [١].

على كل حال ، نشط الفرنج مرة أخرى لمعاودة الهجوم على المدينة إثر انفضاض اجتماع المجلس المذكور ، فتراجعوا متجهين إلى ناحية الميناء الشرقى فى محاولة منهم لكى يتلمسوا موضعًا آخر ينفذون منه إلى داخل المدينة - على الرغم من إداركهم صعوبة اقتحام المدينة من ناحية الميناء الشرقى للأسباب التى ذكرناها من قبل[٢] - ورفعوا بأنظارهم فلم يجدوا وهم فى سبيلهم إلى الميناء الشرقى ، على السور فى تلك الجهة من يدافع عنه ، ولاحظوا أيضًا عدم وجود خندق يعوقهم عن تسلق هذا السور [٣]، وكانوا قد اقتربوا من الباب القائم فى هذا

---

(١) Machaut, pp. 82 - 4 وجاءت كلمات " ماشو " (p.84) عما أعلنه المنادى عن المكافأة المشار إليها كما يلى :

Avec ce , Le Crieur cria
Que le Premier aui mintera
Sus lex murs, ara sans doutance
Mil Petis florins de Florence;
Li secons en vc,
Li tiers ccc., et ce fu senz.

وقارن أيضًا : . Jorga, phil. de Méz., p. 294 and n, 4; Atiya, The Crusade, p. 357

(٢) راجع ما تقدم هنا .

(٣) راجع : الإلمام ، ٢١٣/٣ ، فهنا يأتى النويرى السكندرى بتفسير يعلل به عدم وجود خندق إلى جانب هذا الموضع من السور ، فيقول بأن البحر فى الزمن القديم كان يضرب فى السور مكونًا خندقًا طبيعيًا بإزائه ، ثم انحسر البحر بمرور الزمن إلى مسافة من السور ، وطال الأمن بالمدينة ، فأهمل المسلمون ذلك الموضع من حفر خندق به كبديل عن حماية البحر الطبيعية . انظر : خريطة الطبوغرافية رقم (٣) ، وخريطة الاقتحام رقم (٤) .

الجانب من السور الذى يخلو من المدافعين وهو باب الديوان ، ومن ثم تقدموا فى الجاهد[١] ، خاصة بعد أن تنبه الملك بطرس - فيما يرويه " ماشو " - إلى ماكان أخبره به برسيفال الكولونى من أن للإسكندرية بابا صغيراً يسمى باب الديوان [٢]، وهو باب ضعيف يوجد خلفه مبنى الديوان الذى تخزن فيه البضائع الواردة إلى الإسكندرية ويكاد يخلو من الحماية ؛ وعلى هذا أمر الملك بطرس بشن الهجوم على هذا الباب وطلب من برسيفال الكولونى أن يرشد الجنود إليه بقيادة كونستابل قبرس واثنين من مارشلاته ؛ ومن ثم دوى صوت النفير إيذانًا بالشروع فى عملية الهجوم الأول ، ولكن ما إن اقترب المهاجمون من باب الديوان حتى خرج إليهم المدافعون من فوق الأسوار بخرجة هجوم Sortie من باب البحر ، واشتبكوا مع الفرنج وصدوا تمامًا أول هجوم لهم على الباب ، فتراجع الصليبيون فى الوقت الذى كانت تُقذَف فيه عليهم الحجارة الكبيرة من المناجيق ويتوالى عليهم الرمى بالسهام من أعلى الأبراج ، فكان أول ضحية من جانب الفرنج فى هذا الهجوم الأول واحد من الفرسان الاسكتلنديين الذى أصيب بحجر كبير قضى عليه وهو يحاول الاقتراب من باب الديوان ، فى حين أصابت السهام بعض جنود الفرنج بالجراح ، ومن ثم انهزموا متراجعين كما أشرنا ، مما أحزن برسيفال الكولونى ، فتوجه من فوره إلى الملك بطرس يخبره بفشل الهجوم ، وطلب من الملك أن يعزز المهاجمين بمن معه ويقود بنفسه الهجوم على الباب لكى يستثير فى جنوده الحماسة ؛ فقام الملك من فوره وامتطى صهوة جواده مع من كان معه من فرقة الاحتياطى والفرسان الاسبتارية ونزل أولاً فى موضع بين باب الديوان وباب البحر حتى يحمى مؤخرة جيشه وليحول دون المسلمين بأن يقوموا بخرجة هجوم أخرى من باب البحر تلحق الهزيمة بهذه المؤخرة كما فعلوا فى المرة الأولى، فى الوقت الذى وصل فيه جنوده إلى باب الديوان . ولما اطمأن الملك إلى عدم خروج المسلمين مرة أخرى ، انضم إلى جنوده عند باب الديوان وترجّل عن فرسه والسيف فى يده ، ومن ثم شرع فى شن الهجوم الثانى على الباب[٣] .

---

(١) الإلمام ، ٢ / ١٥٧ .

(٢) راجع الفصل الثالث ، ص١٥٠ ، هـ٧.

(٣) Machaut, pp. 84 - 8 .

هذه الرواية التى يأتى بها " ماشو " لا نجد لها مثيلاً عند النويرى السكندرى الذى يكتفى - كما سنورده بالمتن هنا فى الفقرة التالية - ذكره خلو هذه الجهة تمامًا من الرماة ، ثم يورد الأحداث بعدها مغفلاً أيضًا نشوب أى اشتباك مع الفرنج قبل حرقهم باب الديوان واعتلائهم السور - كما سنورد أيضًا بعد قليل =

وكان هذا الباب فى هذا الموضع ، يمثل فى الواقع نقطة الضعف الخطيرة والوحيدة فى نظام الدفاع عن هذه الجهة من السور ، مما أدى أخيراً إلى تلك النكبة العظمى التى حلت بعد قليل بمدينة الإسكندرية (١). فقد كان هذا الباب هو المنفذ الذى تدخل منه البضائع الواردة إلى الإسكندرية - كما أشرنا فى موضع سابق(٢) - ثم تُكَدَّس هذه البضائع فى مبنى الديوان ، ولا يُفرج عن هذه البضائع إلا بعد أداء الرسوم التى تفرض عليها . وكان الخطأ الذى تسبب فى هذه الكارثة هو ترك هذا الموضع بلا حراسة ، لأن كاتب الديوان شمس الدين بن غراب وناظر الديوان شمس الدين بن أبى عذيبة عمدا إلى غلق أبواب الديوان الداخلية أى التى تلى البلد حتى لا يتمكن التجار من نقل بضائعهم منه إلى داخل المدينة فيضيع على هذا حق الدولة فى الضرائب المفروضة عليها (٣)، ومن هنا خلت تلك الجهة من السور من الرماة ، مما أتاح للفرنج جهة خالية دخلوا المدينة منها ؛ ونتيجة لذلك لم يعد فى الإمكان الوصول إلى هذا الموضع من السور حيث باب الديوان من خلال أبوابه المغلقة من الداخل ؛ يضاف إلى هذا وجود قلعة صغيرة تعرف بقلعة ضرغام(٤) بين باب البحر ، فتعذر عليهم التوجه سريعًا إلى باب

= بالمتن هنا - ، فما أسقطه النويرى السكندرى من روايته يكمله هنا " ماشو " كما نلاحظ ، فقد كان من البديهى أن يقوم المسلمون - والفرنج يتقدمون فى أول هجوم لهم نحو باب الديوان - بمدافعة الفرنج عنه ، فكانت خرجتهم المذكورة لصد هذا الهجوم من جانب الفرنج وهو ما نجحوا فيه ، إذ ليس من المعقول والمسلمون يشاهدون الفرنج من أعلى الأسوار عند باب البحر وفى أبراج السور فلا يقومون بمثل هذه الحركة لحماية باب الديوان الذى يخلو سوره من المدافعين .

(١) قارن : Atiya, The Crusade, p. 395 .

(٢) راجع ، ص ١٥٠ ، ١٧٢.

(٣) سرت الشائعات بعد الوقعة بأن غلق باب الديوان إنما كان عن قصد من كاتب الديوان شمس الدين بن غراب ، فقد اتهم بأنه استضاف الملك بطرس قبل الوقعة - وكان كما يقال أيضًا قد زار الإسكندرية متخفيًا فى زى تاجر - فأتاح هذا للملك بطرس التعرف على أحوال مدينة الإسكندرية .

(٤) أصل التسمية فيها (برج ضرغام) نسبة إلى أبى الأشبال ضرغام بن سوار فى وزارة العادل بن رزيك على عهد الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله وكان بناؤه فى سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢م) ؛ جاء فى : المقريزى : اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧٣ ، ٢٥٦/٣ : « وفيها (أى سنة ٥٥٧هـ) أنشأ الأمير أبو الأشبال ضرغام ابن سوار البرج عند باب البحر بالإسكندرية ، فعرف ببرج ضرغام » ؛ وقد تولى ضرغام الوزارة للعاضد فى سنة ٥٥٨هـ إثر صراعه المعروف مع شاور على هذا المنصب ؛ راجع : المصدر نفسه ، ٢٦٠/٣ - ٢٦١ .

الديوان لحمايته عندما تعرض للهجوم ، ولكن - كما يشير النويرى السكندرى - لو احتيط للأمر بتعمير جميع السور الذى يلى البحر من جهة مبنى الديوان وسلمت الإسكندرية وبالتالى لو كان شمس الدين بن غراب فتح باب الديوان الذى يلى البلد لتمكن المسلمون من مقاتلة الفرنج من أعلى سوره ولما سقطت الإسكندرية وتمكنوا أيضًا من استغلال ما فى مبنى الديوان من نُقل الشام يقتاتون منه ولتمكن كذلك أصحاب البضائع من حراستها وإطعام المدافعين عن المدينة منها [١].

على كل ، بدأ الملك بطرس هجوم على باب الديوان ، وأطلق الفرنج - كما يورد " ماشو" - النار فيه يحرقونه وهم يحاولون تثبيت السلالم على السور ، فى الوقت الذى اكتشف فيه واحد من البحارة الفرنج فتحة صغيرة أسفل السور قريبًا من باب الديوان تصب عندها قناة تمد الإسكندرية بالمياه العذبة عند هذا الجانب [٢]. والمكان يخلو من المدافعين ، فدخل إلى الفتحة، وارتقى درجات فيها بداخل السور ، وتبعه واحد من الركابية يساعده ، فتمكنا بذلك من الصعود إلى ممشى السور ، وأعانا على تثبيت السلالم على السور [٣]، وهى السلالم التى ذكرها النويرى السكندرى واصفًا لها بأنها من الخشب مفصّلة ومركّبة بعضها فوق بعض[٤]؛ وصاح البحار والركابى فى الجنود أسفل السور : « تقدموا أيها السادة ، واصعدوا ، اصعدوا » [٥]، فتدافع الجنود يرقون السلالم ووصلوا إلى متاريس السور [٦].

---

(١) الإلمام ، ٢/١٥٧ - ١٥٩ ، وانظر فيه أيضًا : ٣/٢١٢ - ٢١٣ ، ٢١٥ .

(٢) قارن : Atiya , The Crusade, p. 361 ;

فهو يذكر فى هذا الصدد أن هذه الفتحة عبارة عن فم الخليج ، أى ترعة المحمودية الحالية ، وأشار هنا إلى أنها تصب فى الميناء الشرقى أسفل السور قريبًا من باب الديوان . فكأنه جعل باب الديوان فى الميناء الشرقى وترعة الخليج تصب أيضًا فى هذا الميناء ، وهذا يخالف المعروف عن طبوغرافية الإسكندرية فى ذلك الوقت وإلى اليوم . وقد تبعه فى هذا : العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٣١٣ ؛ راجع هنا : الفصل الثالث ، ص ١٤٦ ، ١٤٧، وخريطة طبوغرافية الإسكندرية رقم (٣) .

(٣) Machaut, p. 89 .

(٤) الإلمام ، ٢ / ١٥٧ ؛ وانظر أيضًا : نسخة الهند من الإلمام ، لوحة ٨١أ ، حيث جاء فيها وصفه السلالم بأنها مركبة بعضها فوق بعض وهو ما لم يرد فى نسخة برلين .

(٥) Avant ! Aigneurs, montez, montez .

(٦) Machaut, Loc, cit .

ويأتى النويرى السكندرى برواية مخالفة عن هذه الثغرة التى اكتشفها البحار - فهو يورد لنا قصيدة للشيخ أبى عبد الله النستراوى يرثى فيها الإسكندرية بعد الوقعة يحدد فيها النستراوى تلك الثغرة باسم (باب القذر) فى قوله عن الملك بطرس وجنوده :

جاء زحفًا عازمًا بعزمة دخلوا الثغر من باب القذر[١]

وهو يعنى بهذا ، فيما يورده النويرى السكندرى نفسه أيضًا ، ذلك الباب أو تلك الفتحة التى تصب فيها مجارى الأقنية فى الميناء الغربى[٢] بل إن النويرى السكندرى نفسه يطلق على " باب القذر " هذا حيث تصب مجارى الأقنية « باب الأقنية » [٣]. والنويرى كسكندري - فيما ساقه من شعر للنستراوى يذكر فيه « باب القذر » ، وفى ذكره هو نفسه «مجارى الأقنية » و « باب الأقنية » - أعرف وأقْعَد بهذا الموضع وباسمه من " ماشو " الذى يستقى روايته ممن شارك فى الوقعة ، ولعل الأمر التبس على روايته . ولكن كل هذا لا يغير من الأمر شيئًا ، سواء ما جاء فى رواية " ماشو " أو فى رواية النويرى السكندرى ، إذ يقع الاتفاق على كل حال بينهما على وجود فتحة بالقرب من باب الديوان تسلل منها اثنين من الفرنج ومن ثم تمكنا من الصعود إلى السور من خلال درجها الداخلى .

على كل حال ، لما عاين المسلمون على البعد جماعة الفرنج وقد نجحوا فى الصعود إلى السور مما فاجأهم ولم يستطيعوا عمل شيء إزاء ذلك ، إذ كانت قلعة ضرغام - كما ذكرنا من قبل - تحول دون وصولهم إلى هذا الموضع ، لما عاين المسلمين ذلك شردوا متخلين عن أماكنهم طالبين النجاة بعد أن تحققوا من أن الفرنج قد ملكت البلد [٤]. وفى الوقت نفسه ، كان

---

(١) الإلمام ، ١٧٤/٤ .

(٢) الإلمام ، ٢١٢/٣ ، وهو يتكلم على الخندق الذى شقه صلاح الدين بن عرام بعد الوقعة فى هذا الجانب من سور باب الديوان ، فى قوله : " وشق خندقًا إلى جانب السور الذى توصلت منه الفرنج إلى الإسكندرية - لم يكن قبل ذلك - فعمّره فى أسرع وقت . وهذا الخندق المتجدد محاذ للوضع المسمى من داخل السور بدار الصناعة ، وديوان الخمس (أى مبنى الديون) ، ومجارى الأقنية " .

(٣) الإلمام ، ٢١٥/٣ . والراجح لدينا أن مجارى الأقنية هذه إنما كانت من قبل تصب مباشرة فى البحر بحيث لا يظهر منها آخر فتحة مجاريها ، أى أنها كانت مغمورة فى البحر عندما كان يضرب فى السور فى الزمان القديم فى هذا الموضع من ساحل الميناء الغربى - فيما رواه النويرى السكندرى وأتينا به فى موضع سابق (راجع هنا ، ص ١٧١ هامش٣) - فلما انحسر البحر ، أصبحت فتحة الأقنية أسفل السور ظاهرة للعيان ، مما أتاح للبحار المذكور مشاهدتها ، فاستطاع النفاذ من خلالها إلى داخل السور وتسلقه .

(٤) الإلمام : ١٥٧/٢ .

الفرنج قد نجحوا أيضًا فى حرق الباب فانهدم [١]، ودخل الملك ومن معه من باب الديوان إلى الإسكندرية[٢] وذلك فى نحو الساعة الثالثة من بعد ظهر هذا اليوم الجمعة العاشر من شهر أكتوبر ١٣٦٥ (الثانى والعشرين من المحرم سنة ٧٦٧هـ) [٣].

وكان لتخلى الرماة المسلمين عن مواقعهم فى سور باب البحر وفرارهم أثره البالغ فى نفوس أهالى الثغر : فيصور لنا " ماشو " ما أصابهم من رعب بالغ وذعر شديد وما توقعوه من موت وشيك على يد الفرنج ، فشرعوا يخرجون من المدينة فرارًا منهم ، فقد اندفع جنود الملك بطرس ينتشرون فى كل أنحاء المدينة ويتنقلون من شارع إلى شارع يقتلون قتلاً ذريعًا كل من يصادفونه فى طريقهم ، فقتلوا - كما يقول " ماشو " - أزيد من عشرين ألفًا[٤] وهـــم

---

(١) Vita, dans : Jorga, phil. de Méz., p. 295 .

ينفرد هنا دى مزيير بذكره حرق الفرنج لباب البحر إبان هذه الوقائع وهو ما لم يتعرض له " ماشو " ولم يشر إلى ذلك أيضًا النويرى السكندرى فى هذا الموضع من الأحداث ، وإنما أشار فى موضع لاحق إلى ما أحرقته الفرنج من مواضع وأبواب من ضمنها باب البحر (راجع : الإلمام ١٧٧/٢ ؛ ولكن انظر أيضًا ما جاء هنا فيما بعد ، ص ٢٥٤) . والراجح لدينا أن الفرنج فى الوقت الذى كانوا يتعاملون فيه مع باب الديوان وسوره ، انفصلت جماعة من الصليبيين وتوجهت - فى الوقت الذى تخلى فيه الرماة المسلمون عن مراكزهم فوق سور باب البحر ولاذوا بالفرار - توجهت إلى باب البحر فاضرمت فيه النيران لا يعوقها عائق حتى يتمكن أفراد جيش بطرس من دخول المدينة من منفذين بدلاً من منفذ واحد .

هذا ، إلا إذا كان ما أورده دى مزيير - فيما ينقله عنه " يورجا " - هو تحريف جاء فيه بباب البحر بدلاً من باب الديوان ، أو هو خطأ وقع فيه " يورجا " نفسه عند ترجمة نص دى مزيير ، فكلام " يورجا " أيضًا بعد انتهائه من ذكر حرق باب البحر يفيد دخول الملك إلى المدينة من غير إشارة إلى باب الديوان . ومن ثم يكون حرق باب البحر هو وغيره من الأماكن والأبواب إنما حدث بعد دخول الفرنج المدينة كما نفهمه أيضًا من نص النويرى السكندرى الذى أشرنا إلى فحواه منذ قليل فى هذه الحاشية .

(٢) Machaut, pp. 89 - 90 .

(٣) Vita, dans: Jorga, op. cit., Loc. cit.;

ولكن انظر أيضًا ما فات هنا من قبل ، ص ٢١٧ ، بقية هامش ٣٣ ، حيث حددنا هناك الوقت والساعة اللذين جاء ذكر أحدهما عند كل من النويرى السكندرى ومخيراس وما أتى به دى ماس لاترى نقلاً من دى مزيير نفسه .

(٤) كذا يكرر " ماشو " هذا العدد للمرة الثالثة ، فهو نفسه الذى شاهدوه فوق الأسوار عند هجومهم على باب البحر (راجع هنا ما جاء من قبل ، ص ٢١٤ وص ٢٢٧) ، وما ذكره هنا " ماشو" عن عدد هؤلاء القتلى من الأهالى مبالغ فيه بلا شك ، وإنما يعنى " ماشو " أن القتل قد حل بعدد ضخم لا يحصى من الأهالى ؛ راجع فى هذا : Daniel, The Sach of Alexandria, in : A.H.S,. p. 44 .

يجتاحون المدينة ، فلم يبقوا على أحد فى طريقهم ممن يمسكون به ؛ وكان الجند يفتشون عن الأهالى من شارع إلى شارع يقتلون أو يصرعون فى وحشية بالغة كل من يلقونه ممن يلوذ بالمنازل أو المساجد يحتمون بها ، وهو ما لم يقع من قبل منذ عهد الفراعنة [١].

ثم يواصل " ماشو " كلامه على ما تلى من أحداث ، فيذكر أن الملك بعد اقتحام الإسكندرية والاستيلاء عليها ، شق المدينة صوب جسر يربط الطريق بين الإسكندرية والقاهرة عند باب الفلفل - أو باب البهار[٢] - ومشيد فوق نهر كبير[٣] بغرض تحطيمه لكى يمنع أو يعوق أي عون يأتى من القاهرة لنجدة الإسكندرية ؛ فاتجه نحو الجسر المذكور فى قطعة من جيشه على أن يلحق به بقية الجند ؛ ولما وصل إلى هناك ، أمر برفع العلم فوقه ، ولكنه رأى المسلمين الذين يشغلون الأراضى الزراعية الواقعة خلف الجسر وهم يندفعون نحوه للانقضاض عليه ؛ وبدلاً من أن يقتحم الجسر لملاقاة المسلمين الذين أرادوا الانتقام لهزيمتهم ، أصدر أمره بالتراجع إلى المدينة عندما انطلق نحو الألوف والمئات ممن كانوا يكمنون فى الأراضى الزراعية، فاشتبكوا مع جند الملك بطرس فى قتال عنيف أودى بحياة أفراد من جيشه وجرح البعض الآخر، وتعرضت حياة الملك نفسه للخطر وكاد يفقدها على يد المهاجمين الذين منعوه من تحقيق هدفه المحدد وهو تحطيم هذا الجسر ، ومن ثم ساق أخيراً نحو المدينة متراجعًا ؛ وأراد عندئذ أن يدور حول المدينة لإغلاق أبوابها [٤]، إلا أن المقاتلين المسلمين التفوا حوله يمنعونه من الحركة ، ولكنه تغلب أخيراً عليهم ونجح فى الرجوع إلى داخل المدينة بعد أن أغلق باب الفلفل ووضع

---

١ - Machaut, pp. 90 - 1 ؛ ولكن انظر أيضًا : Jorga, phil. de Méz., p. 295 ؛ وقارن : Daniel, op. cit., in : A.H.S.., Loc. cit.

٢ - كذا يسمى " ماشو " باب السدرة الواقع فى السور الجنوبى لمدينة الإسكندرية راجع عن باب السدرة والأسماء الأخرى التى كانت تطلق عليه - ومن بينها باب الفلفل أو البهار - ما جاء هنا من قبل فى الفصل الثالث ، ص١٥١ ، هـ٣.

٣ - المقصود هو خليج الإسكندرية ، أى ترعة المحمودية حاليًا .

٤ - ينص هنا " ماشو " (P.93) على جهله بأسماء هذه الأبواب وهو يسوق هذا الخبر حول دوران الملك حول المدينة لغلق الأبواب :

Li bon rois a pris son retoure,
Et voloit aler tour entoru
La ville, pour faire fermer
Les Portes que ne say nomer

عليه مجموعة من جنده لحراسته ، ودخل المدينة ، واستولى على جميع أبوابها التى دار عليها بابًا بعد باب ، وأقام الحراس عليها ؛ وهكذا تم للملك الاستيلاء على مدينة الإسكندرية فى اليوم التالى لانتهاء الاحتفال بعيد القديس دنيس[١] - يعنى فى يوم الجمعة العاشر من أكتوبر ١٣٦٥م / ٢٢ من المحرم ٧٦٧هـ .

ثم لجأ الملك فى مساء هذا اليوم إلى أحد الأبراج الضخمة ليخلد إلى النوم ولكى ينال قسطًا من الراحة بعد هذا اليوم الشاق الذى أمضاه فى قتال مستمر ؛ وفى وسط الليل ، اقتحم المدينة عشرة آلاف من المسلمين من باب سان مارك Saint Mark المعروف بباب الفلفل[٢] ، فى الوقت الذى كان فيه الملك مؤرقًا لما انتابه من قلق تحسبًا لما قد يحدث فى تلك الليلة ، فجاءه الخبر بدخول العربان إلى المدينة يهددون بذلك حياة من يجدونه من الفرنج ، فهب من فوره واستعد لمعركة وشيكة الوقوع ؛ حتى إذا جاء صباح يوم السبت تاليه - ١١ أكتوبر (٢٣ من المحرم) - نادى المنادى بالتهيؤ والتسلح على وجه السرعة وتَتَبُّع من يجدونه من المغيرين ؛ فدارت معركة كبيرة فى شارع باب الفلفل[٣] بين المسلمين وهم أكثر من عشرة آلاف نفر والفرنج ، وأرغم الملك وجنوده الذين يقدرون بخمسين أو ستين مقاتلاً [٤]، أرغم المغيرين على الخروج من المدينة ، ثم راح يطاردهم فى الحقول خلف باب الفلفل ، ثم قفل الملك راجعًا وأمر بتشديد الحراسة ؛ فأصبحت المدينة بذلك خالية من أهلها [٥].

---

١ - Machaut, pp. 91 - 6 .

٢ - يعرِّف " يورجا " - وهو يشير إلى هذه الواقعة - بباب سان مارك بأنه (باب الزهرى) ، وهو خطأ واضح ؛ راجع له : Phil, de Méz., p. 296 .

انظر : خريطتنا رقم (١) طبوغرافية المدينة ص .

٣ - المقصود هو شارع باب السدرة .

٤ - تبدو المبالغة واضحة فى تقدير الأعداد الذى يذكرها " ماشو " عن هؤلاء العربان ومن تصدى لهم من جيش الفرنج بقيادة الملك . والملاحظ أن هذه هى عادة " ماشو " فى تحديد أعداد المقاتلين من الجانبين . وتكفى هنا المقارنة بين ما أورده " ماشو " عن عدد هؤلاء العرب وبين ما ذكره النويرى السكندرى فهو - وإن لم يشر إلى هذه الواقعة - ينص على أن هؤلاء العربان كانوا يتسللون ليلاً فى جماعات قليلة لنهب الدور التى تركها أصحابها عند فرارهم .

٥ - Machaut, pp. 96 - 9 .

هذا ، ويصور لنا النويرى السكندرى[١] فى وصف حى ما شاهده بنفسه من عملية فرار الأهالى من المدينة ، وهو بعياله بينهم ، عندما اقتحم الفرنج المدينة ، فكان فرارهم من أبواب البر : باب السدرة ، وباب الزهرى ، وباب رشيد ، بعد أن تزاحموا عليها ؛ فمنهم من أدركته الفرنج بباب السدرة فقتلته ، ومنهم من أسرته ، ومنهم من نزل من السور - أى سور باب السدرة - مستعينًا بالحبال ، فأصيب من أصيب ، وسلم من سلم ونجا ، فى الوقت الذى صعدت فيه الفرنج على أعلى باب السدرة نصبت عليه الصلبان ، وهلك الكثيرون منهم من التدافع والازدحام فى أعداد غفيرة على الأبواب ، فى محاولاتهم للنجاة بأرواحهم ولكى يجدوا ملاذًا لهم فى القرى والمدن المجاورة ؛ ولم يرحم العربان خارج هذه الأبواب ما وقع فيه الأهالى من بلاء ومحنة ، فقام البعض منهم بنهبهم ؛ وعزت الأقوات وغلت الأسعار ، ولم يتمكن الكثيرون من شراء ما يتقوتون به بعد أن باعوا القليل مما فروا به من متاع بعد أن خرجوا سريعًا من المدينة لا يحملون من الأموال إلا النذر اليسير وتركوا ما يملكون فى منازلهم بعد إغلاق أبوابها [٢]؛ ولكن فقد الكثيرون فى خروجهم من أبواب المدينة ما استخفوا حمله من ذهب ومصاغ للزينة من قوة الزحمة وهم يطلبون النجاة ، والقليل منهم أسعده الحظ بالخروج بما كان معه [٣].

أما الفرنج ، فقد تحولوا يقتحمون أبواب الدور المغلقة ينهبون ما فيها ، ونهبوا أيضًا الحوانيت والفنادق ، وحملوا ما وجدوه على الجمال والبغال والحمير ، ثم قتلوا من اختفى من الأهالى عند مصادفتهم له من كبير وصغير ، وعرقبوا المواشى ، وأحرقوا القياسر[٤] والخانات[٥] ، وكسروا قناديل الجوامع والمساجد ، وعلقوا على السور أعلام الصلبان ،

---

١ - الإلمام ، ٢ / ١٥٧ .

٢ - الإلمام ، ١٦٢/٢ - ١٦٤ .

٣ - المصدر نفسه ، ٢ / ١٦٤ .

٤ - القيسارية ، والجمع قياسر : هى السوق التجارية العامة ؛ انظر : Dozy, Suppl., II, p. 432 .

٥ - الخان ، والجمع خانات : ما يطلق على الفندق الذى تكدس فيه البضائع والسلع للبيع بالجملة ، وينزل فيه التجار عادة للمبيت به ؛ راجع شروح الدكتور درويش النخيلى على هذا المصطلح فى : كاله ، صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٧٩ هـ ٧٣ .

واعتدوا على النساء والبنات ، وأسروا الكثيرين من الأهالى من رجال ونساء وإماء وأطفال ، وقتلوا كل شيخ عاجز ، ولم يسلم من أيديهم حتى المجانين والبلهاء والعجائز ، ودام الفرنج يكسرون الدور والمواضع وينهبون ويقتلون ويأسرون ، من عصر يوم الجمعة إلى يوم السبت ثانية [١].

ويورد لنا النويرى السكندرى بعد هذا الإجمال ما حل بمدينة الإسكندرية رواية عن شاهد الأحداث ورواها له بعد عودته من بلدته النويرة وفيها من التفاصيل ما يمدنا بصورة متكاملة عما أنزله الفرنج بالمدينة فيما لم تشهده من قبل طوال عصورها التاريخية ، وهو نص يبرز لنا صورة مذهلة مشهد مما عكف عليه الفرنج من تدمير وتخريب وتحريق ونهب لمنشآت المدينة من فنادق ومدارس وقصور ومساجد بل وأحياء برمتها ، ويورد فى هذه الصورة أيضًا قائمة كاملة لكل التحف الفنية التى نقلوها إلى سفنهم ، وما نهبوه من المخازن من البضائع من نفيس الثياب والأقمشة ... إلخ ؛ فيقول :

" ... فكان مما أحرقوه [٢]: حوانيت الصرف بكاملها وسوق القشاشين بالمعاريج ، والحوانيت الملاصقة لقيسارية الأعاجم من خارجها من الجهة الشرقية ، وحوانيت شارع المرجانيين وبعض فنادقه ، وفندق الطبيبة[٣] ، مع فندق الجوكندار ، وفندق الدماميني بسور الجوار ووكالة الكتان المقابلة للجامع الجيوشى بالقرب من العطارين ، مع سوق الخشابين .

---

(١) الإلمام ، ٢/١٦٦ .

(٢) فى المطبوع من الإلمام (أحرقوا) ، وما بالمتن هو صيغة نسخة الهند ، لوحة ٨٢ ب .

(٣) كذا ؛ وفى نسخة الهند ، لوحة ٨٢ ب (فندق الطبيعة) .

وأحـرقـوا أيضًـا درابزى[١] مـدرسـة
ابن حباسة ، مع سقف الإيوان ، وعبثوا بكل
ناحيـة ومكان . وأحـرقـوا باب مدرسـة
الفـخـر القـريبـة من باب رشـيـد ، وعبث
بإحـراق حـوانيت المحـجّـة كل علج مـريد .
ذكـر لى شيخ يسكن بالمحجـة قال : " كنت
مـخـتـفـيًـا بأعلى دارى فى مكان أنظر من
كـوة صـغـيـرة ، فـرأيت الفـرنج يأتون إلى
الحـانوت المغلوق البـاب (بالأقـفـال)(*) ،
فـيـمـد على باب خطة[٢] سـوداء ويخط من
فـوقـهـا خطة حـمـراء ، ويلقم الخط النار
فـيلتـهب البـاب بسـرعـة " . بل : إن الفـرنج
يستصحبون معهم حلق الحراقات[٣] المغموسة
بالزيت والقطران والزفت والنفط ، فـيـضع
أحـدهم الحلقـة الواحـدة فى نصل السـهم

---

(١) الدرابزى : هو السياج الذى يحف بالدرج ، وغالبًا ما يكون من الخشب كشأن السياج إلى جانبى المنبر . وقد ورد اللفظ فى موضع آخر برسم " درابزين " ، وهو ما يتداوله العامة فى أيامنا هذه ؛ راجع هذا الشرح فى تعليقات الدكتور النخيلى فى : كاله ، صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٨٢ ، هـ ٨٠ .

* - أضفنا ما بين الحاصرتين من نسخة الهند ، لوحة ٨٢ ب .

(٢) خطة ، أى : مسحوق . جاء فى Dozy, Suppl., I, p. 380 ، فى مادة خَطّاط) - بفتحتين :- خطاط ، بمعنى مسحوق ، وهو الرماد الأسود الناتج عن حرق الخشب " . فالمعنى المراد لفظ (خطة) فى نص النويرى هو وضع مسحوق أسود وآخر أحمر من مادة قابلة للاشتعال عند خلطهما ثم إضرام النار فيهما .

(٣) حَرّاقة ، والجمع حَرّاقات ، نوع من السهام النارية تستخدم خاصة فى عمليات الحصار ؛ راجع : Dozy, op. cit., I, p. 247 .

أحـدهم الحلقـة الواحـدة فى نصل السـهم الموضـوع على متن قـوس الركـاب[١] ، ويلقم الحلقـة النار ويُفك الوتر من الجـوزة ، فـيخـرج السهم صـاعـداً إلى السقف يركز فيه فيلتهب الخشب بسرعة ، فـينزل إلى الأرض يحرق كل مـا فى البيت مما ليس لحملهم به حاجـة ، يفـعلون ذلك نكاية للمسلمين ...[٢].

نعـود إلى ذكـر مـا فـعلتـه الفـرنج أيضًـا بالإسكندرية : ثم إن الملاعين أحـرقـوا فندق الكتيـلان وفندق الجنويين وفندق الموزة وفندق المرسـيليين ، فـصـارت النار تعـمل فى البندق والبضـائع التى لم تجد لها محـملاً معهم لإشحان مراكبهم مما أخذوه من أموال الإسكندرية .

ثم كـسـرت الفـرنج أيضًـا حـوانيت الشـماعين والبياعين ، بعد نهب قيـاسر البـزازين وكـسروا مـا فيـهـا من الأوعـيـة والأوانى والأحـقـاق[٣] والبـرانى ،

---

(١) جاء فى : Dozy, op. cit.,I, p. 552 فى مادة (ركاب القوس) : « حلقة فى نهاية الطرف الأعلى لمتن القوس » ؛ فقوس الركاب هنا بالمتن ، هو القوس المزود بهذا الركاب أو هذه الحلقة .

(٢) مكان النقط استطرادات من النويرى السكندرى لاتتصل مباشرة بالموضوع .

(٣) فى الإلمام المطبوع الذى تنقل منه : (الأعقاق) ؛ وما بالمتن من نسخة الهند ، لوحة ١٨٣أ .

فصارت ملقاة مطروحة فى الطرقات ، قد سال ما فيها من زيت وعسل وسمن وغير ذلك .

وكسروا أيضًا حوانيت الصاغة وأخذوا ما فيها من مال ومصاغ ، كما أخذوا من حوانيت الصرف ما كان بها من دنانير ودراهم[١] ، و نهبوا أيضًا أقمشة التجار المصريين والشاميين المحزومة المهيأة للسفر بها لمصر والشام . ونهبوا أيضًا الحرير الذى قدمت به تجار الأعاجم وغيرهم إلى الإسكندرية وكان ذلك[٢] عدة قناطير . ونهبوا من الدور الأموال والأقمشة والمصاغ والفُرُش والبسط والنحاس وغيره ، وأخذوا معهم باب المنار الذى كان عمّره الأمير صلاح الدين بن عرام قبل الوقعة على الأساس الذى كان أسسه الملك المنصور قلاوون وبطلت عمارته ، فعمل ابن عرام على الأساس المذكور حصنًا دائرًا (وعمل له الباب المذكور) (*).

ثم أخذت الفرنج أيضًا شبابيك قبة تربة (الأمير)(*) طفية التى بالجزيرة ، وأحرقوا

---

(١) فى نسخة الهند ، لوحة ٨٣ أ : « ما فيها من ذهب وفضة » .

(٢) فى المطبوع - عن نسخة برلين - : « وكانت » ، وما أثبتناه بالمتن هنا من نسخة الهند ، لوحة ٨٣أ.

* - أضفنا ما بين حاصرتين من نسخة الهند ، لوحة ٨٣ب .

سقوف الربط التى بها - وهى التى خافت عليها أصحابها من الإفرنج قبل نزول الفرنج[١] من مراكبهم - وكسروا قناديلها وقناديل المزارات ، وأفسدوا قصور الجزيرة وتُرَبها ، وكسروا أعمدة قبة منبر مصلى العيد وعمودى[٢] ضرائح الأمير طفية والأمير بلاط اللذين فيهما تاريخ وفاتهما ، وكانا مموهين بالذهب واللازورد . وقلعوا حلقتى باب المدرسة الخلاصية التى عمرها نور الدين (على)(*) بن خلاص - وكانا من النحاس المخرم - فعمل لباب المدرسة المذكورة غيرهما بعد (عدة)(*) أشهر من حين الوقعة ، وأخذوا منها كرسى الربعة وبيتها ، وكانا من النحاس الأندلسى المخرم ، المنزّل فيهما اليقات[٣] الفضة بدايرهما ، لم يُرَ مثلهما حسن صنعة

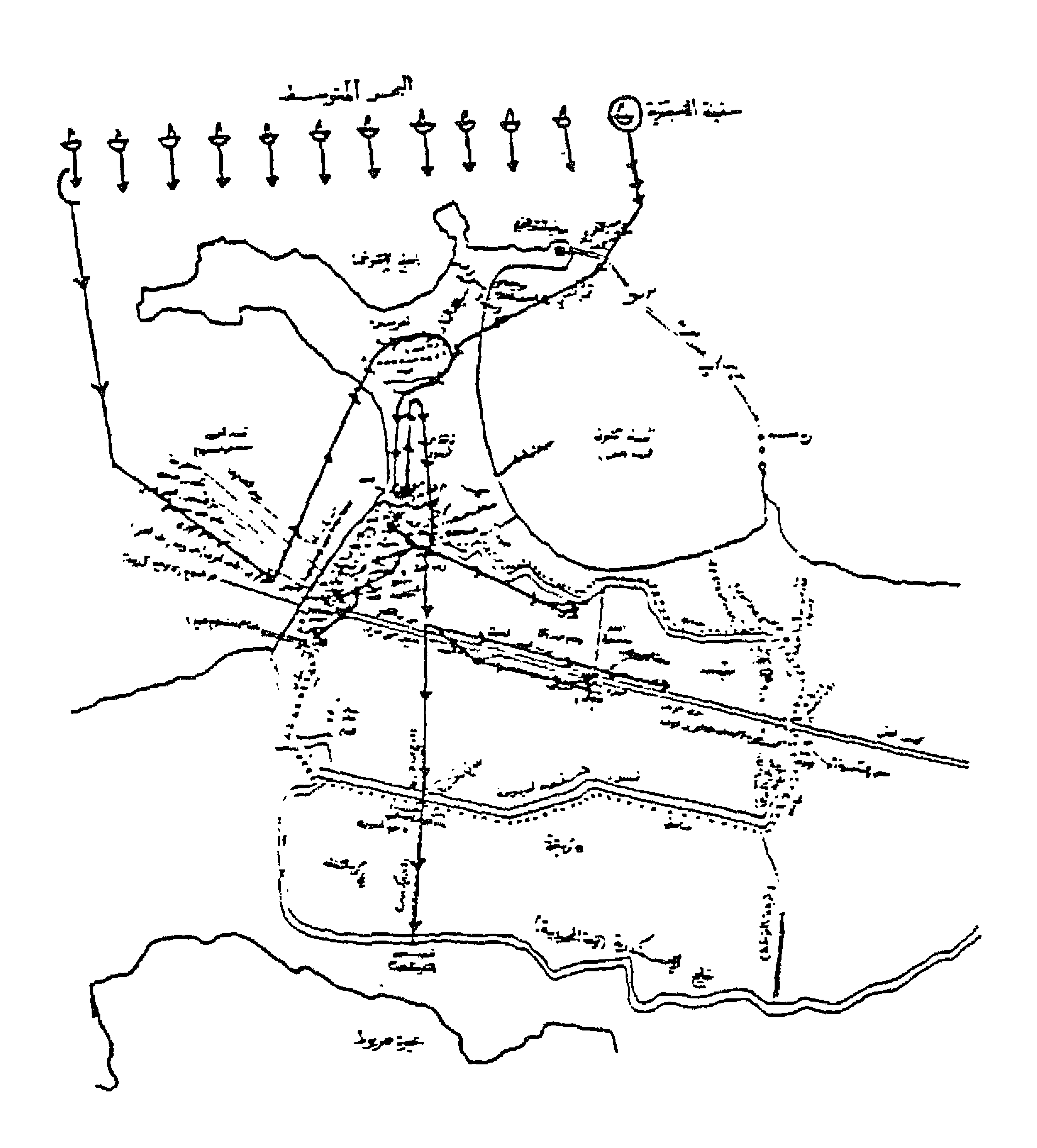
---

(١) العبارة فى نسخة الهند ، لوحة ٨٣ب : « وهى التى خافت عليها أصحابنا من الفرنج قبل نزولهم من مراكبهم » .

(٢) فى نسخة الهند ، لوحة ٨٣ ب : « مصلى العبد وعمود » .

(٣) ياقات ، مفردها (يقا) : كلمة تركية تعنى (Col) ، والمقصود بها هنا : " حلية دائرية ، عبارة عن شريط زخرفى يدور حول التحفة المراد زخرفتها ؛ راجع : كاله ، صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٨٣ ، هـ ٨٩ .

* - ما بين حاصرتين زيادة من نسخة الهند ، لوحة ٨٣ ب .



خريطة رقم (٤)

اقتحام مدينة الإسكندرية

بدايرهمـا ، لم يُرَ مـثلهـمـا حـسن صنعـة وتدقـيـق تخـريم ، وتركـوا أجـزاء الربعـة المذكـورة الثـلاثين جـزءاً مطروحـة بالمدرسـة المذكـورة لم يأخـذوا (منهـا) . جزءاً واحداً .

وصـعدوا صومعـة المدرسـة النابلسـيـة ، فـوجـدوا فـيـهـا جـمـال الدين - ابن بانيـهـا - مختفـيًا منهم بها ، وكـان شيخًا كبيراً ضعيف البنيـة ، فـألقـوه على رأسـه من أعـلاها إلى الأرض ، فـاندقت عنقـه ، فـمـات شـهـيـداً - رحـمـه الله . وقـتلوا من وجـدوه بالجـوامع والمساجد .

وأقـامـوا بالإسكندرية العـرابد[١] ، فـقـتلوا الناس فى الدور والحـمـامـات والشـوارع والخـانات . وكـانت الفـرنج تخـرج بالنهب من الإسكندرية إلى مراكـبـهم على الإبل والخـيل والبـغـال والحـمـيـر . فلمـا فـرغـوا من النهب وقـضـوا أربهم من البلد ، طعنوها بالرماح ، وعرقبوها بالصفاح[٢] ، فـصـارت مطروحـة بالجـزيرة والبلد ، لم يعلم لهـا

---

(١) العرابد : هم النهابة من الجند Maraudeurs ؛ راجع : Dozy, op. cit., II, p. 108 .

(٢) الصفيحة ، والجمع صفاح ، من الأسماء التى يوصف بها السيف إذا كان عريضًا ؛ راجع : ابن هذيل، حلية الفرسان ، ص ١٩١ .

عدد ، فهلكت وجافت ، فأحرقها المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها .

ثم إن الفرنج تحصنوا بمراكبهم بعد وقرها وإشحانها بما نهبوه ، وكانت تزيد على سبعين مركبًا ، وتركوا بالساحل فضلات البهار التى لم يجدوا لها محملاً ، فرجع إلى أربابه ، من وجد علامته[1] عليه أخذه

ثم إن المراكب ثقلت بما فيها ، فصاروا يلقون منها[2] فى البحر - على ما قيل - لتخف من كثرة الوسق . وكان الغواصون يرفعون النحاس وغيره بناحية بوقير

ولولا لطف الله تعالى بعباده المسلمين بحرقهم باب رشيد وباب الزهرى كانت الفرنج ملكت البلد، وحصل التعب فى خلاصها[3]

---

(١) فى المطبوع عن نسخة برلين : (علامة) ؛ وما فى المتن من نسخة الهند ، لوحة ٨٣ ب .

(٢) فى المطبوع من الإلمام : (ما فيها) ؛ وما أثبتناه بالمتن من نسخة الهند ، لوحة ٨٣ ب .

(٣) هذا النص - كما هو واضح - صريح بما لا يدع مجالاً للشك فى قيام أهالى الإسكندرية بإحراق باب رشيد وباب الزهرى ، ويؤكده ما يضيفه النويرى السكندرى فى موضع لاحق يقول فيه :

" نهب عرب هوارة وغربها من قبائل العرب نهبًا كثيراً من أهل الإسكندرية الشاردين من أبواب البر من الإسكندرية أيضًا . كانوا يدخلونها فى الليل بعد خروج الفرنج منها بسبب مبيتهم فى مراكبهم خوفًا من طارق يطرقهم من المسلمين فى الليل ، إذ كانوا بالبلد بسبب أبواب البر المفتوحة بحريق المسلمين لها لتجد الآتية فى مواضع تدخل منها البلد " =

(منهم)(*) كما حصل فى طرابلس الغرب ومدينة

أنطاكـيـا ببـر التـركـيـة .....

ولطف الله تعـالى (أيضًـا)(*) بعـبـاده

المسلمين فى عدم معرفة الفرنج لقصر السلاح

الذى بالموضع المعـروف بالإسكندرية

بالزربيـة ، فلو فـهـمـوه أحـرقـوا جـمـيع مـا

فـيـه من السـلاح المدّخـر من عـهـد الملوك

السـالفـة - رحـمـة الله عليـهـم - فلقـد

= فالغرض واضح لتمكين جيوش النجدة الآتية من القاهرة من سهولة الدخول إلى الإسكندرية ، بالإضافة إلى إتاحة الفرصة لمن يستطيع الفرار من الأهالى لكى يتسلل من هذين البابين ، باب رشيد ، وباب الزهرى .

وقد جاء فى مقالة كاله فى لغتها الأصلية باللغة الألمانية فى ترجمته النص الوارد بالمتن هنا (انظر pp.151-52) من أن الفرنج هم الذين قاموا بحرق باب رشيد وباب الزهرى ؛ ونص ترجمته يوضح لنا أن باول كاله قد وقع فى خطأ نحوى فى قراءته لنص النويرى السكندرى بعد أن أرجع الضمير فى (بحرقهم) على الفرنج واضعًا ذلك بين قوسين ينبه على ما قد يفوت القارىء من المعنى المقصود بلفظ (بحرقهم) . وقد تجاوز الدكتور النخيلى فى ترجمته لمقالة باول كاله عن هذا الخطأ واكتفى بنقل الأصل العربى لهذا النص (راجع : صورة عن وقعة الإسكندرية ، ص ٤٩) .

وهذا هو نص ترجمة كاله لعبارة النويرى السكندرى الواردة بالمتن هنا :

" Und wenn nicht Gotte der Erhabene seinen
Verehrern dem Musliman eine Wohltat erwiesen
hätte, dadurch das sie (die Franken) das
Bab er-Rasid und Bab ez-Zuhri rerbrannten,
so Wären die Franken Herren der stadt
geblieben und man hätte grosse Mühe
gehabet sie wieder Loszuwerden... "

وقد ردد الدكتور عطية - نقلاً من باول كاله فى هذا الموضع من مقالته - حرق الفرنج لبابى رشيد والزهرى ، ثم رتب على ذلك ما رتبه من نتائج ؛ راجع له : The Crusade, p. 363 and n.1. ؛ وراجع أيضًا فى إحراق المسلمين لباب رشيد على وجه التحديد : المقريزى السلوك ، جـ٣ ق ١ ، ص ١٠٦ .

* - ما بين حاصرتين زيادة من نسخة الهند ، لوحة ٨٣ ب .

وضعوا فيه من الأسلحة ما ليس لعددها
حصر

ذكر (الشيخ)(*) أبو العباس أحمد
- شيخ رماة قاعة القرافة المرصدة
لسلاح الجهاد المتطوع به - بها ستين
ألف سهم من السهام التى فى أحد بيوت
قاعة من قاعاته . قيل إن فيه عدة
قاعات ، فى كل قاعة عدة بيوت ، فى كل
بيت آلاف مؤلفة من السهام ، إلى غيرها
من السيوف ، والرماح ، والمزاريق[١] ،
والأتراس ، والخوذ ، والعنايز[٢] ، والزرد
والزرديات[٣] ، والأطواق ، والقرقلات [٤]،
والسواعد ، والركب ، والساقات ، والأقدام

---

* - ما بين حاصرتين زيادة من نسخة الهند ، لوحة ٨٣ ب .

(١) المزراق - والجمع : مزاريق : الحربة ، فهو أقصر من الرمح ؛ راجع : Dozy, op. cit., I, p. 588

(٢) فى نسخة برلين والمطبوع عنها : (القنابز) ، وفى نسخة الهند ، لوحة ٨٤ أ : (العنايز) الموحدة ، وما أثبتناه بالمتن هنا هو الصحيح . والعنابر ، اسم من أسماء الرماح ، يقول ابن هذيل ، الفرسان ، ص ٢٠٢ ، شارحًا : « العَنَزَة ، وعى عصا فوق الهراوة فيها "زُجّ" ، وهى من السلاح ! الدفع بها ، والزج فيها يشبه السنان وإن لم يكنه » .

(٣) الزرد : الدرع المزرودة : أى المكونة من حلقات من المعدن يتداخل بعضها فى بعض فى ا وتراصف ؛ راجع : Dozy, op. cit., I, pp. 584-85

(٤) قرقل - والجمع : قرقلات ، ضرب من الدروع ، انظر : Dozy, op. cit., II, p. 336

والحـديد [١]، والقس الملولبـة[٢] ، والجـرخ [٣]
والركـاب[٤] ، والأعلام ، ما لا ينحصر بالأقدام.
ثم فيه أيضًا من حجارة العلاج[٥] ، والمدافـع ،
والنفط ، وحيل الحروب ومكايدها كثير .
فلو علمت به الفرنج أحرقته سريعًا ، فحصل
اللطف الكبير ، من اللطيف الخبير، لعدم معرفتهم
إياه بعـد أن أتوا إلى بابه ، ظنوا أنه أحـد
أبواب المدينة ، خـافـوا من كـسـر بابه ليكون
وراءه كمين يطبق عليهم .
قـال المؤلف - غـفـر الله له ولوالديه
والمسلمين أجـمـعـين : -
حدثنى الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن
يوسف - حارس القصر المذكور ، ويعرف بابن
قـراجـا - قـال : « كنت بمفـردى لما دخلت
الفرنج الإسكندرية ، فأغلقت بابه ، وقرأت حزب

---

(١) هذه المصطلحات الأربع تدل على المقصود منها ، فهى أدوات لوقاية أجزاء الجسم المذكورة ، وهى تصنع عادة من المواد الجلدية أو المعدنية ؛ راجع فى ذلك : النخيلى ، فى : باول كاله ، صورة عن وقعة الإسكندرية ص ٨٦ هـ ١١٠ إلى ١١٣ .

(٢) قوس اللولب ، هو القوس الذى يوتر (يشد) بآلة معينة ؛ راجع : Dozy, op. cit., II, p. 418 .

(٣) انظر ما فات هنا ، ص١٩١.

(٤) الركاب - والجمع : ركب ، وركابات ، وأركب : ما يعلق فى السرج فيجعل الراكب فيه رجله ؛ راجع فى ذلك : النخيلى ، فى : باول كاله صورة من وقعة الإسكندرية ، ص ٨٧ ، هـ ١١٦ .

(٥) يقصد بها نوع من الحجارة الصلبة الى تستخدم قذائف للمنجنيقات ؛ انظر : النخيلى ، فى باول كاله ، المرجع نفسه ، ص ٨٧ هـ ١١٧ .

سيدى الشيخ الصالح أبى الحسن الشاذلى ، وإذا الفرنج أتوا إلى الزربية فيهم خيالة ومشاة وكنت صعدت أعلى القصر ، فصرت أنظر إليهم من شقوق فى حائطه ، فطلع بعضهم على زلاقة بابه ، وصاروا يتشاورون فى أمره . وكنت أعددت لنفسى مكانًا اختبىء به إن دخلوه ، ولكن خفت بأن يحرقوه فأهلك بالنار . فوقفوا ساعة، وتركوه ومضوا، فرأى أحدهم صبيًا بالزربية يعدو سريعًا عند معاينته لهم ، فعدا الإفرنجى خلفه ، فلما أحس الصبى وقف باهتًا من الخوف ، فضربه الإفرنجى بسيفه ، فالتقى الصبى الضربة بيده اليسرى : فطارت يده إلى الأرض، ثم ضربه ضربة أخرى على عاتقه، فوقع على شقه الأيمن مستقبلاً القبلة ، ومضى وتركه ، فصار الصبى ينش الذباب بيده اليمنى عن وجهه وجراحه وهو راقد ، ما أمكننى النزول من القصر إليه خوفًا من رجوع الفرنج إلى الزربية ، فصار الصبى مطروحًا بالأرض إلى أن مات شهيداً رحمه الله » . انتهى .

نعود إلى ما أحرقته الفرنج أيضًا بالإسكندرية : وذلك أنهم أحرقوا أبواب البحر الأول والثانى ، وأبواب

الباب الأخضر الثلاثة ، وباب الخوخة ، والمجانيق[١] التى كانت بالصناعتين الشرقية والغربية . وكانت أهل الإسكندرية وقت هزيمتهم أخرقوا أغربة كانت بالصناعة الشرقية لئلا تأخذهم الفرنج . فلما رأتهم الفرنج مخروقة ، أحرقتهم بالنار . ثم أحرقت الفرنج أيضًا دار الطراز والديوان بعد أن أخذوا ما فى دار الطراز من الاستعمالات[٢] الرفيعة الأثمان ، وأحرقوا أيضًا قلعة ضرغام ، والمكان المعروف بالكدس وكان برسم الاستعمالات أيضًا ...

وقيل إن الفرنج استصحبوا معهم من أسارى الإسكندرية نحو خمسة آلاف نفر ما بين مسلم ومسلمة ويهودى ذمى ويهودية، ونصرانى ذمى ونصرانية ، وإماء وأطفال، والله أعلم بعدّتهم ، ففرقوهم بأرض الرمانية واسترقوهم بعد الحرية ، فحزنت عليهم أهاليهم الحزن الشديد ، الذى ليس فوقه مزيد ...

---

(١) المنجنيق ، والجمع مناجيق : آلة لقذف الأحجار الكبار ؛ راجع على هذا المصطلح فى : كاله ، صورة من وقعة الإسكندرية ، ص ٨٨ ، هـ ١٢٦ ، وما به من مصادر.

(٢) الاستعمالات هى الملابس والثياب ؛ انظر شرح الدكتور النخيلى على هذا .

وقـد تغلغل بنا الكلام وتشـعب إلى أن أخـرجنا
عن ذكر خبـر وقـعة الإسكندرية . فلنرجع إلى ذكر
مـا فـعلتـه الفـرنج أيضًـا بهـا . وذلك أن
القتلى صـارت بهـا مطروحة فى كل ناحية ومكان
من الرجـال والنسـاء والولدان. قـيل : إن الفـرنج
كـانوا يذبحـون المرأة ويذبحـون ولدها على
صـدرها وقـيل أنهم كـانوا يجـذبون الصـبى
بين اثنين فـينقطع ويتـمزق . وقـيل : يضـربون
الصغار فى الحيطان فيهلكون »[1] .

على كل حال ، بدا وكأن الأمر قـد استتب بالإسكندرية للملك بطرس بعد الأحداث التى مرت . ولكن يمكن لنا أن نستـشف من خلال مـا مر بعد ذلك أن القرار الأخيـر للبقـاء فى الإسكندرية والاحتفاظ بها والمساومة عليها[2] لم يكن بيد الملك على الرغم من أنه كان يعتبر القائد الأعلى للقوة التى استولت عـلى الإسكندرية ، وهو مـا يمكن أن نلاحظه من لجوء الملك إلى عقد اجتماع دعا فيه جميع فئات جيشه من أعلى رتبها إلى أدناها . فلو كان يملك اتخاذ القرار الأخير ، لاكتفى بالاجتـمـاع بـالنخبة الممتازة من قادته ومسـتـشاريه لكى ينتهى هذا الاجتماع بقرار يوافق عليه هو بالضرورة . ونلاحظ أيضًا أن مـا جاء فى الاجتماع الذى انعقد من رفض أشبـه بالإجمـاع على البـقـاء فى الإسكندرية واتفاق أشـبـه بالإجمـاع أيضًـا على الانسحاب منها تحسبًا مما سوف يصيبهم على يد المسلمين من انتقام لاستعادة الإسكندرية ، وقد رأوا فى ذلك هلاكهم من غيـر شك . ورفضـهم هذا لم يترك بـالمرة مـجالاً للملك لمجرد المناقشة ، فلقد قرروا الانسحاب ووضعوه موضع التنفيذ العملى ، وضربوا بكلام ووجهات نظر كل من الملك بطرس والمندوب البابوى عُرض الحائط .

ومن هنا نأتى بتفاصيل هذا الاجتماع وما تمخض عنه من نتائج ، لنؤكد ما ذهبنا إليه فى التعميمات السابقة .

---

(١) الإلمام : ٢ / ١١٦ - ١٦٧ - ١٧٧ ، ١٧٩ ، ٢٠٧ .

(٢) انظر ما مر هنا فى الفصل الثانى ص ١٠٩ - ١١٠ما يتعلق بهذه النقطة على وجه التحديد .

ففى وقت متأخر من يوم السبت ١١ من أكتوبر ١٣٦٥م (١)، بعث الملك بالمنادين يطوفون المدينة لعقد اجتماع يحضره جميع رجال الحملة ، من جنود ووصفاء وسرجندية (رجّالة) وغيرهم ممَن لم يتعرّف عليهم " ماشو " - فى الميدان الواسع الواقع بين المدينة والبحر خارج أسوار المدينة ، وذلك للتداول حول الوضع الجديد ؛ ولما التأم شمل الجميع ، أعلن الملك فيهم أن الإسكندرية قد سقطت فى أيديهم بالفعل ، ثم طلب مشورتهم عن كيفية الاحتفاظ بهذه المدينة (٢).

وبدا واضحًا على الفور أن جيش الملك بطرس لم يكن يرغب فى الواقع إلا فى الاحتفاظ بشىء واحد ، ألا وهو تلك المغانم والأسلاب التى وقعت فى أيديهم ، وعلى هذا فعليهم المبادرة بالجلاء عن المدينة والارتحال عنها على وجه السرعة ؛ ولم يظهر فى هذا الاجتماع من يتمسك بالبقاء فى المدينة والاحتفاظ بها سوى الملك بطرس والمندوب البابوى ، فقد رفع لواء المعارضة الفيكونت دى تيرين ، وتكلم معبراً عن رأى غالبية المجتمعين بضرورة الجلاء عن المدينة ، متعللاً بضخامتها وامتداد استحكاماتها وقلة عدد الجنود مما لا يكفى لحمايتها وحراسة أبوابها جميعًا فى حالة قيام المسلمين بهجوم مضاد لاستردادها ، وهو ما لا يطيقونه ، بالإضافة إلى عدم كفاية المؤن والخيول لديهم ، وهم فى الوقت نفسه لا ينتظرون ولا يتوقعون مساعدة تأتيهم من الخارج ، وإن أتت فلن تأتيهم إلا من السماء ، وأضاف أيضًا أنهم كغزاة يشعر نحوهم المسلمون بالكره ، وإن كان ثمة تعويض يُبذل للسلطان عما حل بالمدينة ، فلن

---

(١) راجع : Daniel, The Sack of Alexandria, in : A.H.S., p. 45.

(٢) Machaut, pp., 100 - 101 :

Li gentils roys, sans detrier,
Fist parmi tout son ost crier
Que toute maniere de gent
Gens d'armes, vallet et sergent,
Fussent tuit á une assembléе,
En une place grant et lée
Quést entre la ville et la mer,
Autrement ne la say nommer .

يَقبل حتى ولو بذلن له مدينة بيزانسون[١] مقابل ذلك ، وإذا جاءت جيوش السلطان لتقاتلهم، فمعنى هذا أنهم سوف يقعون بأجمعهم فى الشرك كما تقع الفئران فى المصيدة[٢].

وقد أيد الصليبيون الغرباء رأى الفيكونت دى تيرين ، وأعلنوا تصميمهم على الرحيل[٣].

وعندما تكلم الملك للرد على المعترضين ، بذل الجهد كله لكى يغريهم ويستحثهم على التمسك بالمدينة إلى أن تصل إليهم النجدات ، وبيّن أنه يمكن للجميع أن يعيشوا بالقليل حتى يأتيهم المدد ؛ ومن المتوقع أيضًا أن يبادر إمبراطور القسطنطينية إلى مد يد العون لهم بالإضافة إلى ما يصل إليهم من مساعدات أهل رودس ؛ وأكد لهم أن الكثيرين يرغبون فى مساعدتهم إذا صمدوا ؛ ولكن – وعلى الرغم من كل ما قاله الملك – رفضوا مرة أخرى المكوث بالمدينة ، وأوضحوا له – خاصة الصليبيين الغرباء – أنه ليس فى استطاعته إجبارهم على ذلك [٤].

وهنا تصدر لهم المندوب البابوى – بطرس دى توماس – محاولاً عبثًا أن يواصل ما ابتدأه الملك للتمسك بالمدينة ومواصلة الحرب الصليبية كما هو مفروض عليهم ، فلم يلتفت أحد إلى كلامه ، فخانته فصاحته وبلاغته بعد أن أجابوه فى اقتضاب بأنهم مصرون على الرحيل ، فالحياة قصيرة ولا يودون الموت جوعًا أو قتلاً [٥].

وكانت الصدمة شديدة على نفس المندوب البابوى بعد أن تحقق أنه لا يساند الملك سوى نفر قليل ، فراح – كما يقول دى ميزيير – يندب ويبكى ، وانتابه اليأس الشديد والأسف البالغ والحزن العميق [٦].

---

(١) هى مدينة فرنسية .

(٢) Machaut, pp. 101 - 102 .

٣ – المقصود بالصليبيين الغرباء : القوات المساعدة التى لم تكن تحت قيادة الملك مباشرة ، ويمثلون بحد ذاتهم الشطر الأكبر من الجيش ؛ راجع . Daniel, op. cit., in . A.H.S., p. 46

(٤) Machaut, pp. 103 - 106 .

(٥) Machaut, pp. 106 - 107 .

(٦) Vita, in : Daniel, The Sack ..., p. 47 .

ولما وضح الموقف للملك بجلاء ، غادر الاجتماع ، وركب جواده واجتاز المدينة مع واحد من مارشالاته متجولاً ليبث الشجاعة فى قلوب جنوده ، إلا أن رجاله لم يلبثوا أن تحولوا إلى مراكبهم فصعدوا إليها ، ولم يتخلف معه سوى مائة وعشرين من حملة السلاح (١).

وهكذا انتهى المجلس بأن انفضّ وقد فشل الملك تمامًا فى اقناع رجال الحملة بتغيير موقفهم.

وعلى هذا ، اضطر الملك إلى التوجه إلى سفينته وقد اعتراه حزن لا يوصف وركب سفينته، وذهبت جهوده سدى هو والمندوب البابوى عندما كررا محاولتهما لحث الصليبيين على العودة إلى المدينة ؛ وبقى الملك وجنوده فى السفن استعداداً للإبحار فى أى وقت (٢).

ومن ناحية أخرى ، كان الأمير صلاح الدين بن عرام قد قدم من الحجاز إلى القاهرة ، فأمره يلبغا الخاصكى أن يتوجه من فوره إلى الإسكندرية وذلك بعدما تيقن من صحة الأخبار الواردة إليه عن حملة القبارصة ؛ فوصل ابن عرام إلى الإسكندرية فى ٢٥ من المحرم (١٣ أكتوبر) ، ونزع ما كان على سور المدينة من أعلام الصلبان ، ورفع أعلام المسلمين مكانها ، وذلك على مرأى من الغزاة الذين كانوا متحصنين فى سفنهم ، وهنا تيقن الصليبيون أن النجدة قد وصلت لما رأوا أعلامهم قد قلعت من أعالى الأسوار (٣).

وعمد ابن عزام إلى إنفاذ يعقوب اليهودى رسولاً منه إلي الملك بطرس لمباحثته فى استبدال أسرى الفرنج بأسرى المسلمين ؛ وبعد أن سمع الملك إلى الغرض الذى وفد عليه من أجله يعقوب اليهودى ، اشترط عليه بأن تأتيه رسائل من كل أسير بخطه الرومى وأن يذكر فيها اسمه واسم أبيه وأمه ، وكم فى الشهر الرومى من يوم أسره حتى يتأكد من أنهم على قيد الحياة ، وعلى أن يصله الرد قبل رحيله الذى حدده بعصر اليوم التالى (٤).

وفى غضون ذلك ، كانت مقدمة الجيش المملوكى القادم من القاهرة بقيادة الأمير قطلوبغا المنصورى قد وصلت إلى الإسكندرية(٥) ، ولم يلبث أن لحق بهم الأمير يلبغا الخاصكى فوصل

---

(١) Machaut, pp. 107 - 108 .

(٢) Machaut, pp. 108 - 109 .

(٣) الإلمام ، ٣ / ٢٠٩ .

(٤) الإلمام ، ٣ / ٢١٠ - ٢١٢ .

(٥) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٠٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ١١/٢٩ - ٣٠ .

هو الأخر إلى الإسكندرية فى يوم الخميس ١٦ من أكتوبر (٢٨ من المحرم) وقد أتى بعساكر مصر كالجراد المنتشر ، فلما عاين الفرنج قدوم الجيش المصرى بادروا بالرحيل بأسطولهم [١]، ولم ينتظروا قدوم الأسرى الفرنج لمبادلتهم بأسرى المسلمين [٢]، واتجهوا مباشرة صوب قبرص[٣].

وهكذا انتهت تلك الحملة االتى أنزلت بالإسكندرية الدمار والخراب فى جانب كبير منها بعد أن أقام الصليبيون بها وبماهها ثمانية أيام [٤]، وبعد أن لبثوا بها ينهبون ويقتلون ويحرقون ويأسرون من يوم الجمعة ١٠ من أكتوبر (٢ من المحرم) إلى يوم الأحد [٥].

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، ١٧٨/٢ ؛ المقريزى : المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق١ ، ص ١٠٧ ؛ وراجع أيضًا : De Méziéres, Vita, dans : Jorge, p. 302 .

(٢) النويرى : الإلمام ، ٢١٢/٣ .

(٣) Machaut, p. 109 .

(٤) النويرى : الإلمام ، ٢ / ١٧٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ٢٥٦/٢ ؛ المقريزى : السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

الفصل الخامس
فشـــل حمــلة
بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية

استرداد المدينة ورحيل القبارصة - أثر الحملة على مصر والعالم الإسلامى - ردود الفعل الناجمة عن انسحاب بطرس دى لوزنيان من الإسكندرية فى كل من قبرص والغرب اللاتينى - مفاوضات الصلح بين قبرص ومصر ودور البنادقة فيها ، والنتائج التى ترتبت عليها .

مر بنا فى الفصل السابق كيف أن بطرس دى لوزنيان قد أقلع بأسطوله متجهًا إلى قبرص حينما تيقن من وصول النجدة إلى الإسكندرية . ويعد رحيله على هذا النحو هروبًا بعدما فشل فى محاولة إقناع أتباعه بالمكوث فى المدينة . وكانت رحلة العودة إلى بلاده محفوفة بالصعاب؛ فقد هبت عاصفة شديدة شتتت سفنه فى كل اتجاه[١] مما اعتبره المندوب البابوى بطرس دى توماس وتلميذه فيليب دى ميزيير - مستشار الملك - أول علامة لمظهر السخط الإلهى نحو هؤلاء الذى حملوا الصليب ثم تخلوا عن التزاماتهم [٢]. وعلى كل حال ، فقد

---

(١) Machaut, 109 - 110 .

(٢) Atiya, The Crusade, p. 369

تجمعت سفن الأسطول أخيراً بعد وصولها إلى قبرص فى مينائى النمسون (ليماسون) Li-massol وفاماجوستا [١]، حيث تم إفراغ المغانم ، ونزل الجيش إلى الجزيرة ، ووجه الملك بطرس شكره إلى الجيوش المختلفة على خدماتها والتى شدت رحيلها فى النهاية إلى أوطانها. وأنفذ الملك بالرسائل إلى البابا أوربان الخامس وحكام الغرب يخبرهم بانتصاره ، ثم أقيم احتفال عظيم فى نيقوسيا بهذه المناسبة[٢] .

أما عن الإسكندرية ، فقد دخلها يلبغا الخاسكى عقب الوقعة ، وبعد رحيل سفن الأسطول القبرسى ، فرأى ما حل بها من خراب ودمار ، فتألم لذلك أشد الألم وصمم على الثأر من صاحب قبرس [٣]. وأمر من فوره والى المدينة صلاح الدين خليل بن عرام بإصلاح ما خربه الفرنج وأمده بالأموال اللازمة لذلك [٤].

وكانت أولى الإجراءات التى اتخذها يلبغا الخاسكى أن أصدر مرسومًا يقضى بتغريم النصارى فى مصر والشام ربع أموالهم ليستعين بها على إصلاح ما خربه الفرلجة بالإسكندرية وإعداد أسطول كبير يتم به غزو قبرس للانتقام منها ، وهو ما يمدنا به ابن كثير . ويضيف فى هذا الصدد أن نائب السلطنة فى الشام قد جاءه المرسوم بمسك النصارى جملة واحدة ، فكان أن أهين النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف ، وخشى النصارى أن يحل بهم القتل ، ولم يفهموا تمامًا ما يراد بهم [٥].

وقد قوبلت سياسة الانتقام هذه التى نزلت بأهل الذمة بعدم التأييد من بعض فقهاء المسلمين فى الشام ، فذكر ابن كثير – الذى كان هو نفسه من بين فقهاء الشام المعارضين –

---

(١) Machaut, p. 110 ; Makhairas, I, pp. 153 - 55 ; Strambaldi, p. 69 .

(٢) Machaut, pp. 110 - 111 ؛ وانظر أيضًا : Makhairas, I, p. 155; Strambaldi, p. 69; Amadi, p. 415 .

(٣) راجع : النويرى السكندرى : الإلمام ، ٢١٢/٣ – ٢١٣ ؛ المقريزى : السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١٠٧ .

(٤) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٢٠٨/٢ ، وهنا يعبر النويرى السكندرى عن مشاعر يلبغا الخاسكى بقوله : " ... ثم إن الأمير يلبغا الأتابكى المعروف بالخاسكى – المتقدم ذكره – دخل الإسكندرية عقيب الوقعة، فرأى ما حل بها وشاهد ما آل أمرها إليه من الحريق والهدم، وعاين جثث المسلمين قد انتفخت واسودت وتغيرت وجافت، بكى بكاءً شديداً وحصل له من الألم المؤلم ما حمله على أن يأخذ الثأر من الفرنج".

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ٣١٤/١٤ – ٣١٥ .

أنه قد طلب مقابلة نائب السلطنة ، واجتمع به وذكر له أن هذا الإجراء لا يجوز شرعًا ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا طالما كان أهل الذمة يؤدون الجزية وملتزمين بذلك . إلا أن نائب السلطنة احتج عليه بأن بعض فقهاء مصر قد أفتوا الأمير يلبغا الخاسكى بجواز ذلك (١).

ويضيف المقريزى إلى هذا بأن يلبغا الخاسكى قد قام بالقبض على جميع النصارى فى جميع أنحاء مصر والشام وقام بإحضار بطريرك النصارى وألزم النصارى بحمل أموالهم ليفتدى بها أسرى المسلمين (٢).

وعلى هذا ، شرع يلبغا الخاسكى من فوره بالإعداد لبناء أسطول كبير واتخاذ الإجراءات التى من شأنها الإسراع فى بنائه ، فبعث بالمراسيم إلى دمشق(٣) وحلب يطلب جمع الأخشاب اللازمة من منطقة جبل شغلان وإرسالها إلى مصر (٤).

ويذكر المقريزى أن يلبغا قد اهتم بعمل الشوانى البحرية لغزو الفرنج فجمع من الأخشاب والحديد والآلات من يجل وصفه ، وشرع النجارون فى عملها بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى ، وتولى عملها الوزير فخر الدين ماجد بن قرونية ، فقدم للعمل ، مائة شينى ، ما بين غراب(٥) وطريدة(٦) برسم حمل الخيول وكان أمرًا مهولاً(٧) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٤ / ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٠٧ ؛ وانظر أيضًا : Machaut, pp. 115 - 16 .

وقارن : ابن إياس : بدائع الزهور ، ج١ ق ٢ ، ص ٢٣ ؛ وراجع : رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٧٥١/٣ (الترجمة العربية) حيث يقول : " تعرض المسيحيون الوطنيون لمرحلة جديدة من الاضطهاد على الرغم من أنهم لم يرتكبوا جرمًا ، فنزل الدمار بكنائسهم ، بل إن كنيسة القيامة أغلقت أبوابها ثلاث سنوات". ويذكر سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ١٥٨ ، نبأ اعتقال بطريرك الإسكندرية الأنبا مرقص بسبب رفضه دفع الضرائب الفادحة الى طلبها منه سلطان مصر .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ٣١٥/١٤ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم ، ١١ / ٣٠ .

(٥) غراب ، والجمع غربان وأغربة ، من المراكب الحربية شديدة البأس التى استعملها المسلمون والأوربيون فى العصور الوسطى ؛ راجع : النخيلى : السفن الإسلامية ، ص ١٠٤ .

(٦)طريدة ، وطراد ، وتطريده ، والجمع : طرايد ، وطرائد ، وطرادات . هى سفينة برسم حمل الخيول خاصة ، مفتوحة المؤخرة لإنزال الخيول منها ؛ راجع النخيلى : المرجع نفسه ، ص ٨٩ .

(٧) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١١٣ .

أما عن النويرى ، فقد أشار إلى أنه قد تم تجهيز مائة وخمسين مركبًا منها طرائد الخيل وشوانى للغزو ، فلما كملت عمارتها شحن منها مائة سفينة بالرجال والأسلحة ، وتسربلت الغز - أى الغزاة - بملابس الحرب . ثم سارت المراكب فى النيل وتبعها هؤلاء الغز على الشاطىء على خيولهم ومعهم سلاحهم فى استعراض كبير . وأمر يلبغا بإحضار رسل صاحب الكتيلان (القطالونيين) لينظروا الجيش ، فنظروه وهالهم تلك السرعة التى تم فيها إعداد الأسطول فى عام واحد ، فتيقنوا أن يلبغا قد عقد النية لأخذ قبرس وإخرابها [١].

ويضيف النويرى أن دور الصناعة فى مصر استطاعت أن تبنى فى عام واحد مائة مركب[٢]. وكان من نصيب دور الصناعة بالشام بناء خمسين مركبًا ، إلا أن المؤرخ البيرونى صالح بن يحيى يذكر توقف العمل فى المراكب الحربية التى كانت تصنع فى دار صناعة بيروت وذلك بعد موت يلبغا الخاسكى ، فلم ينزل منها إلى البحر سوى حمالتين[٣] كبيرتين الواحدة باسم سنقرو الثانية باسم قراجا وهما أميران من أمراء ذلك الوقت ، ثم بقيت هاتان السفينتان بعد ذلك فى حوض بناء السفن فى بيروت حتى تلفتا ، وكذلك تلفت بقية الشوانى التى لم تنزل إلى البحر [٣].

وقد أثارت حملة الملك بطرس على الإسكندرية وما حاق بها من دمار وتخريب ردود فعل فى المشرق والمغرب الإسلاميين . فقد ورد على العراق طائفة من الفرنج قاصدين مدينة تورين لكى يبيعوا بضائعهم ومن جملتها أقمشة كثيرة مخيوطة وغير مخيوطة ، فسألوا أويس بن الشيخ حسن سلطان العراق المغولى أن يسمح لهم ببيعها فى أرضه ، فأجابهم إلى طلبهم . ولكن حدث فى أثناء ذلك أن بلغه خبر غارة القبارصة على الإسكندرية وأسر أهلها وما فعلوه بها ، فتألم لذلك أشد الألم وأمر بإحضار تجار الفرنج واستنكر منهم بيع قماش الإسكندرية الذى نهبوه منها فى بلده العراق ، إلا أنهم أنكروا مبينين له إنهم قد اشتروه ممن نهبوا الإسكندرية ، فكذبهم وأمر بالحوطة على أموالهم وقتلهم عن آخرهم [٤].

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٣ / ٣١(٢) ٢٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ٣ / ٢٣١ .

(٣) حمّالة ، والجمع : حمالات ، من مراكب النقل Vaisseau de Transport وهى مخصصة لنقل مؤونة الجيش وأزوداه والصناع والخدم الملحقين بالجيش والأسطول ؛ راجع : النخيلى : السفن الإسلامية ، ص ٤٠.

(٤) صالح بن يحيى : أخبار بيروت ، فى : العبادى ، تاريخ البحرية الإسلامية، ص٣٢٢ و هـ١.

وعلى الرغم مما مر بهؤلاء التجار الفرنج على يد السلطان أويس ، فقد قصد التجار البنادقة والجنوية العراق بمتاجرهم بعدما منعوا من سواحل الدولة المملوكية فى مصر والشام ، ومعهم رسل ملوكهم ، وهداياهم للسلطان أويس يسألونه أن يمكنهم من المتاجرة فى العراق ، فرفض السلطان أويس طلبهم ، وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم والاجتهاد فى عقد الصلح مع سلطان مصر ، وأن يتداركوا ما أفسدوه بالإسكندرية ، واشترط عليهم أيضًا أن يأتوه بما يثبت دخولهم فى طاعة سلطان مصر حتى يمكنهم من الاتجار ببلده [١].

أما فى المغرب الإسلامى ، فلم يجد المسلمون فى الأندلس وسيلة للتعبير عن سخطهم سوى الإغارة على جيرانهم المسيحيين الأسبان فى مدينة جيان Jean التابعة لملك قشتالة ، رغم المعاهدات المبرمة بين الطرفين . ففى رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه أبى عبد الله محمد الخامس الغنى بالله الشهير بابن الأحمر إلى سلطان بنى مرين بفاس يصف له فيها حملته على جيان فى المحرم سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦م أى بعد سنة كاملة من حادثة الإسكندرية ويضمنها ما دفعه إلى حركته هذه ضد الأسبان وهو الأخذ بثأر الإسكندرية . فتنادى المسلمون فى الأندلس (يا لثارات أهل الإسكندرية) وهى الصيحة التى أطلقها الأندلسيون كشعار فى هجومهم والتى تعد تعبيراً صادقًا عن موجة الغضب التى أثارتها بالأندلس حملة القبارصة المخربة على الميناء المصرى [٢]. ويضيف النويرى السكندرى إلى هذا ، ما بعث به السلطان ابن الأحمر من أسارى الفرنج الذين وقعوا فى أسره إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، وكانوا من الكثرة بحيث لم يكد المرء يستطيع أن يسمع صوت صاحبه من ارتفاع جلجلة قيودهم عند مرورهم ، ثم جرى بيعهم فى مدينة فاس نفسها ، وقدر النويرى السكندرى عدد هؤلاء الأسرى من الرجال والنساء والأطفال بسبعة آلاف وثمانمائة أسير وأسيرة[٣].

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٥ / ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) جاء خطاب ابن االأحمر الذى أنشأه لسان الدين بن الخطيب كاملاً فى النويرى السكندرى : الإلمام ، ٥ / ٣١٧ - ٣٣٩ .

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٥/ ٣٤٠ . وقد استقى النويرى السكندرى هذه الأخبار من المغاربة القادمين إلى الإسكندرية بسبب الحج ، ويذكر أن قاضى رنده - ويدعى أبا الفضل قاسم بن محمد - الذى كان من ضمن المغاربة الوافدين إلى الإسكندرية قد أمده بالمعلومات عن عدد الأسرى . أما عن (رنده) ، فهى مدينة قديمة بالأندلس على نهر ينسب إليها ؛ راجع : الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٦٩ .

وفى السنة نفسها للوقعة (٧٦٧هـ) توجه الملك بطرس إلى مدينة العلايا فى اثنين وعشرين غرابًا وذلك فى يوم الجمعة ١١ من رمضان (٢٢ مايو ١٣٦٦م) بعدما علم عن امتناع صاحبها عن دفع ما اتفق عليه من قبل ، فقاتله أهل العلايا حتى هزموه ورجاله وبعث أمير العلايا إلى الأمير منجك نائب السلطان بطرسوس ، يطلب منه أن يرسل إلى الملك الأشرف شعبان يخبره بانتصاره على عدوه وتعليق رجاله أحياءً بأسوار المدينة [١].

أما بالنسبة إلى الغرب الأوروبى ، فقد قوبل انتصار حملة الملك بطرس على الإسكندرية بردود فعل مختلفة . فعلى الرغم من ابتهاج البابا فى افنيون غاية الابتهاج ، إلا أننا سوف نرى بوضوح كيف كان موقف البابوية متأرجحًا ؛ ففى سنة ١٣٦٦م / ٧٦٧ - ٧٦٨هـ نجد البابا أوربان الخامس يعزز موقف الملك بطرس بإعلانه عن انشغاله بإعداد حملات صليبية أخرى ، محاولاً بذلك عرقلة المفاوضات بين المماليك والبنادقة الذى سارعوا بإرسال سفرائهم إلى السلطان المملوكى يشجبون ما أقدم عليه الملك بطرس بالإسكندرية ، معلنين استنكارهم ومؤكدين للسلطان المملوكى أنه لم يكن لهم يد فى الأمر ، متوسلين إليه إعادة السلام والصداقة ، واستئناف المعاملات التجارية لما فيه صالح الطرفين[٢]. وحرم البابا أيضًا كل تجارة مع المسلمين ، ودعا إلى إنهاء الحظر الذى فرضه البنادقة على تصدير الأسلحة إلى قبرس [٣]. إلا أننا نجد البابا بداية من سنة ١٣٦٧م / ٧٦٨ - ٧٦٩هـ ، قد ازدادت رغبته فى الموافقة على مطالب الإيطاليين ؛ ففى العام نفسه تم رفع الحظر على التجارة مع المسلمين، ولم يكن البابا أوربان على استعداد - فى الوقت الذى كان فيه الملك بطرس فى رومة[٤] فى العام التالى ١٣٦٨م / ٧٧٠هـ لمساندة طلب الملك الخاص بالمساعدة العسكرية ، ومارس

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٥٣ أ - ٢٥٣ ب (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) ؛ وقد استقى صاحب الإلمام هذا الخبر من مصدر شفوى ، وهو رجل دلاّل لبيع الجوارى الروميات يعرف بأبى بكر بن عثمان الدلال ، جاء إلى الإسكندرية فى شهر ذى الحجة سنة ٧٦٧ هـ .

(٢) راجع : Machaut, pp. 115 - 117 .

(٣) Edbury, The Crusading policy, p. 97 and n, 49 .

٤ - قرر البابا أوربان الخامس بعد سنة ١٣٦٥م أن يعود إلى مقره فى رومة ، فغادر أفنيون فى ٣٠ أبريل سنة ١٣٦٧م ، واستقل مركبًا من مرسيليا فى ١٩ مايو ١٣٦٧م متوجهًا إلى رومة التى وصل إليها فى الثالث من يونيه ١٣٦٧م ؛ راجع : Renouard, La Papauté, pp. 53 - 4 .

الضغوط عليه لكى يسمح للبنادقة والجنوية بالتفاوض بإسمه لعقد معاهدة السلام مع مصر[١]. وذلك قبل توقيع أى معاهدة من المعاهدات بل وقبل معرفة حقيقة نوايا السلطان المملوكى[٢]، الذى رفض أن يصل إلى أى تفاهم نهائى مع الدول المسيحية وهو لم يزل فى حالة حرب مع قبرس . فما كان من مبعوثى البنادقة إلا أن أبحروا إلى قبرس وحثوا الملك بطرس على أن يشرع فى المفاوضات مع سلطان مصر [٣].

وكان لهذا التصريح السابق لأوانه من جانب البنادقة أثره فى وضع حد للاستعدادات الجارية مع أوربا لحملة صليبية ، وفى إضعاف موقف الملك بطرس فى مفاوضاته . وكان من نتيجة ذلك أن قاد أميديو كونت سافوى حملته متوجهًا إلى بيزنطة [٤]. وحينما أرسل إليه الملك بطرس يدعوه للقدوم لمساعدته ، رد عليه أميديو يعلمه بأن البنادقة قد أفهموه بأن الصلح قد تم إبرامه مع مصر ، ومن ثم لم تعد هناك ضرورة لبذل المساعدة له ؛ فقد كان أميديو فى طريقه لمحاربة الأتراك ، وكان الأوان قد فات كثيراً لكى يغير من خطته فى الوقت الذى كانت فيه الحاجة ماسة إلى بذل مساعدته فى البلقان لتخليص ابن عمه الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجس من أسرة فى بلغاريا [٥].

ولقد تميزت السنوات الأخيرة من حكم بطرس دى لوزنيان بإجراء سلسلة معقدة من المفاوضات بين قبرس والسلطنة المملوكية فى مصر ، اشترك فيها بصورة مباشرة أصحاب المصالح التجارية من قطالونيين وإيطاليين . فقد تطلع التجار الذين تعطلت مصالحهم التجارية إلى حد كبير بنهب الإسكندرية إلى أن يسود السلام لكى يستأنفوا علاقاتهم

---

(١) Machaut, pp. 219 - 21 ؛ وانظر أيضًا : Jorga, phil. de Méz., p. 364; Edbury, op. cit., p. 98؛ وقارن : النويرى السكندرى : الإلمام ، ١/٩٣ ؛ ٥/ ٢٨٠ ، فهو يذكر فى هذه الصفحة الأخيرة بأن البابا قد استدعى الملك بطرس للتحقيق من شكوى الجنوية ضده بسبب ما ضيعه من أموالهم وقتل رجالهم وتعويق صاحب مصر لتجارهم .

(٢) Makhairas, I,p. 163 .

(٣) Machaut, pp. 118 - 119 ; Makhairas, I, p. 161 .

(٤) Makhairas, I, p. 163 .

(٥) Makhairas, I,pp. 163, 165 - 167 .

التجارية مع المسلمين ، ولم يكونوا يهتمون كثيراً إن كانت اتفاقية السلام سوف تتفق ومصالح القبارصة أو لا توافقهم [١].

وبالرجوع إلى النويرى السكندرى فى كتابه المطبوع نلاحظ كما - ذكرنا فى المقدمة - ذلك النقص الواضح فى بعض النصوص الخاصة بالمرحلة التالية على الحملة ، ولكى تستكملها تلك النصوص الواردة فى مخطوطة الهند من الإلمام التى تتفق ومجريات الأحداث وتتابعها ، ولذا كان علينا أن نربط بين ما جاء به النويرى فى الكتاب المطبوع ونصوص مخطوطة الهند وبين المصادر الغربية الخاصة بأحداث الحملة ، ومن أهمها ماشو ، وفيليب دى مزيير ، ومخيراس حتى يتسنى لنا ترتيب الأحداث ترتيبًا زمنيًا فى محاولة لإزالة بعض الغموض أو التضارب الذى يكتنف أحداث المفاوضات وما يتخللها من محاولات الملك بطرس العدوانية على سواحل الشام ومصر .

فقد سبق لنا أن ذكرنا أن المبادرة الأولى كانت من جانب البنادقة ، ويتمثل هذا فى وصول رسلهم إلى بلاط السلطان المملوكى فى أبريل ١٣٦٦م / شعبان ٧٦٧هـ ، ثم توجه رسلهم بعد ذلك إلى فاماجوستا بصحبة رسول من مصر هو طقبغا[٢] لإقناع الملك بطرس بالشروع فى إجراءات الصلح ومؤكدين له نية السلطان الحسنة بالسماح لرسوله وحاشيته باصطحابهم [٣].

ويذكر كل من ماشو وماخيراس أن الملك بطرس كان يخطط فى عام ١٣٦٦م / ٧٦٧ - ٧٦٨هـ لمهاجمة ميناء بيروت الذى يعتبر من أكبر الموانىء أهمية على ساحل الشام ولكنه كف عن هذه المحاولة بسبب ضغط الإيطاليين عليه من ناحية ، وبسبب قصور موارده من ناحية أخرى . ويضيف ماشو أن البنادقة هم الذين أثنوا الملك بطرس عن مهاجمة بيروت نظراً لما كان لهم فيها من متاجر ، وقد خضع الملك بطرس لهم نظراً لمساعدتهم التى قدموها له فى حملته على الإسكندرية [١]. وتعهد له البنادقة فى الوقت نفسه بدفع الأموال والنفقات التى صرفها

---

(١) Edbury, The Crusading Policy, p. 97 .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ق ١ ، ص ١٢٠ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٣ ، ق١ ، ص ١٢٠ .

(٤) Machaut, pp. 114 - 122; وانظر أيضًا : Makhairas, I pp. 157 - 59; Edbury, op. cit., p.

الملك فى الاستعداد لحملة بيروت[١] . وتحت ضغط البنادقة عليه وافق أخيراً على العدول عن مهاجمة ميناء بيروت وحول حملته إلى شواطىء آسيا الصغرى للإغارة على الأتراك السلاجقة[٢].

وإذا تقبلنا النظرية أو الرأى الذى يذهب إلى أن الملك بطرس كان يخوض حربًا تجارية ، فإن هجومًا يقوم به على بيروت يصبح الخطوة المنطقية التالية بعد إغارته على الإسكندرية على الرغم من أن المماليك كانوا يدبرون لشن هجوم مضاد على قبرص ، وربما كان الملك بطرس قد فكر فى القيام بهجوم مماثل على أراضى الدولة المملوكية [٣].

وفى وثيقة يحتفظ لنا بها فيليب دى ميزيير عن أولى الخطوات من أجل إبرام معاهدة الصلح ، والتى حدثت فى سنة ١٣٦٦م / ٧٦٧هـ تشير إلى وصول الرسول المصرى طقبغا إلى فاماجوستا فى ٣١ مايو ١٣٦٦م / ٩ رمضان ٧٦٧هـ ودخوله نيقوسيا فى ٢ يونية ١٣٦٦م / ١١ رمضان ٧٦٧هـ ، واجتماعه بملك قبرص ، وتسليمه رسالة من يلبغا الخاسكى الموقعة بتاريخ ٦ رمضان ٧٦٧ هـ / ١٧ مايو ١٣٦٦م [٤]. فطالب الملك بطرس أن يتخلى المسلمون له عن بيت المقدس ثمنًا لإبرام معاهدة السلام ، وذكر أشياء أخرى مثل ضريبة الحج إلى بيت المقدس التى يفرضها المماليك على المسيحيين ، وعن عدم الأمان الذى يشعر به الحجاج إلى بيت المقدس [٥].

إلا أنه من الملاحظ أن الرسول المصرى طقبغا ، لم يكن مفوضًا لإبرام أى معاهدة مع ملك قبرص ، وإنما كان عليه إبلاغ شروط سلطان مصر ، التى تتضمن إرجاع الأسرى وأموال الإسكندرية التى نهبت أولاً وقبل القيام بأى إجراءات من أجل الصلح [٦].

---

(١) عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٧١ .

(٢) Machaut, pp. 118 - 120 ; Makharas, I, pp. 159 - 161 .

(٣) Edbary, op. cit., p. 98 .

(٤) Jorga, phil. de Méz., pp. 312 - 22 ؛ ولكن راجع : Makharias, I, p. 61 ، فهو يذكر بأن سفينة البنادقة قد رست فى فاماجوستا فى ٢٧ مايو ١٣٦٦م .

(٥) Machaut, pp. 123 - 124 ؛ ويشير ماشو هنا إلى أن رسل السلطان المملوكى قد بلغ عددهم ثلاثين شخصًا ، والراجح لدينا أن هذا العدد يضم حاشيته .

(٦) المقريزى : السلوك ، ج٣ ق١ ، ص ١٢٠ ، ويضيف هنا المقريزى بأن طقبغا قد توجه إلى قبرص ، وبلّغ رسالته ثم عاد فى أول رمضان سنة ٧٦٧هـ / ١٢ مايو ١٣٦٦م؛ وقارن : ابن إياس : بدائع الزهور، =

ولكن هناك سببًا لأن نفترض بأن الملك بطرس لم يكن لديه الرغبة الحقيقية فى إقرار هذه المعاهدة ، إذ كان مقصده هو اكتساب الوقت فحسب . ولعله كان لايزال يأمل فى وصول المساعدات إليه لكى يواصل سياسته العدوانية إزاء الدولة المملوكية فى مصر والشام (١). وعلى أية حال ، لم يرد ذكر هذه السفارة أو الإشارة إليها فى إلمام النويرى السكندرى .

ولكن ، وبعد أن أذاع البنادقة خبر إبرام الصلح بين مصر وقبرس ، وبعد أن قام الملك بطرس بتسريح جيشه من الأغراب ولم يعد لديه أى أمل حقيقى فى تلقى مساعدة أخرى كبيرة من الغرب ، بعث ثلاثة من القطالونيين يتكلمون نيابة عنه فى بلاط السلطان المملوكى ، وهم جان ألفونسو Jean d'Alfonso وهو يهودى تمسح وجرى تعميده ، وجورج سيتيكا George Settica ، وبول دى بيلونيا Paul de Belonie ، فتوجهوا وهم محملون بالهدايا ومجهزون بأوراق الاعتماد إلى الإسكندرية ومعهم رسول السلطان طقبغا الذى استقل مركب البنادقة . وقد استقبلهم السلطان فى القاهرة وسألهم كشرط أساسى أن يطلبوا من سيدهم إرجاع الأسرى الذين اختطفهم من الإسكندرية (٢).

وعلى هذا الأساس استجاب الملك بطرس لمطلب السلطان وأمر بأن يجمع ما تبقى من الأسرى فى غراب مخصوص ، ثم بعث بهم إلى مصر بصحبة بول دى بيلونيا (٣).

هذا ، ولم تحدد المصادر الغربية تاريخًا للسفارة التى بعث بها الملك بطرس إلى مصر ، ولكن بالمقارنة بما جاء فى كلام النويرى السكندرى الذى حدد تاريخ رجوع الأسرى من جنوة أولاً بيوم الأحد الثانى من ذى القعدة ٧٦٧هـ / ١١ يوليو ١٣٦٦م (٤)، وتعهد الرسول الجنوى المصاحب للأسرى للسلطان الأشرف شعبان بإرجاع الأسرى الذين فى قبرس ، وعودة

= ج ١ ق٢ ، ص ٣٧ ، فهو يذكر أن طقبغا قد توجه إلى قبرس فى شهر شعبان من العام نفسه (من مارس - إبريل ١٣٦٦م) وأدى رسالته وأقام مدة بقبرس ، ثم عاد إلى مصر .

(١) Edbury, op. cit., p. 98 .

(٢) Makhairas, I, p. 163 .

(٣) Machaut, p. 128; Makhairas , I, 164 ؛ وهو يذكر هنا أن الملك بطرس قد وكل أمر السفر إلى جيوم دى راس Guillaume de Ras بصحبة بول دى بولونيا ، إلا أن جيوم وقع مريضًا فرجع إلى نيقوسيا لتلقى العلاج ، ومن ثم أكمل بول دى بولونيا طريقه إلى الإسكندرية بصحبة الأسرى .

(٤) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٣٤ ب (مُن نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع).

الأسرى بالفعل من قبرس فى ٨ صفر ٧٦٨هـ[١] / ١٥ أكتوبر ١٣٦٦م وهو ما ينص عليه النويرى فى نصوص مخطوطة الهند .

وعلى ذلك يمكن لنا أن نرجح بأن هذه السفارة إنما كانت فى أواخر سنة ٧٦٧هـ / حوالى منتصف ١٣٦٦م والملاحظ هنا أن الجنوية قد قاموا باتخاذ هذه الخطوة من جانبهم فى محاولة منهم لاستعادة علاقاتهم التجارية مع الدولة المملوكية . فقاموا بإحضار أكثر من سبعين أسيراً وأسيرة من أسارى الإسكندرية فى التاريخ المذكور (الأحد ٢ من ذى القعدة ٧٦٧هـ) . ونلاحظ أيضًا عدم ورود أية إشارة إلى هذا الإجراء من جانب الجنوية فى المصادر الغربية ، بل انفرد النويرى من بين المعاصرين - حسبما أشرنا منذ قليل - بذكر هذا الخبر عن رجوع أسرى الإسكندرية من جنوة ، بالإضافة إلى انفراد المقريزى من بين المؤرخين غير المعاصرين بذكر هذا الخبر[٢] . وقد أغفل المحدثون الذين رجعوا فى كتاباتهم إلى مخطوطة الهند للنويرى هذه النصوص الخاصة بهذا الحدث [٣].

ونستدل من نصوص النويرى السكندرى هذه فى مخطوطة الهند أن الجنوية قد قاموا بإرسال رسل إلى السلطان المملوكى فى مصر ، وأن الأخير أرسل رسولاً إلى جنوة ، ثم رجع الرسول المصرى والجنوى بصحبة الأسرى العائدين من جنوة [٤].

وقبيل وصول أسرى الإسكندرية من قبرس فى شهر صفر المذكور ، ظهر رسل القطالونيين والبنادقة فى المحرم من السنة نفسها (سبتمبر ١٣٦٦م) فى ميناء الإسكندرية ، حيث امتنع

---

(١) النويرى السكندرى : المصدر السابق ، نسخة الهند ، لوحة ٢٣٧أ - ٢٣٨ ب ، ٢٣٩أ (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ٣ ق١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ، وهو يذكر عدد الأسرى العائدين من جنوة بستين أسيراً وأسيرة .

(٣) من هؤلاء المحدثين : دكتور سالم فى كتابه « تاريخ الإسكندرية » ، والدكتور حسن حبشى فى مقالته « هجوم القبارصة على الإسكندرية ، والدكتور العبادى فى كتابه « تاريخ البحرية » .

(٤) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٣٦ب - ٢٣٧أ (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) ، إلا أن النويرى السكندرى لم يذكر أسماء الرسل المبعوثين إلى جنوة ، ويقول على لسان الأسرى العائدين من جنوة : " ثم بعد مدة ، بشرنا القسيس الموكل بسفرنا إلى الإسكندرية برجوعنا إلى أوطاننا ، ففرحنا لذلك ، وتجهز رسل المسلمين ورسل الجنويين وسافرنا معهم إلى أن أتينا إلى الإسكندرية سالمين " .

القطالونيين عن النزول إلا بعد أخذ رهائن من المسلمين وتبعهم فى ذلك البنادقة [١]، فما كان من نائب الإسكندرية فى ذلك الوقت " بكتمر الشهير بالشريفى " إلا أن أرسل إلى جهة دمنهور يطلب بعض المساجين ممن حكم عليهم بالقتل ، ثم أمر بإلباس كل منهم ملابس تتناسب مع مركزه الذى اختاره له ، وانطلت هذه الحيلة على البنادقة ، فنزلوا من مراكبهم وحملوا إلى القاهرة وحضروا بين يدى الأمير يلبغا الخاسكى ، الذى استقبلهم مرحبًا وبذل لهم الهدايا فرجعوا إلى ثغر الإسكندرية ، وردوا ما كان عندهم من رهائن المسلمين ، ثم ارتحلوا إلى بلادهم . ثم لم يلبثوا أن عادوا سريعًا إلى الإسكندرية فنزلوا من مراكبهم من غير أن يطلبوا رهائن من المسلمين هذه المرة ، فلما شاهدتهم رسل القطالونيين - وكان لهم مدة طويلة بمراكبهم - نزلوا بعد نزول البنادقة من غير أن يطلبوا رهائن أيضًا ، وحملوا إلى القاهرة ، ومثلوا بين يدى الأتابكى يلبغا الخاسكى فأكرمهم وأنزلهم فى دار الضيافة[٢] .

أما عن البنادقة ، فقد أرسل يلبغا معهم رسله إلى صاحب البندقية وصاحب جنوة وحملهم هدايا لملوكهم ، وأمنهم عى أنفسهم حين يحضرون لزيارة كنيسة القيامة على ألا يساعدوا صاحب قبرس ، وأنذرهم بعدم انعقاد أى صلح بينهم وبين السلطان المملوكى إذا ما مدوا يد العون لملك قبرس . وكان رسول السلطان الذى رسم له بالسفر معهم هو الأمير سيف الدين طغية بن العُرضى ومعه جنده وخدمه ، وحين اعتزم البنادقة الفر ، رفعوا هدايا ملوكهم إلى مراكبهم وتركوا على الساحل هدايا ملوك النصارى [٣]. وسافروا فى ٢٨صفر ٧٦٨هـ / ٥ نوفمبر ١٣٦٦م فلما علم السلطان بسفر البنادقة وحملهم هداياهم فقط ، أرسل أمراً إلى الأمير بيدمر نائب الشام بتعويق تجار البنادقة الذين عنده عن السفر[٤].

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٣٩ ب (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع)؛ المقريزى : السلوك : ج ٣ ق ١ ، ص ١١٨ - ١١٩ ، ونلاحظ أن المقريزى يؤرخ هذه السفارة بشهر المحرم سنة ٧٦٧ هـ ، وهو - كما هو معروف - شهر الوقعة نفسها .

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٤٠أ - ٢٤٠ ب (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) .

(٣) لعل النويرى السكندرى يقصد بذلك الهدايا الموجهة إلى صاحب جنوة خاصة .

(٤) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٤١أ (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع)، وهو يذكر هنا ما يلى : " وكان بالشام ثلاث قراقر فيها تجار البنادقة ببضائعهم . فبعد أن تجهزوا للسفر وتحايل عليهم نائب السلطان حتى أنزلهم من مراكبهم ، وأحيط بهم ، وُقبض عليهم " .

وهناك إشارة أخرى من جانب النويرى السكندرى إلى وصول رسول من قبل ملك قبرس قام يلبغا باعتقاله وكاد أن يأمر بقتله[١] ، فما كان من الرسول إلا أن أخبر يلبغا أن غريمه (يقصد صاحب قبرس) فى غراب بالإسكندرية ينتظر الرد منه ، فما كان من يلبغا إلا أن جهز ثلاثة أغربة بعث بها فى الليل إلى الإسكندرية التى بها خمسة أغربة أخرى ، ثم وصلت الأغربة الثلاثة إلى ميناء الإسكندرية فجر يوم السبت ٣ ربيع الأول ٧٦٨ هـ / ٨ نوفمبر ١٣٦٦م ، فحدث اشتباك بينها وبين الغراب المذكور الذى طلب الحماية من سفن القطالونيين والجنوية التى كانت راسية بالميناء فى انتظار رسلهم ممن كانوا بالقاهرة . ثم تمكن الغراب من الهرب بمساعدة القطالونيين والجنوية له ، فاشتبكت سفن المسلمين مع سفن القطالونيين والجنوية بسبب مساعدتهم له ، وكانوا على وشك حرق مراكب القطالونيين لولا وصول البريد من القاهرة بكتاب الوزير الفخرى بن قرونية يوصيهم فيه بالجنوية والكتيلان (القطالونيين) فخلوا سبيلهم [٢]. وفى أثر ذلك ، أحضر الأمير يلبغا الرسل القطالونيين وهددهم بما فعلت أصحابهم بالمسلمين فالتزم أحد الرسل بإحضار باقى أسارى الإسكندرية من قبرس ، فرسم له بالسفر مستصحبًا معه من رسل المسلمين ناصر الدين محمد بن قراجا الشريفى ورفيقه سيف الدين الجوبانى وحاشيتهما [٣]. وكان أن قتل يلبغا الخاسكى فى يوم الأحد ١٠ ربيع الأول ٧٦٨هـ / ١٥ نوفمبر ١٣٦٦م [٤]، وذلك بعد سفر الرسولين المذكورين .

وبعد مقتل يلبغا وفى عهد خلفه أستدمر ، ورد إلى ميناء الإسكندرية غراب للبنادقة فيه رسل من البندقية من أجل تخليص أصحابهم المسجونين بدمشق ، فكان أن رفض أستدمر

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٤١ ب (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع).

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٤٢ب - ٢٤٣أ (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) . ولم يتأكد - على كل حال - من وجود الملك بطرس فى الغراب المذكور ، ومن المحتمل أن تكون هذه حيلة من الرسول القبرسى حتى ينجو بنفسه من القتل . ويضيف صاحب الإلمام فى اللوحة (٢٤٣أ): " ... سافرت قراقر الجنوية والكتيلان ، واستدعى السلطان رسلهم وقال لهم : أنتم تزعمون أنكم أتيتم بسبب الصلح ، وتقاتلنا أصحابكم ، وتمنعونا أخذ ثأرنا من أعدائنا ، فأنتم إذا خونة " ، ثم قام السلطان بسجنهم .

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٤٣أ (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) ، وهو يذكر هنا أن الرسل قد سافروا من جهة دمياط .

(٤) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٤٤ب (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع).

طليهم وقام بسجنهم . إلا أنه ما لبث أن أفرج عنهم واشترط عليهم أن يأتوا بأسارى الإسكندرية وأموالها التى نهبت ورسول السلطان - ابن العُرض - : فلما عادوا إلى البندقية، أطلق سراح الرسول بن العُرض فعاد إلى القاهرة وأخبر السلطان والأمير أسندمر بما جرى له مع البنادقة[١] .

أما عن الرسولين اللذين أرسلهما يلبغا قبل مقتله بصحبة رسل القطالونيين إلى قبرس فى ربيع الأول ٧٦٨ هـ / نوفمبر ١٣٦٦م فكانت مهمتهما الأولى هى التباحث فى أمر إرجاع باقى الأسرى أولاً ، والتعرف على مطالب الملك بطرس الخاصة بشروط الصلح ثانيًا . إلا أن هذين الرسولين لم يكونا مفوضين عن السلطان المملوكى فى أمر الموافقة على أية شروط خاصة بمعاهدة الصلح ؛ ولذلك كان لابد لهما من العودة إلى مصر وعرض مطالب القبارصة على السلطان المملوكى ، مما اعتبره الملك بطرس مماطلة من جانب سلطان مصر . وعلى هذا توجه الملك بطرس إلى طرابلس الشام فى نوفمبر ١٣٦٦م كما يحدد مخيراس [٢]، أو أوائل سنة ٧٦٨هـ كما فى كلمات النويرى السكندرى[٣] بعد أن كان قد جهز أسطولاً ضخمًا تحت قيادته يتكون من مائة وست عشرة مركبًا منها ست وخمسون من الأغربة وغيرها من السفن الشراعية الضخمة وستون سفينة أخرى . إلا أن عاصفة عاتية مزقت وحدات الأسطول وشتتته ، ولم ينجح سوى فلوريمون دى ليبار Floimont de Leparre مع خمسة عشر غرابًا ، فتمكن من الوصول إلى طرابلس ، وقام فلوريمون بسلب المدينة ونهبها ، ثم عاد إلى قبرس ، فكانت محاولة الملك بطرس الاستيلاء على طرابلس محاولة فاشلة على وجه الإجمال [٤].

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، نسخة الهند ، لوحة ٢٤٥ أ (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) . ويضيف صاحب الإلمام هنا : " ... قيل لأسندمر : المسلحة إطلاقهم من السجن يمضون إلى حال سبيلهم ، فإن ابن العُرضى - رسول السلطان - عندهم يمنعونه ومن معه من الحضور " .

(٢) Makhairas, I, p. 169 ؛ والملاحظ هنا التوافق بين التاريخ الذى أتى به مخيراس والتاريخ الذى ذكره النويرى السكندرى فشهر نوفمبر ١٣٦٦ يوافق ربيع الأول من سنة ٧٦٨هـ . راجع فى ذلك ، جدول ف . ويستنفلد، ص ٧٠ .

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٦٧/٣ ؛ ٧٧/٥ ؛ ولكن انظر عنده مزيداً من التفاصيل عن هذه الوقعة فى : ٥ / ١٠٤ - ١٠٧ .

(٤) Machaut, p. 129 ; Makhairas, I,pp. 169 - 171 ؛ وانظر أيضًا : Atiya, The Crusade, pp. 372-373 .

وبعد هذه الوقعة فقط ، بدأت سلسلة جادة من المفاوضات بين الطرفين ، وكان من الممكن التوصل إلى تسوية بينهما ، إلا أن الملك الأشرف شعبان رفض التصديق النهائي على المعاهدة[١]. ويمدنا ماشو ببعض بنود هذه المعاهدة التي لم يتم إبرامها ويحدد تاريخ المحادثات بشأنها بيناير سنة ١٣٦٧م / جمادى الأولى ٧٦٨هـ . ومن هذه البنود ، أن يقوم الملك بطرس بإرجاع باقي الأسرى من الإسكندرية مقابل فك أسر الفرنج المحبوسين بالقاهرة ، وأن تخفض الضريبة التي تؤخذ على المتاجر إلى النصف ، وتلغى الضريبة المأخوذة من الحجاج المسيحيين ، وأن يقوم السلطان المملوكي بإرجاع صليب الصلبوت الموجود في القدس إلى قبرص [٢].

هذا ، وقد أورد دي ماس لاترى بنود هذه المعاهدة التي تبلغ واحداً وعشرين بنداً تتعلق الثلاث عشرة مادة الأولى منها بالامتيازات التجارية التي تمنح للقبارصة والتسويات التجارية بين الطرفين ؛ وهناك مواد أخرى تشترط في هذه المعاهدة بألا يسمح المسلمون بإيواء الأتراك أو القراصنة ، وألا يقوم المماليك بالثأر من القبارصة بسبب ما يرتكبه المسيحيون الوافدون من الغرب في حق المسلمين ؛ وأن تطلق حرية دخول الأراضي المقدسة لأفراد أسرة الملك بطرس وتابعيهم ؛ وثمة مادتان من هذه المواد كانتا تتعلقان بتجنب أي صدام يقع في المستقبل وذلك عن طريق التحكيم وإرجاء هذا الأمر في حالة نشوب نزاع بين الطرفين إلى حين البت في أسبابه ؛ وأما آخر هذه المواد فكانت تشير إلى أن معاهدة السلام تشمل فرسان القديس يوحنا (الإسبتارية) حلفاء الملك بطرس [٣].

هذا ولم يرد في إلمام النويري السكندري أي ذكر لبنود هذه الاتفاقية التي لم يتم إبرامها.

وعلى هذا ، كان رد الفعل لدى الملك بطرس - وكان مشغولاً تماماً في الوقت الذي تجرى فيه المفاوضات بهجوم تركي على جورهيجوس وبتمرد حامية مدينة ستاليا[٤] - إلا أنه سير أسطولاً للإغارة على طرابلس وعلى موانيء شمال الشام حتى مدينة ستاليا [٥].

---

(١) Edbury, The Crusading Policy, p. 98 .

(٢) Machaut, pp. 172 - 176 .

(٣) Maslatrie, in : Edbury, op. cit., p. 98 and n. 61 .

(٤) Edbury, op. cit., p. 98 and n. 57 .

(٥) Machaut, pp. 204 -17; Makhairas, K, pp. 189 - 195 ؛ وانظر : النويري السكندري : الإلمام، ١٠٦/٥ - ١٠٧ ، ١٢٣ - ١٢٥ ، ١٥٣ - ١٦٣ ، ١٦٥ - ١٨٢ . ويذكر النويري في هذه الصفحات أن الجنوية قتلوا جماعة من القبارصة بسبب ابن صاحب جنوة الذي قتله المسلمون ، ثم يورد خط=

وفى مختتم سنة ١٣٦٧م (حوالى منتصف ٧٦٩هـ) ، قام الملك بطرس بزيارته الثانية إلى الغرب بغرض حشد المزيد من الجنود ؛ إلا أن أحداً لم يقدم له المساعدة التى كان يتوقعها[١]. ثم إن البابا - كما سبق وأن ذكرنا [٢]- استحث الملك بطرس على أن ينفذ سفارة من البنادقة والجنوية إلى المماليك لالتماس عقد معاهدة السلام باسمه ، وقد وصلت هذه السفارة إلى القاهرة فى صيف ١٣٦٨م / ذى الحجة ٧٦٩هـ إلا أنها أخفقت فى تحقيق أى نجاح [٣].

ويمدنا النويرى السكندرى بالأحداث السابقة على هذه السفارة والمقترنة بها إلى جانب بنود المعاهدة التى كان قد اقترحها الملك بطرس ورد الجانب المصرى عليها . وهنا ينفرد النويرى من بين المؤرخين االمسلمين المعاصرين[٤] بإيراده بنود هذه الاتفاقية التى لم يكتب لها النجاح كما سوف نرى بعد قليل ؛ والملاحظ أيضًا فى هذا الصدد أنه لم يتعرض لها المؤرخون المحدثون . أما فى الجانب الغربى فلم يتعرض من المحدثين إلى ما يقابل ما أتى به النويرى السكندرى من بنود هذه المعاهدة إلا دى ماس لاترى الذى يستقى بلا شك معلوماته عن هذه الشروط من الوثائق الغربية المعاصرة [٥].

= سير حملة الملك بطرس من طرابلس إلى جبلة ومنها إلى اللاذقية ثم إلى بانياس التى قام بحرقها ، ثم توجهه إلى إياس التى اتفق أهلها من الأرمن مع نائب السلطان فى الشام واستطاعوا هزيمة بطرس وأسطوله ، ويذكر أيضًا أن الهنكر (يقصد المجرمين) تركوا القبرسى بعد أن تشاءموا من كعبه ، ويبدو لنا أن هؤلاء المجرمين كانوا ضمن فرق الأغراب المرتزقة التى كانت تحارب مع الملك بطرس .

(١) Machaut, pp. 219 - 220. ؛ وانظر أيضًا : Edbury, op. cit., p. 98. ؛ هذا ويورد ماس لاترى فى حاشية له " ماشو " (p. 286,n. 65) فيما يتعلق برحلة الملك بطرس الثانية إلى الغرب ، ما يلى : " غادر الملك بطرس جزيرة قبرس من بافوس Paphos فى الشهور الأخيرة من سنة ١٣٦٧م وأقام فى روس أولاً ثم فى نابولى ... ولا نعرف تمامًا الوقت الذى وصل فيه إلى رومة التى مكث بها فى الفترة الممتدة من مارس إلى مايو سنة ١٣٦٨م" ؛ وراجع أيضًا : Makhairas, I, pp. 199 - 201 .

(٢) راجع هنا ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥من هذا الفصل .

(٣) Makhairas, I, pp. 199 - 201 ؛ وانظر : Edbury, The Crusading Policy, p. 98 .

(٥) أنهى ابن كثير كتابه " البداية والنهاية " بحوادث سنة ٧٦٧هـ ؛ أما ابن حبيب فلم يذكر شيئًا فى كتابه تذكرة النبيه - فى حوادث سنة ٧٦٩هـ - عن هذه السفارة. أما المتأخرون منهم - مثل المقريزى فى كتابه السلوك ، وابن تغرى بردى فى كتابة النجو ، وابن إياس فى بدائع الزهور - فلم يتعرضوا أيضًا لهذه السفارة فى حوادث سنة ٧٦٩هـ المذكورة .

(٦) Mas Latrie, in : Edbury, op. cit., p. 98 .

ومن المناسب أن نورد هنا بنود هذه الاتفاقيـة كاملة كما أوردها النويرى السكندرى ورد الجانب المصرى عليـها . ولكن يجدر بنا أولاً أن نشير إلى ما سبقها من أحداث تدل على تحرش التجار البنادقة والجنوية والقبارصة بموانىء مصر ورد فعل الجانب المصرى على هذا التحرش . ففى ربيع الآخر ٧٦٩ هـ / ٢٥ نوفمبر - ٢٣ ديسمبر ١٣٦٧م يصل إلى ميناء الإسكندرية البنادقة والجنوية فى سفن لهم مطالبين بالتباحث فى الصلح وتمكينهم من التجارة، وفى الوقت نفسه رفضهم أن يبعثوا بأسير مسلم كان لديهم . فلما اعتزموا السفر ، تمت الحوطة على مائتى تاجر منهم كانوا يتسوقون للسفر ، فمنعهم أهل الإسكندرية من الخروج من باب البحر وأدى ذلك إلى الاشتباك بين سفن البنادقة والجنوية وبين سفن المسلمين ، وتصدى لهم إبراهيم التازى رئيس دار الصناعة ومن معه من أصحابه فقبض على بعضهم وتم سجنهم مع المئتى تاجر [١]. وهنا أحضر نائب السلطان بالإسكندرية[٢] التجار والقناصل المقيمين بالإسكندرية وقرأ عليهم كتاب السلطان الوارد عليه ويتضمن تعويق كل البنادقة والجنوية وغيرهم من الفرنج عن السفر ، وأن على الفرنج جميعهم ألا يدخلوا سواحل المسلمين بمتجر أبداً إلا بعد أن يأتوا بأموال الإسكندرية وجميع أسراها ؛ ثم ورد مرسوم آخر إلى الإسكندرية بحمل من وقعت الحوطة بهم إلى القاهرة فسجنوا بها [٣]. ثم أرسل السلطان الأشرف شعبان يطلب رئيس دار الصناعة بالإسكندرية الذى توجه إلى القاهرة فكافأه السلطان على تصديه للجنوية والبنادقة ، وسأله فى فتح قبرس ، فكان رد التازى عليه أن يأخذ مركبين لجس النبض أولاً . وسافر بعدها فى يوم الاثنين ٢٩ رجب ٧٦٩هـ / ٢٠ فبراير ١٣٦٨م ، ثم عاد إلى الإسكندرية فى يوم الخميس ٢٤ شعبان ٧٦٩هـ / ١٤ أبريل ١٣٦٨م ومعه أسرى من الفرنج [٤]. وفى يوم السبت الثانى عشر من شعبان ٧٦٩هـ / ٢ أبريل ١٣٦٨م ، وقبل وصول إبراهيم التازى ،

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٥/ ١٩٠ - ١٩٢ .

(٢) كان نائب السلطان بالإسكندرية وقتئذ هو أسنبغا بكتمر البوبكرى ، راجع : Abd Ar-Ráziq (Ahmad), Les Gouverneurs d'Alexandrie au Temps des Mamloûk, dans : Annales Islamologiques, t.XVIII (1982), Imprimerie de L'Istitut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire 1982, p. 135 .

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٥/ ١٩٢ - ١٩٣ .

(٤) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٢/ ٣٤٨ ؛ ٥ / ٢٧٧ - ٢٨٠ .

وصل إلى ميناء الإسكندرية الشرقى غرابان وشيطى[١] لشخص يدعى إبراهيم القبرسى ويسميه النويرى بابن الخبازة . ولم يلبث ابن الخبازة أن تحول إلى الميناء الغربى ، فدار قتال بينه وبين المغاربة ، إلا أنه استطاع الهرب بعد أن أخذ معه زورقًا للمغاربة كان راسيًا بأقصى الميناء الغربى قاصداً السفر إلى طرابلس الغرب فيه ما يساوى بضعة عشر ألف دينار [٢].

وفى شهر ذى القعدة ٧٦٩ هـ / يونيه ١٣٦٨م ورد إلى الإسكندرية ثلاثة أغربة فيها رسل للفرنج من بينهم قازان الجنوى Cassan ورفيقه البندقى ، وقد اشترطوا قبل نزولهم من مراكبهم أن ترسل إليهم قناصلهم ، فأرسل إليهم قنصلان من الفرنج المسجونين بالقاهرة ، فنزل الرسل من مراكبهم ودخلوا الإسكندرية ثالث يوم تولية طيدمر البالسى نيابة الثغر [٣](وكان دخول طيدمر الإسكندرية فى ١٢ ذى القعدة ٧٦٩ هـ / ٢٩ يونيه ١٣٦٨م . وحمل الرسل إلى القاهرة ، وجاء بعد سفرهم إلى القاهرة ثلاث قراقر رست بالقرب من أغربة الرسل وزعم من فيها أن لديهم بضائع يريدون بيعها [٤]. وفى العشرين من ذى الحجة ٧٦٩هـ / ٧ أغسطس ١٣٦٨م قدم الفرنج من القاهرة إلى الإسكندرية وتم كتابة أسماء الأسرى من أهل الإسكندرية، بعد أن وقع الاتفاق بينهم وبين السلطان المملوكى على إحضار أسارى الإسكندرية والرسل المعوقين فى قبرس وزورق المغاربة الذى أخذه إبراهيم القبرسى الشهير بابن الخبازة وأن يبقى رسلهم مسجونين كرهائن [٥]. وبعد ذلك رجع إلى الإسكندرية غرابان فيهما رسل المسلمين

---

(١) الشيطى ، والجمع : شياطى وشيطيات ، نوع من المراكب الحربية الصغيرة التى تمتاز بالخفة والسرعة، ومن وظائف الشيطى القيام بعمليات الاستطلاع والحراسة فى الموانى ؛ راجع : النخيلى : السفن الإسلامية ، ص ٨٢ .

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٢٨١/٥ - ٢٨٣ .

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٣٦٦/٥ ؛ وانظر أيضًا : Makhairas, I, p. 207 ؛ فهو يذكر هنا سفارة قازان Cassan ويؤرخها بالرابع والعشرين من أغسطس سنة ١٣٦٨ . وبالرجوع إلى جداول " وستنفلد " اتضح لنا أن هذا التاريخ يقابله التاسع من المحرم سنة ٧٧٠هـ ، أى بفارق نحو شهرين زيادة عما جاء فى إلمام النويرى .

(٤) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٣٦٧/٥ .

(٥) المصدر نفسه ، ٣٦٨/٥ - ٣٦٩ . ويرى فى الصفحة الأولى عند النويرى السكندرى : " فسافرت الغربان مردوداً عليها هداياهم بعد أن أخذوا معهم ما كتبه المسلمون لهم من أسماء أساري الإسكندرية وأنسابهم . وصارت رسل الفرنج مقيمين عند الإفرنج المسجونين ، بينهم قازان الجنوى ورفيقه البندقى " .

وثمانون أسيراً وأسيرة ، إلا أن أصحاب الغرابين منعوا نزول الأسرى والرسل حتى يرجع إليهم رسلهم وتجارهم الذين بالقاهرة ؛ ولم ينزل منهم سوى أربعة من المسلمين غرباء من غير الإسكندرية واثنين من الفرنج حملوا إلى القاهرة ، وذكروا أنهم رسل ملك قبرس من الجنوية والبنادقة ومعهم رسالة منه إلى سلطان مصر [(١)]؛ وهى الرسالة التى تحوى بنود المعاهدة ، وهى خمسة بنود ، نوردها بنصها كما ذكرها النويرى السكندرى ، مع الردود التى قوبلت بها هذه الرسالة من قبل أحد الأمراء :

" يقول صاحب قبرس :

* إن السلطان لا يأخذ منه على متاجره إلا العشر لا الخمس ؛

* وأن يصير قنصله مقيمًا بالإسكندرية يحكم بين تجار المسلمين وتجار الفرنج فى بيعهم وشرائهم ؛

* وأن كل من حج كنيسة قمامة (القيامة) من أهل جزيرة قبرس لا يؤخذ منه شىء ؛

* وأن يُعْطَى له أرض فى بر الشام محاذية للقدس يعمرها تصير له ولأصحابه ؛

* وأن يكتب اسمه على كنيسة قمامة [(٢)].

هذا ، والأمراء يسمعون كلامهما ذلك ، فلما انقضى كلامهما ، قال أحد الأمراء لهما : "صاحب قبرس سلطان عاقل أم مجنون مطبق ؟ قالا : ليس به جنون . قال : أما ما ذكر من العُشر ، فليس ذلك لنا لأن الله تعالى قال فى كتابه العزيز " الخمس "[(٣)] وليس لنا تغيير ما أمر الله به ؛ وأما قوله : إن قنصله يحكم بين تجار المسلمين وتجار النصارى فى بيعهم وشرائهم مقيمًا دائمًا بالإسكندرية ، فليس فى إقامته بها ضرر ، وأما حكمه على تجار المسلمين فلا يجوز فى ديننا لأن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ؛ وأما قوله : إن كل من حج من القبارصة إلى كنيسة قمامة لا يؤخذ منه شىء ، فالذى يؤخذ منهم بسبب زيارتهم لها ينفق

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٥ / ٣٦٩ .

(٢) هنا تنتهى بنود مشروع المعاهدة ، ويبدأ من ثم ردود الجانب المصرى .

(٣) لم يرد هذا اللفظ بحرفيته فى القرآن الكريم ، وإنما فيه « خمسة » فى سورة الأنفال رقم ٨ ، الآية (٤١) ، ونصها { واعلموا إنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل } .

على أصحاب الأدْراك (١). الذين يخفرونهم فى ورودهم وصدورهم من العرب التى تنهبهم فى طريقهم ، وإن كان مراده ألا يؤخذ من أصحابه شىء فلتخفر الإفرنج أنفسها فى طريق بلاد المسلمين ، وذلك لا يتصور أبداً لقلة الفرنج الزائرين وكثرة العرب التى تتركهم من ملبوسهم - فضلاً عن أخذهم لأموالهم - منها عارين ؛ وأما قوله : يكتب اسمه على قمامة ، فيصير بذلك مضحكة لأنه يضع اسمه على غير ملك له ، وذلك أنى إذا أمرت بأن يكتب اسمى على كنيسة قبرس بمكان لا أملكه ، لا يفعل ذلك لى وإن فعل صرت مضحكة لأهل قبرس ولغيرهم من النصارى الواردين عليهم ؛ وأما قوله يعمّر فى أرض المسلمين بلداً ، فكيف يتصور له الحكم على بلد يجاوره فيها آلاف آلاف من المسلمين ، كانوا يهدمون البلد على رأسه ويخمدون أنفاسه ، ثم قال لهما : هذا الكلام الذى تكلمتما به لا يتصور وقوعه من مجنون أبداً ، فكيف من عاقل ؟! والحذر الحذر من ذكره للسلطان فإن عليكما فيه من الأمر المخوف ما تمضون به على حروف السيوف "(٢).

وكان بعد امتناع الرسل الجنوية والبنادقة من النزول من مراكبهم ، أن أصدر الملك الأشرف شعبان أمره إلى ابن عرام - وهو إذ ذاك حاجب الحجاب بالإسكندرية - أن يتولى أمر إنزال الرسل والأسرى من مراكبهم ، فتحايل ابن عرام بأن أتى معه من القاهرة بأربعة من تجار الفرنج المسجونين بالقاهرة وهدد بقتلهم أمام أصحاب مركب البندقية ومركب الجنوية إذا لم يخلوا سبيل رسل المسلمين وثمانين أسيراً وأسيرة كانوا معتقلين بالمركبين ، فنجح من ثم فى تخليص الأسرى والرسل من أيديهم بعدما ظلوا خمسة عشر يومًا فى غربان الفرنج بميناء الإسكندرية خائفين من عودة الفرنج بهم إلى بلادهم ، فنزل على هذا ستة من كبار تجار الفرنج للتباحث معه ، فما كان منه إلا أن أمر بتسفيرهم إلى القاهرة فى مركب كانت راسية بخليج الإسكندرية (٣)، وقد أخبر هؤلاء الأسرى من معهم من رسل المسلمين عن وجود أسرى غيرهم من أهل الإسكندرية فى قبرس وردوس فكذبوا بذلك رسل البنادقة والجنوية الذى كانوا قد

---

(١) والإدراك جمع دَرْك وهو مكان للحراسة أو الخفارة (مخفر) .

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٥ / ٣٧٠ - ٣٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ٥ / ٣٧٤ - ٣٧٥ .

أخبروا الملك الأشرف أنه لم يتبق أحد من أسارى المسلمين عندهم ، فما كان من الملك الأشرف إلا أن أمر بحبس التجار الستة أيضًا مع الفرنج المسجونين [١] .

ثم صارت مراكب الفرنج تأتى إلى ميناء الإسكندرية شيئًا فشيئًا إلى أن اكتمل عددها فى يوم الأحد الثانى والعشرين من ربيع الأول ٧٧٠هـ / ٨ نوفمبر ١٣٦٨م أكثر من ثلاثين قرقورة وعدة غربان ، فتخوف المسلمون بسببهم واعتقدوا أن الملك بطرس سوف يأتى فى الأربعين غرابًا التى عنده يطلب الصلح بما يشترطه هو ، فإن وقع الصلح على مراده وإلا أوقع الحرب ، فتهيأ المسلمون للقتال ، وصاروا يبيتون كل ليلة بقلاع السور وأبراجه[٢] .

وبينما هم كذلك ، إذا بقازان الجنوى ورفيقه البندقى قد أتيا من القاهرة إلى الإسكندرية ومعهما خدمهما ، فوقع الاتفاق بسفرهما إلى قبرس لإحضار بقية الأسرى بعد أن ضمنهم تجار الفرنج الذين كانوا مسجونين بالقاهرة ؛ وبعد سفر قازان أنزلت تجار الفرنج بضائعهم فباعوها بالإسكندرية وتعوضوا عنها ببضائع الكارم ، وسافروا شيئًا فشيئًا ، فاطمأن المسلمون بسفرهم[٣].

وقد أورد دى ماس لاترى ما يقابل هنا كلام النويرى السكندرى الخاص ببنود المعاهدة المقترحة من جانب ملك قبرس . ففى مايو ١٣٦٨م / أول رمضان ٧٦٩هـ وافق الملك بطرس على السماح للمبعوثين البنادقة والجنوية بإجراء المفاوضات بإسمه حسب القواعد التى كانت عليها مفاوضات ١٣٦٧م / ٧٦٨هـ . وكانت التعليمات الصادرة إليهم أن يعاودوا طرح المطالب المتعلقة بالامتيازات التجارية ، وأن يهتموا اهتمامًا خاصًا بإبراز مسألة خفض قيمة الضرائب الجمركية فإذا رفض المسلمون اختزالها إلى نصف قيمتها ، فلا بأس من عرض تنزيلها إلى الثالث ، وإلا فليحاولوا جادين ألا يتجاوز التخفيض ربع قيمتها . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان هناك مطلب لأفراد فندق بمدينة الإسكندرية يستخدمه التجار القبارصة ، وأن يتفق أيضًا على ضرورة تبادل الأسرى وأن يتم تزويد خمسين على الأقل من أعضاء الأسرة الحاكمة بترخيص سنوى لزيارة الأماكن المقدسة . وقد بدأ الملك تعليماته لهؤلاء المبعوثين

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ٣ ، ٥ / ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ٥ / ٣٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ٥ / ٣٧٦ - ٣٧٧ .

بشرط مؤداة أن أى اتفاق يتوصل إليه الطرفان يجب ألا يمس بحقوقه فى بيت المقدس[١]. إلا أنه مما لاريب فيه أن هذا المطلب لا ينبغى فهمه أو تفسيره إلا على أن الملك بطرس لم يكن على استعداد للتنازل عن لقبه الاسمى كملك على بيت المقدس [٢]. ومن الملاحظ هنا التشابه الكبير بين ما أورده النويرى فى بنود الاتفاقية التى عرضها رسل الملك بطرس وبين ما جاء به دى ماس لاترى .

وهكذا يمكن لنا تكوين بعض التصور عما كان يتوقع الملك بطرس تحقيقه مما وصل إلينا من معلومات عن مفاوضات السلام السابق عرضها .

فالملاحظ أن الملك بطرس كان يسعى من خلال محاولة إبرام معاهدة ١٣٦٧م / ٧٦٨ هـ ومعاهدة ١٣٦٨م / ٧٦٩هـ - وهما المعاهدتان اللتان لم يوافق عليهما الملك الأشرف إلى الحصول على امتيازات تجارية فى أراضى الدولة المملوكية على شاكلة الامتيازات التجارية ذاتها الممنوحة للتجار الإيطاليين فى جزيرة قبرس ويستهدف على وجه الخصوص أن ينال الحقوق الكاملة لسلطته القضائية على التجار القبارصة والفصل فى المنازعات التى تنشب بين القبارصة والمسلمين ، بالإضافة إلى تحصيله الضرائب الجمركية مناصفة فيما يفرضه المماليك على التجار القبارصة [٣]؛ والملاحظ أيضًا أنه لم تقع فيهما أى إشارة إلى مملكة بيت المقدس التى طالبت بها مفاوضات ١٣٦٦م[٤] / ٧٦٧هـ ، وإنما تضمنتا مطلبين آخرين وهما الإعفاء من ضريبة الجمارك وتسليم أعداء جزيرة قبرس [٥].

وعلى هذا نستطيع القول بأن النغمة الأساسية فى مفاوضات سنتى ١٣٦٧م / ٧٦٨ هـ و١٣٦٨م / ٧٦٩هـ إنما كانت تدور حول التجارة ، وكان الملك بطرس يلجأ إلى العدوان ويهدد

---

(١) Mas Latrie, in : Edbury, The Crusading Policy, p. 99 .

(٢) Edbury, The Crusading Policy, p. 99 .

(٣) انظر : جوزيف نسيم : دراسات ، ص ١١٧ ؛ ولكن راجع : القلقشندى : صبح الأعشى (طبعة بيروت) ، ١٤/٤٧ - ٥٦ ، حيث يوجد نص اتفاقية بين الملك الظاهر بيبرس والاسبتارية تتضمن بندًا مشابهًا يتعلق بالمناصفة بين الطرفين فيما يحصل من التجار الفرنج .

(٤) Jorga, Phil. de Méz., pp. 321 - 322 .

(٥) راجع فى هذا : Edbury, op. cit., p. 98 .

به ليس بغرض أن يفوز بأراضٍ كان يسيطر عليها المسيحيون فى يوم من الأيام وإنما بهدف الحصول على مزايا تجارية على حساب تجار الغرب الأوروبى المنافسين للقبارصة فى موانىء المسلمين(١) .

ولقد استمرت حالة التوتر بين مصر وقبرص بعد فشل مفاوضات ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨م ولم يكن هناك ما يشير إلى تحركات أخرى لاستئناف المفاوضات . فقد عاد الرسول الجنوى قازان إلى ميناء الإسكندرية بعد ثلاثة أشهر من مغادرته لها على وعد منه بإرجاع بقية أسرى الإسكندرية ، ولكنه فى الحقيقة لم يف بوعده بل جاء بعشرين أسيراً وأسيرة من غير أهل الإسكندرية من بينهم قاضى أنطاليا ، وكان بذلك يريد التحايل والمساومة على قاضى أنطاليا حتى يتمكن من تخليص الفرنج المسجونين بالقاهرة وإرجاعهم إلى وطنهم ؛ ولكن فشلت حيلته وفر من ميناء الإسكندرية هاربًا ومعه الأسرى الذين جاء بهم (٢). وقد زعم قازان أن أسرى الإسكندرية قد تمسحوا ، فكان الرد عليه أن أسرى الفرنج قد أسلموا ؛ ثم صدر مرسوم السلطان بالقبض على رجال قازان الذين نزلوا إلى الإسكندرية يتسوقون ، وقد بلغ عددهم أربعين تاجراً (٣).

ولقد انتهى حكم بطرس الأول دى لوزنيان نهاية مأساوية بمقتله على يد المتمردين من أمرائه فى يناير سنة ١٣٦٩م / ٧٧١هـ (٤). وتعتبر نهاية الملك بطرس هذه نتيجة أو رد فعل لسياسته فى الجزيرة . فما شنه من حروب . وما قام به من جولات فى أوربا قد كلفه الكثير من النفقات ، ولذا لجأ مرة أخرى إلى وسائله القديمة بأن أباح لمواطنيه شراء الإعفاءات من

---

(١) Edbury, op. cit., p. 99 .

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٣٧٨/٦ - ٣٨١ .

(٣) المصدر نفسه ، ٣٨٢/٦ .

(٤) راجع : Machaut, p. 258 ؛ فهو يحدد تاريخ مقتل الملك بطرس بيوم ٢٨ يناير ١٣٦٩م ولكنه يعود فيحدد تاريخًا آخر هو ١٧ يناير من العام نفسه (انظر فيه : pp. 266 - 267) . إلا أن تحليلات ناشره دى ماس لاترى توضح بكل جلاء أن اغتيال الملك بطرس إنما كان فى يوم ١٧ يناير ١٣٦٩م ، استناداً إلى حوليات جزيرة قبرص وما يورده مخيراس فى هذا الصدد ؛ انظر هذه التحليلات فى مقدمة ماس لاترى على " ماشو " (p.XXV) والحاشية رقم (84) الواقعة فى (pp.289 - 290) ؛ وراجع : Makhairas, I, pp. 266 - 267 .

ضريبة الرؤوس(١) ، ونقل أيضًا ملكية بعض أراضى الدولة إلى المغامرين والأفاقين الأغراب ممن كانوا يعملون فى خدمته ، كل ذلك فى محاولات منه لكى يظل قادراً على الوفاء بديونه(٢). ويورد مخايراس فى هذا الصدد ، أنه قد بدّد كل الثروة التى كان قد جمعها أبوه الملك هيو الرابع بأن أنفقها على حملاته ضد الأتراك وذلك قبل سنة ١٣٦٢ ، فلم تحل سنة ١٣٦٦م / ٧٦٧ - ٧٦٨هـ إلا وقد شرع مستشارو الملك بطرس يبدون قلقهم لما حل بالمملكة من خسائر بسبب أوجه نشاط الملك الحربية (٣).

وهناك ما يشير إلى ذلك التوتر الذى شاع فى قبرص بسبب الحروب التى قام بها الملك بطرس ، وهو ما يمكن أن نلاحظه فى اللجوء إلى تدارك الوضع الذى أصبحت عليه الجزيرة من جراء سياسة هذا الملك . فكان العلاج هو قتله ؛ وكان من مظاهر السخط والتذمر الأخرى التى أفضت إلي اغتياله هو إجباره باروناته على أداء الخدمة العسكرية لمدد مفرطة الطول ، وفرضه عليهم ضرائب ما يتجاوز المتفق على أدائه فى وقت معلوم ، وبسبب ما حوله عنهم من احتكار استخراج الملح فى الجزيرة بالإضافة إلى الأعباء المالية الجديدة التى فرضها عليهم وضد مشيئتهم . وثمة دلائل أخرى تشير إلى تلك الصعوبات المتزايدة التى وجد فيها الملك بطرس نفسه لتحسين ظروف المفاوضات الخاصة بسنتى ١٣٦٧ هـ و ١٣٦٨م (٤).

وعلى كل حال ، لم يحدث أى تغيير فجائى فى سياسة القبارصة نحو الدولة المملوكية فى مصر والشام . ففى خلال السنوات الأولى من حكم خلفه بطرس الثانى دى لوزنيان (١٣٦٩ - ١٣٨٢م) تواصلت الغارات التخريبية أقرب ما تكون إلى الأسلوب ذاته الذى كان متبعًا من قبل . ففي شهر يونية من عام ١٣٦٩م / ذو القعدة ٧٧٠هـ قام أسطول صغير من أربعة شوان بقيادة جان دى مورف Jean de Morf بالإقلاع صوب الساحل الشامى وأعمل التخريب فى

---

(١) Makhairas, I,p. 141 et seq.

(٢) Mas Latrie, in : Edbury, The Crusading policy, p. 99 and n. 66 .

(٣) Makhairas, I, pp. 141 - 163 .

(٤) Edbury, op. cit., p. 99 ؛ وقارن : النويرى السكندرى : الإلمام ، ٨٢/٣ - ٨٦ ؛ ونسخة الهند ، لوحة ٢١٩ ب - ٢٢٠ أ ، ٢٢٠ ب (من نصوص لم ترد فى الإلمام المطبوع) ، وهو يتكلم عن مقتل الملك بطرس .

موانىء صيدا والبطرون وطرطوس واللاذقية [١]. ولم يتوقف المزيد من الغارات الخطيرة ، ومن بينها إحدى الغارات على الإسكندرية فى وضح النهار . ففى فترة تقل عن الشهر بعد الغارات السابقة (يوليو ١٣٦٩م / ذى الحجة ٧٧٠هـ) كانت هذه المراكب نفسها قد تزودت بالمؤن فى أرمينية[٢] ثم أقلعت صوب الإسكندرية[٣] ، فلما وصلت إلى الإسكندرية نزل منها جماعة على ساحل المنار بالميناء الشرقى ، فسار إليهم على سيالة المنار[٤] بهاء الدين أصلان الحاجب بأجناده ، فلما رأتهم الفرنج الذين بساحل المنار رموا عليهم بالسهام وتبادل الفريقان الرمى بالسهام ، فهرب الفرنج فى قواربهم إلى غربانهم ، ثم أرسلوا قاربًا إلى القرب من الساحل فيه جماعة منهم وذكروا للمسلمين أن معهم كتبًا للسلطان وأنهم يريدون جوابًا عليها ، فطلب المسلمون الكتب ، إلا أن الفرنج رفضوا تسليمها إليهم قبل أن يمدوهم بالماء والطعام ، فرفض المسلمون حتى يعطوهم الكتب أولاً ، فرجعوا إلى أصحابهم يخبرونهم بشرط المسلمين . وفى صباح يوم الخميس السابع من ذى الحجة رفعوا مراسيهم وخرجوا من الميناء الشرقى وتحولوا قاصدين الميناء الغربى وحاولوا أخذ قرقورة وغراب وسَلّورة كانت بالميناء الغربى وذلك بأن رموا كلاليبهم عليها ليجروها بها ، ولكن تصدى لهم المسلمون ومعهم

---

(١) Makhairas, I, pp. 273 - 75 ؛ وانظر أيضًا : Atiya, The Crusade, p. 374 ؛ وعن البطرون : انظر : السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٦٧م، ص ٣٥٠ .

(٢) راجع : . Atiya, The Crusade, p. 374

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٣٨٤/٦ . ويورد النويرى السكندرى وصفًا تفصيليًا عن هذه الغارة على الإسكندرية بداية من هذه الصفحة المذكورة إلى (ص٣٩٥) ويحدد هذا الوصف وصول ثلاثة أغربة كبيرة وطريدة كبيرة وسلورتين يقودها سنجوان دمرف (جان دى مورف) - وهو الأخ غير الشرعى للملك بطرس كما يذكر هنا أيضًا النويرى السكندرى - وذلك فى يوم الأربعاء السادس من ذى الحجة سنة ٧٧٠ هـ / يوليو ١٣٦٩م ، وكان التجار التركمان الذين أتوا من بر التركية قد أذاعوا فى الإسكندرية خبر هجوم جان دى مورف على سواحل الشام وأنه فى الطريق إلى الإسكندرية .

أما عن السلورة ، فالجمع : سلالير ، وهى من السفن الحربية المساعدة ، وقد توصف بأنها نوع من السفن السفرية أى المراكب الحمالة ؛ راجع : النخيلى : السفن الإسلامية ، ص ٦٦ .

(٤) راجع : الإلمام ، ١٩١/٥ ؛ ٦ / ٣٨٣ ، ونسخة الهند من الإلمام ، لوحة ٢٤٢ ب .

إبراهيم التازى رئيس دار الصناعة وتمكنوا من هزيمتهم ، ففر سنجوان دمرف ومن معه من حيث أتوا خاسرين [١].

وفى اليـوم التـاسع من شـعـر ربيع الأول ٧٧١ هـ / ١١ أكـتـوبر ١٣٦٩م وصل رسل القسطنطينية للتباحث مع السلطان الأشرف شعبان فى أمر الصلح ، وذكروا أنهم رسل جميع ملوك الفرنج إلى مصر ومعهم الهدايا ، فحملوا إلى القاهرة بعد مشاورة بينهم وبين نائب الإسكندرية صلاح الدين بن عرام ؛ ثم وصل بعدهم فى يوم ١٤ ربيع الأول سنة ٧٧١هـ / ١٥ أكتوبر ١٣٦٩م ثمانى سفن لم ينزل منها أحد فى أول الأمر ، وجرى بينهم وبين المجردين والأجناد بالإسكندرية قتال ، ولكنهم طالبوا بالسلام وذكروا أنهم رسل صاحب قبرس من الجنوية والبنادقة والروادسة والقبارصة قد أتوا بشأن الصلح ، فحمل رسلهم البالغ عددهم عشرة إلى القاهرة فى ٢٢ ربيع الآخر / ٢٤ نوفمبر ١٣٦٩م [٢].

ولما رجع رسلهم من القاهرة ، رفعوا مراسيهم وسافروا ، إلا أنهم عادوا مرة أخرى فى ٢٦ من المحرم سنة ٧٧٢ هـ / ٢١ أغسطس ١٣٧٠م من أجل تخليص الفرنج المأسورين بالقاهرة[٣]. ولما سمع بأمرهم المأسورون من الفرنج استغاثوا بالسلطان طالبين منه أن يرسل

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٣٨٦/٦ - ٣٩٣ . وتجدر الإشارة هنا إلى أن مخيراس قد ذكر أن جان دى مورف كان قد استولى على سفينة بالإسكندرية أتت من مراكش وتبعه فى ذلك الدكتور عطية . إلا أن هذه الأحداث تتصل بحادثة سبقت مباشرة وصول جان دى مورف إلى الإسكندرية حيث قدم غراب من قبرس وأخبر من فيه عن مقتل الملك بطرس وأنهم رسل أخى الملك بطرس - البرنز كما يطلق عليه النويرى السكندرى - القائم بالوصاية على ابنه بطرس الثانى ، وزعموا أن الملك غضب من رجوع قازان بالأسرى ، وأنهم قد أتوا بهم معهم ، وطالبوا بالتفاوض من أجل الصلح ، فاشترط ملك الأمراء صلاح الدين بن عرام عليهم أن يرسلوا أولاً الأسرى الذين معهم فى مركبهم ، إلا أنهم لم يطلقوا سراح غير رجلين مسلمين قد أسرا من جهة بلد طرطوس بالشام ؛ وفى اليوم التالى تصادف قدوم مركب من الشام ، فلما رآها الفرنج خرجوا إليها وقاتلوا أهلها وأخذوها بوسقها . ومن هذا يتضح أيضًا أن المركب لم تكن مركبًا مغربية وإنما كانت سفينة آتية من الشام ، حسبما يذكر النويرى السكندرى ؛ راجع : Makhairas, I, pp. 286 - 88 ؛ Atiya, The Crusade, p. 374 ؛ ولكن انظر : النويرى السكندرى : الإلمام ، ٣٨٢/٦ - ٣٨٣ .

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٦ / ٣٩٦ - ٣٩٨ ، ويذكر هنا أن رسل الفرنج قد تخوفوا حين لم يروا رسل القسطنطينية الذين تقدموهم فى سفنهم .

(٣) المصدر نفسه ، ٦ / ٤٠٣ - ٤٠٤ . ويشير النويرى السكندرى هنا إلى أن الفرنج المأسورين بالقاهرة قد استخدموا فى العمائر السلطانية ، وقد استبشروا بقدوم رسل القسطنطينية والجنوية والبنادقة من أجل خلاصهم ، إلا أن ذلك لم يتم .

اثنين منهم ليكلما البابا والملوك لإيقاع الصلح فرسم الملك الأشرف شعبان بسفر اثنين منهم هما أرناط بن مرك البندقى وآخر معه ، فسافرا مع السفن الثمانية القادمة ، وغاب الرسولان نحواً من عشرة أشهر ثم حضرا إلى ميناء الإسكندرية ومعهما الثمانية أغربة فيها رسل جنوة والبندقية وقبرس ورودس [١]. وسمح لرسل البندقية وجنوة بالنزول ومنع من ذلك رسل القبارصة والروادسة فقاموا بالتوسط للروادسة والقبارصة فى الصلح زعما منهم أن الصلح إذا وقع معهم ولم يقع مع الروادسة والقبارصة صاروا يهاجمون [٢] فى البحر مراكب المسلمين والمصلحة تقتضى مصالحتهم وإتيانهم بمتاجرهم إلى الإسكندرية . فحينئذ رسم السلطان بنزول الروادسة والقبارصة وحملوا إلى القاهرة ، فوقع الصلح معهم على أنهم يأتون ببقية الأسرى، وأن يظل رسل الجنوية والبنادقة وتجارهم رهائن إلى أن يسافر معهم فى سفنهم رسول السلطان مستصحبًا معه بعض الشهود ، يحلفون ملوك الفرنج على الإنجيل فى الكنائس بعقد الصلح ، وإرسال بقية الأسرى من أهالى الإسكندرية [٣].

وعلى هذا سافر رسول السلطان ، وهو الأمير سيف الدين طيبغا خازندار العلائى ومن تبعه من شهود وحاشية ، ووصل إلى قبرس ، ومن ثم رجع إلى الإسكندرية ومعه أسرى من غير أهلها[٤] .

---

(١) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٤٠٥/٦ . وفى إشارة صاحب الإلمام إلى غياب الرسل ثم رجوعهم بعد نحو عشرة أشهر ، فإن عودتهم إلى الإسكندرية إنما تقع فى شهر ذى القعدة ٧٧٢ هـ الموافق مايو ١٣٧١م . وهو ما سوف نقوم بمناقشة بالمتن هنا بعد قليل .

(٢) ورد محل هذه الكلمة فى نص الإلمام المطبوع : (يتحرفون) ، والصواب ما جاء فى نسخة الهند ، لوحة ٢٦٨ ب : (يتحرمون) ، ولفظ (يتحرمون) من تحرم - بتشديد الراء - استعمال دارج من مادة (ح ر م) بمشتقاتها ، ومنها (حرم الشىء جعله حرامًا) كما فى : الفيروز إبادى (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازى) ، القاموس المحيط ، بولاق ١٢٧٢هـ ، مادة (ح ر م) . ومن لفظ (يتحرمون) كلمة (حرامى) ، وهو المقصود هنا ، فهم (حرامية البحر) ، ولعله يريد بذلك (قراصنة البحر) ؛ راجع :Dozy,: Suppl., I, 277 a. (مادة : حرم)؛ وانظر فيه عن (حرامى) : P. 278 b. .

(٣) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٦ / ٤٠٥ - ٤٠٦ .

(٤) المصدر نفسه ، ٤٠٦/٦ . وقد ورد هنا اسم السفير المصرى على أنه (طقبغا) وهو تحريف من ناسخ نسخة دار الكتب ، وصوابه (طيبغا) كما نسخة الهند ، لوحة (٢٦٩أ) .

وقد أورد مخيراس فى هذا الصدد أن رسل السلطان قد وصلوا إلى قبرس فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٣٧٠م ، ثم أعلنت اتفاقية الصلح بعد ما يقرب من أسبوع واحد من وصولهم[١].

وهنا نلاحظ تعارضًا بين ما جاء به النويرى السكندرى وما جاء به مخيراس بالنسبة لتاريخ توقيع إتفاقية الصلح .

ويمكن لنا أن نحدد تاريخ توقيع اتفاقية الصلح بين مصر وقبرس بشهر ذى القعدة سنة ٧٧٢ هـ مستأنسين فى ذلك بكلام النويرى السكندإى الذى يذكر عودة الرسل بعد عشرة أشهر اعتباراً من ٢٦ المحرم سنة ٧٧٢ هـ . وهذا يعنى أن الصلح قد تم إبرامه فى شهر ذى القعدة من السنة نفسها . واستناداً أيضًا إلى ما جاء به النويرى السكندرى فى موضع آخر[٢]، أن الصلح قد تم فى نيابة ابن عرام للإسكندرية وقبل عزله وتولية طيدمر البالسى . وعلى الرغم من أنه لم يحدد تاريخ عزل ابن عرام فقد حدد فقط تاريخ دخول طيدمر البالسى ثغر الإسكندرية فى يوم الاثنين الثانى من ذى الحجة ٧٧٢ هـ / ١٣٧١م . ولكن بالرجوع إلى المقريزى نجده قد حدد تاريخ عزل ابن عرام فى ١٧ من ذى القعدة[٣] من السنة نفسها . وعلى هذا يصبح تاريخ توقيع اتفاقية الصلح فى شهر ذى القعدة وقبل يوم ١٧ منه وهو ما يقابل (منتصف شهر مايو إلى ١٤ منه سنة ١٣٧١م)[٤] . وهذا يثبت بشكل قاطع أن اتفاقية السلام مع قبرس إنما أبرمت فى ١٣٧١م وليس فى ١٣٧٠م كما يذكر مخيراس الذى اعتمد عليه نخبة من المحدثين ممن كتبوا فى الموضوع[٥].

---

(١) Makhairas, I, pp. 289 - 99; Atiya, The Crusade, p. 376 ؛ وقارن : عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٨٢ ، فهو يذكر أن اتفاقية الصلح قد تمت ديسمبر ١٣٧٠م .

(٢) النويرى السكندرى : الإلمام ، ٦ / ٣٧٧ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ٣ ، ق١ ، ص ١٧١ ، ١٩١ ، وانظر أيضًا : Abd ar-Ráziq, Les Gouverneurs ...., p. 136 .

(٤) راجع : جداول وستنفلد ؛ والتوفيقات الإلهامية .

(٥) انظر منهم : Atiya, The Crusade, p. 376 ؛ عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٨٢ ؛ رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ٣/ ٧٥٠ (الترجمة العربية) ؛ حبشى ، هجوم القبارصة ص ٣٥ ؛ Edbury, The Crusadeing Policy, p. 99 .

أما عن شروط هذه التسوية أو المعاهدة فهي غير معروفة لدينا ، ولكن إذا نحن تقبلنا الرأى الذى يذهب إلى أن بنود هذه الاتفاقية كانت شبيهة بشروط اتفاقية سنة ١٣٦٨م / ٧٦٩هـ ، فمن الواضح أنها كانت شروطًا أقل فائدة وملاءمة للقبارصة مما كانت عليه شروط سنة ١٣٦٧م / ٧٦٨هـ[١] ، وربما يرجع هذا إلى أن نظام الحكم الجديد الذى بدأ فى سنة ١٣٦٩م / ٧٧٠هـ ، أى بعد مقتل الملك بطرس ، كانت تنقصه الموارد والقدرة على ممارسة الضغط على المماليك . فبعد مقتل بطرس بدأ نجم قبرس فى الأفول ، وحدث نوع من الاضمحلال الداخلى فى عهد ابنه بطرس الثانى (١٣٦٩ - ١٣٨٢م) [٢]. ففى عام ١٣٧٣م / ٧٧٥هـ انتهز الجنوية هذه الفرصة للاستيلاء على فاماجوستا الميناء الرئيسى للجزيرة [٣]. الذى سقط فى يد الجنوية فى أكتوبر ١٣٧٣م / جمادى الأولى ٧٧٥هـ ، وأسر الجنوية بطرس الثانى وعمه حنا دى لوزنيان . وفى ٢١ أكتوبر ١٣٧٤م / ١٤ جمادى الأولى ٧٧٦ هـ تم دفع فدية الملك وعمه للجنوية ، فأفرج عنهما بشرط الاعتراف للجنوية بملكية فاماجوستا[٤]. ولم يترك الجنوية الجزيرة إلا فى سنة ١٤٦٤م / ٨٦٩ هـ بعد صراع طويل دام لعدة سنوات[٥].

وعلى كل حال ، فلم تكن معاهدة الصلح بين مصر وقبرس تعنى إلا السلام المؤقت بين الطرفين إلى أن جاء الوقت الذى انتقم فيه المماليك لمذبحة الإسكندرية . ومن هنا يمكن القول بأن هذا الصلح كان صلحًا مؤقتًا ، أو بمثابة هدنة مسلحة .

ويمكن إجمال النتائج المباشرة للحملة ، فى أنها قد أخفقت فى تحقيق هدفها المعلن عنه وهو أن يسترجع الصليبيون مملكة بيت المقدس ، وإن كنا قد تشككنا فى هدف الملك بطرس الذى كان يسعى إلى تحقيقه من وراء حملته على الإسكندرية . فإن كان الملك بطرس قد استهدف

---

(١) راجع هذه النظرة فى : Edbury, op. cit., p. 99 .

(٢) Muller, Castles of the Crusades, p. 36 ؛ وانظر أيضًا : Grousset, dans : L'Europe Oriantal, pp. 398 - 99 .

(٣) Makairas, I,p. 395 et seq. ; Amadi, p. 452 et seq.; Strambaldi, p. 166 et seq .

(٤) Grousset, L'Empire du Levant, pp. 348 - 48 .

(٥) Muller, Loc. cit .

بالفعل استعادة بيت المقدس ، فلم يقابله غير الفشل ، ويعد بهذا رجلاً بعيداً عن الواقعية[1]. أما إذا كان قد لجأ إلى شن الحرب لكى يحقق لقبرس المنافع التجارية ، وهو الأقرب إلى الاحتمال ، فهو قد دنا بذلك كثيراً من هدفه هذا ، على الرغم من أن سياسته لم تتّوج بالنجاح فى هذا المجال أيضًا ، إذ كان يفتقد القدرة على استغلال الفرص االتى أتيحت له . فضلاً عن الظروف المعاكسة التى واجهته من بعض القوى المسيحية الأخرى التى تعارضت مصالحها مع مصالحه .

هذا ، بالإضافة إلى أن الحملة لم تتسبب فى إضعاف الدولة المملوكية بالدرجة التى فكر فيها الملك بطرس ، على الرغم من أن حملته قد أضعفت الإسكندرية وعطلت تجارتها مؤقتًا مع الغرب . وكانت سببًا فى إثراء خليط من المغامرين الغرباء ممن شاركوا فى الحملة وتصرفوا أكثر ما تصرفوا ، كعصابة من اللصوص لا كجيش صليبى يحارب من أجل قضية مقدسة ، وكانت أيضًا سببًا فى اتخاذ بعض الإجراءات العنيفة حيال المسيحيين الشرقيين المقيمين داخل دولة المماليك فى مصر والشام فى عصر كان لايزال فيه للناحية الدينية تأثيرها فى العالمين المسيحى والإسلامى .

هذا ، إلى أن هذه الحملة على الإسكندرية تعتبر آخر الحملات الصليبية الخطيرة الموجهة مباشرة ضد المماليك فى مصر .

لقد فشلت حملة بطرس دى لوزنيان الصليبية على الإسكندرية ، فى وقت كان العالم يمر فيه بفترة تغير وانتقال من مفاهيم وفلسفة العصر الوسيط إلى أوضاع جديدة مغايرة . حقيقة شهد العالم بعد ذلك التاريخ بثلاثين عامًا ، وعلى وجه التحديد فى عام ١٣٩٦م / ٧٩٩هـ آخر وأكبر الحملات الصليبية المتأخرة المعروفة بحملة نيكوبوليس Nicopolis التى قامت بها أوروبا بأسرها لا لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى قلب إمبراطورية المماليك فى بيت المقدس أيضًا . وكان مصيرها ، مثل مصير حملة الإسكندرية ، الإخفاق والخذلان . وبذلك دق آخر مسمار فى نعش الحركة الصليبية التى أصبحت حلمًا من أحلام الماضى البعيد ، بعد أن طوت البشرية صفحة من التاريخ ، وافتتحت صفحة جديدة ، معلنة عن عصر جديد بمثل وأفكار جديدة مغايرة .

---

(١) Edbury, The Crusading Policy, p. 99 .

الخـــاتمـــة

حملة الإسكندرية إحدى الحملات الصليبية الكبيرة التى تعرض لها العالم الإسلامى – اضمحلال الفكرة الصليبية وموتها فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى (أواخر القرن الثامن الهجرى) – رد الفعل الإسلامى فى القرن الخامس عشر الميلادى / القرن التاسع الهجرى – أهم النتائج التى تم التوصل إليهما من خلال هذه الدراسة.

تعتبر حملة بطرس دي لوزنيان على الإسكندرية إحدى الحملات الصليبية الكبيرة ضد العالم الإسلامى فى القرن الرابع عشر الميلادى / القرن الثامن الهجرى ، وآخر الحملات الموجهة مباشرة ضد سلطنة المماليك فى مصر والتى جعلت هدفها المعلن عند استرجاع الأراضى المقدسة [(١)]. أما الحملات التالية عليها فكانت تقوم إما بقصد سحق قوة الأتراك مثل حملة أصيديو كونت سافوى والتى انحرفت عن مسارها الطبيعى إلى محاربة البلغار فى سنة ١٣٦٦م / ٧٦٨هـ ، وإما بغرض شن هجمات على موضع معين مثل الحملة الصليبية التى يرأسها الدوق الطيب لويس الثانى من بوربون ضد مدينة المهدية فى سنة ١٣٩٠م / ٧٩٣هـ[(٢)].

---

(١) Atiya, The Crusade, p. 378 ؛ وأيضًا : رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٧٥٠.

(٢) Atiya, op. cit., Loc. cit .

ومع هذا ، ظلت فكرة تخليص الأراضي المقدسة تدور بخلد أوروبا . ففي عام ١٣٩٦م / ٧٩٩هـ أقلع الصليبيون بسفنهم على أمل بلوغ بيت المقدس ، فكان أن وصلوا إلى نيقوبوليس. وتعتبر حملة نيقوبوليس الصليبية أهم وآخر الحملات الصليبية والتى فشلت فشلاً ذريعًا . وكل ما تعلمه الغرب من هذا الفشل هو أنه لم يعد للحرب المقدسة وجود من الناحية العملية [١].

لقد كانت الحملات الصليبية فى القرن الرابع عشر نتيجة طبيعية للدعاية الضخمة التى استمرت خلال العقود الثلاثة الأولى من ذلك القرن . وكان أول هذه المعارك هى الحروب الموجهة ضد الأتراك للحد من نفوذهم . حيث نجح التحالف بين البندقية وقبرص وفرسان الإسبتارية تحت زعامة البابا كليمنت السادس فى استرداد أزمير من أيدى الأتراك سنة ١٣٤٤م / ٧٤٥هـ [٢].

هذا ، ويعتبر القرن الرابع عشر الميلادى عهد الحروب الصليبية الأخيرة بمعناها الصحيح . فبعد ذلك وفى أثناء القرن الخامس عشر الميلادى بدأت الحروب الصليبية تفقد قيمتها الحقيقية ، وانتهت حينما أصبحت تسعى إلى هدف يائس لا أمل فى إحيائه . لقد أخذت تفقد مميزاتها وطابعها وسماتها التى اتسمت بها خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين. فلا نرى فى هذا القرن (الخامس عشر) إلا سلسلة من النضال المحلى لإيقاف التوسع العثمانى فى أوروبا الشرقية والذى انتهى بسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م / ٨٥٧هـ [٣].

وإذا نحن نظرنا - فى صدد ما تقدم - إلى حملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية لنرى ما حققته من نتائج سواء بالنسبة لقبرص أو للغرب الأوروبى ، فلا يمكننا القول إلا أنها كانت حملة فاشلة من جميع الجوانب وبكل المقاييس . فهىَ لم تحقق الغرض منها المعلن عنه وقتها وهو استرجاع بيت المقدس . أما عن الغرض الخفى من وراء هذه الحملة ، وهو ما قمنا باستعراضه فى الفصل الثانى من هذه الدراسة فهو الحصول على امتيازات تجارية لقبرص ؛

---

(١) Atiya, The Crusade, pp. 463 - 4. ؛ وأيضًا : رنسيمان : المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ٧٧٠.

(٢) Atiya, The Crusade, pp. 290 - 300 ; Edbury, The Crusading Policy, p. 91 n. 9.

(٣) عزيزة سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٧٩ .

أو فى حالة تعذر هذا المطلب فعلى الأقل تحطيم ميناء الإسكندرية المنافس لفاماجوستا وتعطيل تجارته مما يلحق بالدولة المملوكية أضراراً اقتصادية . وبالتالى تنتعش قبرس اقتصاديًا كما كانت فى فترة الحظر البابوى وذلك على حساب منافستها . وحتى هذا المطلب لم يستطع بطرس دى لوزنيان تحقيقه لأسباب عديدة مرتبطة بالعصر نفسه وبالتغييرات الاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية التى كان يشهدها . وكان من الممكن أن يسير بطرس دى لوزنيان فى نفس الاتجاه الذى سارت فيه الجمهوريات التجارية الإيطالية التى أقامت العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الدولة المملوكية ، ولكن يبدو أنه لم يكن على معرفة جيدة بطبيعة القوى الاقتصادية السائدة فى ذلك العصر . ففضل أن يختار حربًا صليبية لا تتناسب مع العصر ومتغيراته ، ولا أدل على ذلك من كلام المؤرخ رنسيمان[(١)] الذى اعتبر حملة بطرس على الإسكندرية من الأخطاء التاريخية الكبرى التى أضرت بالمسيحية وبالغرب الأوربى . والرأى الأصوب عنده أنه كان لابد للبابوية أن تركز كل جهودها لمواجهة الخطر الحقيقى الذى كان يحيق بها وقتذاك ألا وهو الخطر التركى ونمو قوته المتزايدة وتهديده للإمبراطورية البيزنطية . فكان يجب على البابوية والغرب الأوربى فى رأيه مساندة الإمبراطورية البيزنطية للصمود فى وجه الأتراك . ولكن بدلاً من هذا أخذت البابوية فى الضغط على القسطنطينية من أجل تحويلها إلى المذهب الكاثوليكى الغربى ليتم لها السيطرة عليها [(٢)].

وكان هذا أحد أهداف الحركة الصليبية ذاتها . ولكن بابوية القرن الرابع عشر لم تكن هى بابوية القرن الثانى عشر أو الثالث عشر . لقد أخذت العيوب تستشرى فى الجهاز الكنسى البابوى مثل السيمونية (الرشوة) وبيع صكوك الغفران وزواج رجال الدين وتدهور الرهبانية، وباتت البابوية نفسها فى أمس الحاجة إلى الإصلاح ، بينما كان للبابوية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كلمة مسموعة أيام مثل اربان الثانى وأنوسنت الثالث . ومع تدهور البابوية وانفضاض الناس من حولها وتشككهم فيها فى أخريات العصر الوسيط ، وكان العالم وقتها يمر بفترة تغير وانتقال حيث برزت قوى جديدة وتغيرت المفاهيم الأمر الذى كان يؤذن

---

(١) انظر : رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص ٧٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٥٢ - ٧٥٣ .

بظهور عصر جديد . لقد عاشت بابوية القرن الرابع عشر فى أوهام الماضى ، ولم تستطع مسايرة العصر . فكان هذا وبالاً عليها بعد أن أفلت الزمام وأصبح الوقت متأخراً .

هذا ، وقد أدى قصور بطرس دى لوزنيان فى تفهم طبيعة القوى الاقتصادية المسيطرة وقتها أن انتهج سياسة حمقاء أضرت به هو نفسه كما أضرت بمملكته قبرس . وقد تحملت قبرس تطلعات ملكها التى هى أقرب إلى المغامرة والمخاطرة غير المحسوبة والتى تدل على قصر النظر وعدم فهم حقيقى لطبيعة الأمور . وكانت النتيجة أن قبرس التى كانت تتمتع بالثروة زمن والده الملك هيو الرابع ، أصبحت فقيرة . فقد أضاع بطرس كل ثروة الجزيرة التى تركها والده ، ولجأ إلى سياسته المعهودة فى جمع الأموال بعرض شراء ضريبة الرؤوس على أهالى قبرس . حتى نبلائه لم يسلموا منه ، كما رأينا ، ففضل عليهم الجماعات من الأغراب وحرمهم من مغانمه الحربية وأسلابه . وكانت النتيجة الطبيعية لكل أعماله وتصرفاته هذه أن تم الاتفاق على التخلص منه ، وكان لهم هذا . ثم ما لبثت قبرس أن دخلت فى حالة من الفوضى بعد موت بطرس لوزنيان وفى عهد ابنه بطرس الثانى ، مما أدى إلى وقوع الجزيرة فريسة سهلة للجنوية الذين تمكنوا من الاستيلاء على أكبر وأهم موانيها وهو ميناء فاماجوستا.

ثم كان انتقام الدولة المملوكية فى عهد الأشراف برسباى ٨٢٥ - ٨٤١هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٨م ، فقد أخذت أعمال القراصنة القبارصة تزداد على شواطىء الإسكندرية ودمياط[١]. مما جعل الأشرف يعد العدة للانتقام من قبرس .

ثم هو لم ينس قط ما تعرضت له الإسكندرية من خراب ودمار أثناء غزو القبارصة لها . ولم ينس أبداً أن قبرس منذ بدايات الحركة الصليبية كانت المحطة التى يلجأ إليها المحاربون الصليبيون الوافدون من الغرب للتموين ووضع الخطط الحربية قبل هجومهم على موانى مصر والشام . ولعل حملة لويس التاسع الصليبية المعروفة بالحملة السابعة أبلغ دليل على ذلك . كل هذا لابد أنه مر بخاطر الأشرف برسباى ومن قبله من سلاطين المماليك فى وقت كانت لتلك التصرفات العدوانية من قبل الجزيرة رد فعل يوازيها . إذ وجه الأشرف ثلاث حملات إليها بهدف تأديبها وإخضاعها . وكانت الحملة الأولى سنة ٨٢٨ هـ / ١٤٢٤م وتعد بمثابة حملة

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ق٢ ، ص ٦٨٤ .

استكشافية على جانب كبير من الأهمية بالقياس إلى نتائجها . فقد تحقق السلطان الأشرف برسباى من مسئولية قبرس وملكها عن أعمال القرصنة التى أسلفنا إليها . وقد شوهدت سفن القراصنة بالجزيرة معدة للإغارة على شواطىء المسلمين ، كما شوهدت بموانىء قبرس البضائع الإسلامية المنهوبة (١).

وغادرت الحملة الثانية مصر فى ٢١ يوليو ١٤٢٤م / ٤ رمضان ٨٢٨هـ متجهة إلى بيروت حيث انضمت إليها السفن من بلاد الشام ؛ وتكونت الحملة من ٤٠ سفينة غادرت طرابلس فى ٣٠ يوليو / ١٣ رمضان ٨٢٨ هـ بعد أن رفض الملك جانوس عقد الصلح ، وتحالف حاكم فاماجوستا الجنوى مع قادة الحملة وأرشدهم إلى أماكن الضعف بالجزيرة . وكان دخول الحملة إلى ميناء ليماسول فى ١٥ أغسطس سنة ١٤٢٥م / رمضان ٨٢٨هـ . واستولى المسلمون على حصن المدينة ، إلا أن قائد الحملة رجع إلي مصر بعدما علم بمساعدة البنادقة للملك جانوس دى لوزينان (٢).

ثم قرر الأشرف برسباى إرسال حملته الثالثة والتى أقلعت من ميناء الإسكندرية فى يوم الأربعاء ٢٠ من شعبان ٨٢٩ هـ / ٢٨ يونية ١٤٢٦م (٣)، وقد جهز لهذه الحملة أكثر من مائة سفينة حربية من مختلف الأنواع والأحجام ، وأعلن الجهاد العام فى جميع أنحاء الدولة المملوكية ، واستجاب لندائه عدد كبير من أهالى مصر والشام . وبلغت عدة الحملة ما يزيد على خمسة آلاف مقاتل من المماليك والغزاة والمتطوعين . وانتهت الحملة بهزيمة القبارصة عند بلدة خيروكيتا ، وتم أسر ملكها جانوس . ثم بعد ذلك لحقت الهزيمة بالأسطول القبرسى واستولى المماليك على سفنهم . وأعلن القائد العام للحملة الأمير تغرى بردى المحمودى فى قصر الملك المأسور أن الجزيرة صارت من جملة بلاد السلطان الأشرف برسباى (٤).

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٦٧٩ ، ٦٨٩ ؛ Makhairas : I, p. 631 ؛ وأيضًا : سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٩٠ - ٩٢ .

(٢) االمقريزى : السلوك ، ج ٤ ق ٢ ، ص ٦٩٤ - ٦٩٥ ؛ انظر أيضًا : سعيد عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، ص ٩٢ - ١٠٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج٤ ق ٢ ، ص ٧٢١ .

(٤) Makhairas, I, pp. 665 - 70 ؛ وأيضًا :سعيد عاشور:قبرس والحروب الصليبية، ص١٠٨- ١١٤.

وعادت الحملة بعد هذا النصر الكبير إلى مصر مع ألوف الأسرى وعلى رأسهم ملك قبرس جانوس دى لوزنيان . ولم يفك أسره إلا بعد الاتفاق على فديته والتى بلغت مائتى ألف دينار. ثم دفع مائة ألف دينار منها والباقى عند عودته إلى قبرس ، وعلى أن يقوم بدفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار . واشترط جانوس دى لوزنيان على السلطان الأشرف برسباى أن يكف عنه طائفة البندقية وطائفة الكتيلان [١].

وظلت قبرس تابعة للدولة المملوكية تؤدى لها الجزية سنويًا حتى نهاية حكم المماليك على يد العثمانيين سنة ١٥١٧م / ٩١٥هـ ، فصارت الجزية ترسل إلى السلطان العثمانى حتى سنة ١٥٧٧م / ٩٨٥هـ ، حيث احتلها الأتراك العثمانيون وحكموها حكمًا مباشراً عن طريق ولاتهم الأتراك [٢].

وهكذا دفعت قبرس ثمنًا غاليًا لما ارتكبه ملكها بطرس دى لوزنيان فى حق الإسكندرية ولموقفها العدائى من المشرق الإسلامى منذ استيلاء اللاتين عليها .

وقد واجهنا أثناء إعداد هذه الدراسة العديد من النقاط والقضايا التى لم يبت فى بعضها برأى حاسم بعد أو التى أغفلها المؤرخون الحديثون المعنيون بالحركة الصليبية . وكان لزامًا علينا التصدى لها بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية البحتة استناداً إلى المصادر والأصول التى رجعنا إليها .

ففى الفصل الأول الذى تعرضنا فيه للحديث عن أحوال كل من الشرق الإسلامى والغرب الأوربى قبلي حملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية ، وتوصلنا إلى نتيجة هامة . وهى أن الدولة المملوكية كانت على جانب كبير من الثروة والعظمة والقوة على الرغم من اضطراب أحوالها الداخلية على عهد أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده ، الأمر الذى أزعج الغرب الأوروبى وحدا بالدعاة اللاتين فى الثلاثينات من القرن الرابع عشر الميلادى / القرن الثامن الهجرى إلى المناداة بضرورة القضاء على القوة الاقتصادية للدولة المملوكية حتى يتسنى للغرب القضاء على قوتها العسكرية ، ومن ثم يتسنى له استعادة مملكة بيت المقدس . وعلى

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ، ق٢ ، ص ٧٢٦ .

(٢) مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

الرغم من النشاط الدعائى الكبير فى هذا القرن ، فإن الغرب كان فى شغل شاغل عن مواصلة الحرب الصليبية بمفهومها القديم ، إذ تحكمت فيه المصالح الاقتصادية والسياسية والثقافية ومنعته من مواصلة هذا الاتجاه .

وفى الفصل الثانى الذى أفردناه للكلام عن الحركة الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى / القرن الثامن الهجرى ، ونشاط الدعاة اللاتين ومدى تأثيرهم على بطرس دي لوزنيان فى القيام بحملته ، قمنا بمناقشة أسباب اختيار بطرس لمدينة الإسكندرية بالذات هدفًا لحملته دون غيرها من موانى مصر والشام . وقد خرجنا من هذا الفصل بنتيجة هامة تتلخص فى أن بطرس إنما كان يخوض حربًا اقتصادية تجارية لأسباب تتعلق بوضع جزيرة قبرس الاقتصادى والحربى والسياسى متخذًا من الصليب شعارًا له لإخفاء أطماعه ومصالحه الشخصية . ومن خلال رحلة بطرس إلى الغرب الأوروبى للدعوة لحملته بقصد استعادة بيت المقدس ، نستطيع أن نخرج بنتيجة هامة تؤكد ما سبق أن بيناه عن انشغال الغرب اللاتينى عن مواصلة الحرب الصليبية بمفهومها القديم . وإن كان بطرس قد استطاع القيام بحملته على الإسكندرية ، إلا أنه دون شك منى بخيبة أمل بالنسبة لحجم المساعدات التى بذلها الغرب الأوروبى له .

وقد تعرضنا فى الفصل الثالث لعدة نقاط هامة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، خط سير الحملة ووقت الإعلان رسميًا عن وجهتها ، وتاريخ وصولها إلى الإسكندرية ، ثم سلطنا الضوء على مدينة الإسكندرية وأهميتها التجارية والحربية وموقعها الجغرافى وطبوغرافيتها وأسوارها وتحصيناتها وتوصلنا إلى معلومات فيها الكثير من الإضافات والتوضيحات مستندين فى ذلك إلي ما كتبه الرحالة العرب والأجانب ، إلى جانب ما ذكره النويرى السكندرى فى كتابه « الإلمام » ، هذا بالإضافة إلى بعض المعلومات التى ساقها «ماشو » فى كتابه « الهجوم على الإسكندرية » والتى تكاد تنطبق على ما جاء به الرحالة الأجانب من معلومات عن هذه المدينة الكبيرة .

وفى الفصل الرابع من هذه الدراسة قمنا بمعالجة عدة قضايا خاصة بالنقاط التالية : توقيت وصول الحملة ، وعدد قطع الأسطول ، وتاريخ ووقت نزول جنود الحملة إلى ساحل المدينة ، والمناوشات الأولى بين الطرفين ، ووقت اقتحام المدينة وفرار الأهالى منها ، وعمليات القتل والسلب والنهب والحرق التى تعرضت لها الإسكندرية ، ثم قرار الانسحاب المفاجىء وفشل بطرس دى لوزنيان فى إقناع الفرق المصاحبة له بالعدول عن هذا القرار .

وقد عالجنا فى الفصل الخامس والأخير من هذه الدراسة أثر الحملة على مصر والعالم الإسلامى مشرقه ومغربه ، وردود الفعل الناتجة عنها . ثم تعرضنا إلى مفاوضات الصلح التى جرت بين مصر وقبرس ، مبينين مراحلها المختلفة مع الأحداث المصاحبة لها ، وأثرها على سير هذه المفاوضات وما تمخضت عنه من آثار .

وكانت أهم النتائج التى خرجنا بها هى تحديد التاريخ الصحيح لمفاوضة الصلح الأخيرة التى تمت الموافقة عليها من الجانبين المصرى والقبرسى ، وذلك بعد مقتل بطرس دى لوزنيان وفى عهد خلفه بطرس الثانى فى أواخر سنة ٧٧٢هـ التى توافق سنة ١٣٧١م . وذلك خلافًا لما أورده مخيراس القبرسى والذى يذكر تاريخ هذه المفاوضات فى أغسطس ١٣٧٠م الموافق أوائل سنة ٧٧٢هـ وقد اعتمد عليه فى ذلك كل من تصدى لهذا الموضوع بالدراسة .

وأخيراً وليس بآخر ، يمكن القول أن هذه الدراسة تعتبر أول دراسة مستقلة قائمة بذاتها عن حملة بطرس دى لوزنيان على الإسكندرية ، عالجت كل جوانبها وزواياها اعتماداً على مختلف مصادرها من عربية وأجنبية . فجاءت معبرة فى حيدة ودقة عن مختلف وجهات النصر . هذا ، بينما لا نجد سوى شذرات مبعثرة هنا وهناك عن الحملة فى المراجع المتعلقة بتاريخ الحركة الصليبية أو إحدى مراحلها ، أو على أحسن الفروض فصلاً أو بعض فصل . كما أن معظم هذه الدراسات اعتمدت فى الغالب على شطر واحد من أصول البحث دون الشطر الآخر ، فجاءت مبتسرة مبتورة معبرة عن وجهة نظر واحدة ، أو عالجت بعض قضايا الحملة ومرت مرور الكرام على قضايا أخرى هامة وعديدة . وقد أعانتنا دراستنا المتكاملة على تلافى كل هذه الجوانب قدر الاستطاعة ، وعلى الخروج بصورة حية موضوعية مستوفاة لحملة صليبية كبيرة لم تنل حظها الكافى من قبل بما هى جديرة به مُن دراسة وتمحيص .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

١ - القرآن الكريم .

٢ - ابن أبى حجلة (أحمد بن يحيى التلمسانى) : سكردان السلطان (الملحق بكتابى المخلاة وأسوار البلاغة للعاملى) ، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت - لبنان ، ١٩٧٩م.

٣ - ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم) : الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءاً ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأزهرية المصرية ، ١٣٠١هـ .

٤ - ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد ، المصرى ، الحنفى) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج١ ، فى قسمين ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م . (طبعة مطبعة الشعب ، القاهرة ١٩٦٠م) .

٥ - ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر بن عبد الله) : الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية (وهو الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق أولرخ ههارمان ، المعهد الألمانى للآثار ، القاهرة ، ١٩٧١م .

٦ - « « « « « « : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب (وهو الجزء السابع من كنز الدرر وجامع الغرر) ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٧٢م .

٧ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، اللواتى الطنجى) : الرحلة ، أربعة أجزاء، نشر دفرمرى C, Defrémery وسنجوينتى B.R. Sanguinetti، باريس ١٨٥٣م .

٨ - البلوى (خالد بن عيسى) : تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ، تحقيق الحسين السائح ، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامى ، المغرب (بدون تاريخ).

٩ - بيرى رئيس (محيى الدين بن محمد) : كتاب بحرية (بالتركية) ، نسخة يلديز ، مخطوطة محفوظة بالمكتبة السليمانية باستانبول برقم (١/١٥٢١) .

١٠ - «» «» «» «» : ونسخة أيا صوفيا ، مخطوطة محفوظة بالمكتبة السليمانية باستانبول برقم (٢٦١٢) .

١١ - ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ١٦ جزءاً ، منها ١٢ جزءاً طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٩ - ١٩٥٦م ، وبقية الأجزاء نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٠م - ١٩٧٢م.

١٢ - ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الأندلس) : رحلة ابن جبير ، نشر دى غويه، الطبعة الثانية ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٠٧م .

١٣ - حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله ، المعروف بكاتب جلبى) : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، عنى بتصحيحه شرف الدين يلتقايا ورفعت بيلكه الكليسى ، مطبعة وكالة المعارف ، استانبول ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م.

١٤ - أبو حامد الأندلسى (محمد بن عبد الرحيم ، الغرناطى ، الملقب بالشيخ عبد الله): كتاب تحفة الألباب ، نشر جبرييل فيران Gabriel Ferrand فى : Journal Asiatique (Juillet- Séptembre 1925, Paris 1925. pp. 1 - 304) .

١٥ - ابن حبيب (الحسن بن عمر) : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ثلاثة أجزاء ، حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦ و ١٩٨٢ و ١٩٨٦م .

١٦ - ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد بن على) : إنباء الغمر فى أبناء العمر ، تحقيق حسن حبشى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

١٧ - «» «» «» : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، الأجزاء ١ ، ٢ ، ٤ ، دار الجيل ، بيروت (بدون تاريخ) ؛ والطبعة الثانية - خمسة أجزاء -

مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ، ١٣٩٢ - ١٣٩٦هـ / ١٩٧٢ - ١٩٧٦م .

١٨ - الحميرى (محمد بن عبد المنعم) : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، حققه إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، مكتبة لبنان ، بيروت ١٩٨٤م .

١٩ - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ستة أجزاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ؛ وطبعة أخرى فى ثمانية أجزاء ، بتحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .

٢٠ - ابن دقماق (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزءان الرابع والخامس ، الطبعة الأولى ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، ١٣٠٩هـ و ١٣١٠هـ .

٢١ - الدمشقى (شمس الدين أبو عبد الله ، المعروف بشيخ الربوة) : نخبة الدهر فى عجايب البر والبحر ، نشر مهرن A . Mehren ، ليبزج ١٩٢٣م .

٢٢ - الذهبى (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز) : العبر فى خبر من غبر ، أربعة أجزاء ، الطبعة الأولى دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٥م ؛ والجزء الرابع منه هو الذيل الأول على العبر للذهبى، والذيل الثانى عليه للحسينى .

٢٣ - ابن رافع السلامى (تقى الدين أبو المعالى محمد) الوفيات ، جزءان ، تحقيق صالح مهدى عباس ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٢م .

٢٤ - ابن رستة (أبو على أحمد بن عمر) : الأعلاق النفيسة ، نشر دى غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩١م.

٢٥ - ابن رشيد (أبو عبد الله محمد الفهرى السبتى) : ملء العيبة بما جمع بقول الغيبة فى الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة ، الجزء الثالث ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ١٩٨١م .

٢٦ - الزمخشرى (جار الله أبو القاسم محمود بن عمر) : أساس البلاغة ، جزءان ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٤١هـ / ١٩٢٢م .

٢٧ - الزياتى (الحسن بن محمد الوزان) : انظر : ليون الإفريقى ، جان ، فى قائمة المراجع العربية والمترجمة .

٢٨ - السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عنى بنشره القدسى ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٣٤٩هـ .

٢٩ - « « « : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ١٢ جزءاً ، القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٤هـ .

٣٠ - ابن سعيد (على بن موسى الأندلسى) : المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الأول (القسم الخاص بمصر) ، تحقيق زكى محمد حسن وشوقى ضيف وسيدة إسماعيل كاشف ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٣م .

٣١ - « « « : النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة (القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب فى حلى المغرب) ، تحقيق حسين نصار ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٧٠م .

٣٢ - « « « : كتاب الجغرافيا ، حققه إسماعيل العربى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٠م.

٣٣ - السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن) : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، جزءان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٧م و ١٩٦٨م .

٣٤ - أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى) : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان فى مجلد واحد ، مطبعة وادى النيل بمصر القاهرة ١٢٨٧ و ١٢٨٨هـ .

٣٥ - « « « : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين ، صححه محمد زاهد بلن الحسن الكوثرى ، الطبعة الثانية ، دار الجبل ، بيروت ١٩٧٤م .

٣٦ - ابن شاهين الظاهرى (خليل) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باعتناء بولس راويس ، باريس ١٨٩٤م .

٣٧ - شهاب الدين النويرى (أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج٢٧ ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

٣٨ - ابن الشيخ (يوسف بن محمد البلوى : انظر : Levi - Provençal .

٣٩ - الصفدى (صلاح الدين خليل أيبك) : الوافى بالوفيات ، عشرة أجزاء ، صادرة عن المعهد الألمانى بالقاهرة ومنشورة عن دار نشر فرانز شتاينر بفيسبادن بألمانيا ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

٤٠ - ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ، القرشى) : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، لجنة البيان العربى ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٤١ - العبدرى البلنسى (محمد) : الرحلة المغربية ، تحقيق أحمد بن جدو ، الجزائر (بدون تاريخ) .

٤٢ - ابن عبد الظاهر (محيى الدين) : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز الخويطر ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

٤٣ - عبد اللطيف البغدادى : الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، تحقيق أحمد غسان سبانو ، الطبعة الأولى ، دار قتيبة ، دمشق ١٩٨٣م .

٤٤ - ابن العبرى (أبو الفرج جمال الدين ، المعروف بجريجوريوس الملطى) : تاريخ الزمان (تاريخ ابن العبرى) ، نقله (من السريانية) إلى العربية الأب إسحق أرملة ، دار الشرق ، بيروت ١٩٨٦م .

٤٥ - « « « « « « : تاريخ مختصر الدول (وهو مختصر لتاريخه بالسريانية) ، الطبعة الأولى ، دار المسيرة ، بيروت (بدون تاريخ) .

٤٦ - العماد الأصفهاني (أبو عبد الله محمد) : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥م .

٤٧ - أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل) : المختصر فى أخبار البشر ، أربعة أجزاء ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ) .

٤٨ - ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن على ، المالكى) : كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان (بدون تاريخ) .

٤٩ - ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى) : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، دولة المماليك الأولى ، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكى ، المركز الإلامى للبحوث ، بيروت ١٩٨٦م .

٥٠ - ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمدانى) : مختصر كتاب البلدان ، نشر دى غويه ، بريل ، ١٨٨٥م .

٥١ - الفيروز أبادى (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازى) : القاموس المحيط ، بولاق ١٢٧٢هـ .

٥٢ - القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .

٥٣ - القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن الأشرف يوسف) : إنباه الرواه على أنباء النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٦٩هـ .

٥٤ - ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق ، نشر هـ . ف . آمدروز ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨م .

٥٥ - القصادى (أبو الحسن على الأندلسى) : رحلة القلصادى ، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ١٩٧٨م .

٥٦ - القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزءًا ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٣٢٣هـ / ١٩١٥م .

٥٧ - «« «« «« : طبعة بيروت (الطبعة الأولى) ، ١٤ جزءًا ، بتحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٥٨ - كاتب مراكشى مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، مطبعة جامعة الإسكندرية ، ١٩٥٨م .

٥٩ - كاتب هندى مجهول : كتاب مرآة العجايب فى وقعة الإسكندرية (سنة سبع وستين وسبعماية ، من مخطوطة الهند لكتاب الإلمام للنويرى السكندرى ، يتضمن نصوصًا لم تنشر من قبل) ، حققه وعلق حواشيه درويش النخيلى ، الطبعة الأولى ، مطبعة التونى ، الإسكندرية ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٦٠ - ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل) : الاجتهاد فى طلب الجهاد ، الطبعة الأولى ، مطبعة أبى الهول ، القاهرة ١٣٤٧هـ ؛ وطبعة أخرى ، بتحقيق وتعليق عبد الله عبد الرحيم عسيلان ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨١م .

٦١ - «« «« «« : البداية والنهاية ، ١٤ جزءًا ، الطبعة السادسة ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .

٦٢ - المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، أربعة أجزاء فى مجلدين ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الخامسة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٢٩٣هـ / ١٩٧٣م .

٦٣ - «« «« «« : أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران ، نشر حسين عاصى ، الطبعة الرابعة ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٨٠م .

٦٤ - المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى) : نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ، ثمانيـة أجزاء ، حققه إحسان عباس ، دار صادر - بيروت ١٩٦٨م ؛ وطبعة أخرى من عشر أجزاء ، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٤٩م .

٦٥ - المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا ، ثلاثة أجزاء ، الأول بتحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٧م ، والثانى والثالث بتحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧١م و ١٩٧٣م .

٦٦ - المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، قام على نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧م .

٦٧ - «« «« «« «« : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، أربعة أجزاء ، مطبعة النيل بمصر ، ١٣٢٤هـ .

٦٨ - «« «« «« «« : السلوك لمعرفة دول الملوك ، أربعة أجزاء فى إثنى عشر قسمًا ، حقق الجزأين الأولين محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٩ ، ١٩٤١ ، ١٩٤٢ ، وحقق الجزأين الثالث والرابع سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٢ ، ١٩٧٣م .

٦٩ - ابن مماتى (الأسعد) : قوانين الدواوين ، حققه عزيز سوريال عطية ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٣م .

٧٠ - ابن منكلى (محمد) : كتاب الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر ، صور شمسية محفوظة بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية تحت رقم (٩) عن المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم (٢٣) فروسيه تيمور .

٧١ - مؤلف مجهول : ألف ليلة وليلة ، أربعة أجزاء ، الطبعة الثانية ، المكتبة الثقافية ، بيروت - لبنان ، ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

٧٢ - مؤلف مجهول : تاريخ سلاطين المماليك فى سنة ٦٩٠هـ - ٧٤١هـ ، نشر ك . ف . زيترستين K.F. Zettersteen ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩١٩م .

٧٣ - ابن ميسر (تاج الدين محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب) : أخبار مصر ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨١م.

٧٤ - النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد ، المالكى) : كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية سنة سبع وستين وسبعماية ، ثلاث نسخ مصورة محفوظة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية تحت رقم :

أ - ٧٣٨م (عن النسخة المحفوظة بمكتبة بانكى بور بالهند تحت رقم ٢٣٣٥ عربى) .

ب - ٦٦٧ م (عن نسخة برلين رقم ٩٨١٥ فى قائمة أهلواردت ، ورقم ٦٠ - ٣٥٩ فى قائمة فتزشتين) .

جـ - ٧٣٧م (عن النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٢٨٥٥٨ عمومية تاريخ ، ورقم ١٤٤٩ خصوصية تاريخ) .

- وطبع الكتاب - عن هذه النسخ الثلاث - طبعة أولى ، بتحقيق عزيز سوريال عطية (وشاركه فى تحقيق الجزء الأول المستشرق إتيان كومب) فى سبعة أجزاء ، بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م / ١٣٩٦ - ١٩٧٦م) .

٧٥ - ابن هذيل (على بن عبد الرحمن الأندلس) : حلية الفرسان ، تحقيق محمد عبد الغني حسن ، دار المعارف القاهرة ١٩٥١م .

٧٦ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ظهر منه حتى الآن خمسة أجزاء ، الثلاثة الأولى منها بتحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ و ١٩٥٧ والثالث بدون تاريخ والجزءان الرابع والخامس بتحقيق حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢ و ١٩٧٧م.

٧٧ - الواقدى (محمد بن عمر) : فتوح الشام ، جزءان فى مجلد واحد ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده بميدان الأزهر الشريف بمصر ، ١٣٤٨هـ .

٧٨ - «» «» «» «» : وثائق وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون (انظر فى قائمة المراجع : محمد محمد أمين) .

٧٩ - ابن الوردى (زين الدين عمر) : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، جزءان ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، ١٣٨٩هـ / ١٩٧٠م .

٨٠ - ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله) : معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٨٤م .

٨١ - اليونينى (قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد ، البعلبكى الحنبلى) : ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، الطبعة الأولى ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ٢٣٧٤هـ / ١٩٥٤م .

ثانيًا : المصادر غير العربية :

1 - Albert (Jacques) 1634, dans. Voyages en Egypte des années 1634, 1635 et 1636, (IFAO), Le Caire 1974 .

2 - Amadi (François) : Chronique d'Amadi, Publiée par Réne de Mas Latrie, Paris, 1891 .

3 - Arculf (The Bishop) : The Travels of Bishop Arculf in the Holy Land Towards A.D.700, in : Wright, Thomas (editor). Early Travels in Palestine, Ams Press, New York 1969, (pp.1-12) .

4 - Belon de mans (Pierre), 1547, (IFAO), le Caire, 1970 .

5 - Benijamin of Tudela : The Travels of Rabbi Benjamin of Tudela (A.D. 1160 - 1173), in : Thomas Wright (editor), Early Travels in Palestine, Ams Press, New York, 1969. pp. 63 - 126 .

6 - Blunt (Henry) 1634, dans : Voyages en Egypte des années 1634, 1635 et 1636, (IFAO), Le Caire 1974 .

7 - Bremond (Gabriel) 1643 - 1645 , (IFAO) , Le Caire, 1964 .

8 - Brown (Edward) 1673 - 1674, (IFAO), Le Caire, 1974 .

9 - Coppin (Jean) 1638 - 1646, (IFAO) Le Caire, 1971 .

10 - Fabri (Felix) 1483, (IFAO), Le Caire, 1975 .

11 - Fauvel (Robert) 1631, annexe dans : Voyages en Egypte de Vincent Stochove 1631, (IFAO), Le Caire, 1975.

12 - Froissart (Sir John) : Chronicles of England, France, Spain and the Adjoining Countries (Translated from the French by Thomas Johnes), 2 Vols., Ney York 1901 .

13 - Ghistele (Van, Joos) 1482 - 1483, (IFAO), de Caire; 1967.

14 - Gonzales (Pére Antonius) 1665 - 1666, (IFAO), Le Caire, 1977 .

15 - Harant (Christophe) 1598, (IFAO), de Caire, 1972 .

16 - Huntington (R.) 1695, dans : Voyages en Egypte Pendant Les années 1678 - 1701, (IFAO), Le Caire 1981 .

17 - Joinville (Chronique de) Joinville, (Chronique de) Joinville, dans : Extraits de Chroniqueurs Français, publiés par Gaston Paris et A.Jeanroy, Quatorziéme Edition, Paris, 1928, pp. 111 - 164 .

18 - Kiecel (S.) 1588, dans : Voyages en Egypte pendant les années 1587 - 1588, (IFAO), Le Caire 1972 .

19 - Lithgow (William) 1612, dans : Voyages en Egypte des années 1611 et 1612, (IFAO), Le Caire 1973 .

20 - Lubenau (R.) 1588, dans : Voyages en Egypte Pendant les années 1587 - 1588 (IFAO), Le Caire 1972 .

21 - Machaut (Guillaume de) : La Prise d'Alexandrie ou Chronique du Roi Pierre 1 er de Lusignan, Publiée per M.L. de Mas Latrie, Genéve 1877 .

22 - Mahkairas (Leontios) : Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus entitled " Chroincle", edited with a translation and notes by R.M. Dawkins, 2 Vols., Oxford 1930 .

Monconys (Balthasar de 0 1646 - 1647 (IFAO), Le Caire 1973 .

24 - Morison (Anthonio) 1697, (IFAO), Le Caire 1976 .

25 - Neitzschitz (Von, George Chr), 1636, dans : Voyages en Egypte das années 1634, 1635 et 1636, (IFAO), Le Caire 1974 .

26 - Palerne (Jean Fortésien) 1581, (IFAO), Le Caire 1971 .

27 - Pitts (J.) 1685, dans : Voyages en Egypte Pendant les années 1678 - 1701 (IFAO), Le Caire 1981 .

28 - Rocchetta (Aquilante) 1599, dans : Voyages en Egypte des années 1597 - 1601 (IFAO), Le Caire 1974 .

29 - Sandys (Gorge) 1611, dans : Voyages en Egypte des années 1611 et 1612, (IFAO), Le Caire 1973 .

30 - Strambaldi (Diaméde) : Chronique de Strambaldi, Publiée par René de Mas Latrie Paris 1893 .

31 - Tufel (H . Chr.) 1588, dans : Voyages en Egypte Pandant les années 1587 - 1588 , (IFAO), Le Caire 1972 .

32 - Veryard (E.) 1678), dans : Voyages en Egypte Pendant Les années 1678 - 1701, (IFAO), Le Caire 1981 .

33 - Villehardouin : " (Chronique de) Villehardouin ", dans : Extraits de Chroniqeurs Français, Publiés par Gaston paris et A. Jeanroy, Quatorziéme Edition, Paris 1928. pp. 1-85 .

34 - Villamont (le Seigneur de) 1589 - 1590, dans : Voyages en Egypte, 1589, 1590, 1591, (IFAO), Le Caire , 1971 .

35 - «« «« «« : Voyages en Egypte des années 1597 - 1601 , (IFAO), Le Caire 1974 .

36 - Wild (Johann) 1606 - 1610, (IFAO), Le Caire 1973 .

37 - Willelm Jyrents (= W.T.) : Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum, apud : Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux, 2 Tomes, Republished in 1967, Second Impression, England, 1969. English Translation : William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, translated by Emily Atwater and A.C. Krey, 2 Parts, New York 1943 .

ثالثًا : المراجع العربية والمترجمة :

١ - أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ، معجم الفوائد ونوادر المسائل ، الطبعة الأولى ، مطابع دار الكتاب العربى بمصر ، ١٩٥٣م .

٢ - أحمد عبد الرازق : نواب الإسكندرية فى كتاب الضوء اللامع ، فى : (ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الأول ١٩٨٢م) ، دار المعارف القاهرة ١٩٨٢م .

٣ - أحمد قدرى محمد أسعد : (انظر : درويش النخيلى) .

٤ - أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية ١٩٦٨م.

٥ - أحمد مختار العبادى ، والسيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، بيروت ، ١٩٧٢م .

٦ - إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزءان الأول والثانى ، الطبعة الأولى ، المطبعة الميرية ببولاق مصر المحمية ، ١٣١٢هـ و ١٣١٤هـ .

٧ - باركر (إنست Ernest Barker) : الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٨ - جبور عبد النور : (بالاشتراك مع سهيل إدريس) ، المنهل ، قاموس فرنسى عربى ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين ، دار الآداب ، بيروت ١٩٨٠م .

٩ - جرونيباوم (جوستاف) : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز جاويد (مجموعة الألف كتاب رقم ٢) ، نشر مكتبة مصر بالفجالة (بدون تاريخ) .

١٠ - جمال الدين الشيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر . فصلة من المجلة التاريخية المصرية (١٩٥٢م) ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٢ (ص ١٩١ - ٢٧١) .

١١ - » » » » » » : أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م .

١٢ - » » » » » » : تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، دار المعارف ، مطبعة معهد دون بوسكو ، الإسكندرية ١٩٦٧م .

١٣ - جوزيف نسيم يوسف : دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٣م .

١٤ - «» «» «» «» «» : العدوان الصليبى على مصر ، الطبعة الثالثة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ١٩٨٤م .

١٥ - حسن الباشا : الفنون الإسلامية والظوائف على الآثار العربية ، ثلاثة أجزاء ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦م .

١٦ - حسن حبشى : هجوم القبارصة على الإسكندرية ٧٦٧ هـ = ١٣٦٥م ، من نصوص جديدة جديدة للنويرى فى : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس عشر (١٩٦٩) ، القاهرة ١٩٦٩م (ص ١ - ٣٥) .

١٧ - ديودور الصقلى : ديودور الصقلى فى مصر ، القرن الأول قبل الميلاد ، نقله من اليونانية وهيب كامل ، ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر (بدون تاريخ) .

١٨ - درويش النخيلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٩م .

١٩ - رنسيمان (ستيفن Steven Runciman) : تاريخ الحروب الصليبية ، ثلاثة أجزاء، ترجمة السيد الباز العرينى ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان (بدون تاريخ) .

٢٠ - ريتزيتانو (امبروتو Umberto Rizzitano) : صفحة من تاريخ العلاقات بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبى (٢٧ ذى الحجة - ٢٨ يوليه ١١٧٤م) فى : مجلة كلية الآداب جامعة فاروق الأول ، المجلد الخامس (١٩٤٩م) ، مطابع رمسيس بالإسكندرية (بدون تاريخ) . (ص٤٧ - ٥٨) .

٢١ - سعيد عبد الفتاح عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، مطبعة دار النهضة ، القاهرة ١٩٧٠م .

٢٢ - «» «» «» : الحركة الصليبية ، صفحة مشرفة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م .

٢٣ - «» «» «» : العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الأولى دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٥م .

٢٤ - «» «» «» : قبرس والحروب الصليبية ، ملتزم النشر والتوزيع مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م .

٢٥ - «» «» «» : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٢م .

٢٦ - «» «» «» : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩م .

٢٧ - «» «» «» : أوربا العصور الوسطى ، التاريخ السياسى ، الطبعة الثامنة مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٥م .

٢٨ - سهيل إدريس : انظر : جبور عبد النور .

٢٩ - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مطبعة معهد الدون بوسكو ، الإسكندرية ١٩٦٩م .

٣٠ - «» «» «» : طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، دار المعارف ، الإسكندرية ١٩٦٧م .

٣١ - سيزار (باروسلاف) : بالاشتراك مع فوزار (جوزيف) ، نقاط التلاقى والصراع فى أوربا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠ - ١٥م) ، ترجمة وتقديم وتعليق جوزيف نسيم يوسف ، فى (جوزيف نسيم ، دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، نشر مؤسسة شباب الجامعة ، إسكندرية ١٩٨٣م) .

٣٢ - عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب : تجارية - ثقافية صليبية ، ترجمة فيليب صابر سيف ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٢م.

٣٣ - «» «» «» : أحد مصنفى الموسوعات السكندرين فى القرن الرابع عشر الميلادى القرن الثامن الهجرى : دراسة نقدية تحليلية لكتاب " الإلمام" للنويرى الإسكندرانى " ترجمة وتقديم جوزيف نسيم يوسف ، دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ، الإسكندرية ، ١٩٨٣م .

٣٤ - عفاف سيد صبره : العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام فى الفترة من ١١٠٠ - ١٤٠٠م ، دار النهضة العربية للطبع والنشر والتوزيع ، القاهرة ١٩٨٣م .

٣٥ - على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٤م .

٣٦ - على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة بمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، ج ٧ ، الطبعة الأولى ، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ، ١٣٠٥هـ .

٣٧ - عمر كمال توفيق : الجاليات الأوربية فى الإسكندرية فى العصر الوسطى (فصله من كتاب مجتمع الإسكندرية عبر العصور) ، مطبعة جامعة الإسكندرية ، الإسكندرية ١٩٧٥م ، (ص ٢٧٣ - ٣٠٥) .

٣٨ - فشر (هـ . أ . ل H.A.L. Fisher) : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، نقله إلى العربية مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، ج ١ ، دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.

٣٩ - فوزار (جوزيف) : (انظر ك سيزار ، باروسلاف) .

٤٠ - كاله (باول Paul Kahle) : صورة عن وقعة الإسكندرية فى عام ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥م ، من مخطوطة الإلمام للنويرى السكندرى ، ترجمة وتعليق درويش النخيلى وأحمد قدرى محمد أسعد ، فى : مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية ، دراسات أثرية وتاريخية (٣) ، مطبعة إسكندرية ، ١٩٦٩م ، (ص٣٦ - ٩٤) .

٤١ – كراتشكوفسكى (أغناطيوس يوليانوفتش) : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، جزءان ، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٧م.

٤٢ – كولتون (ج . ج) : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مطبعة رويال بالإسكندرية، ١٩٦٧م .

٤٣ – لوبير (جراتيان) : دراسة عن مدينة الإسكندرية ، فى : كتاب وصف مصر (لعلماء الحملة الفرنسية) ، مج ٣ (المدن والأقاليم المصرية) ، ترجمة زهير الشايب ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الخانجى بمصر ، ١٩٧٨م .

٤٤ – لويس (أرشيبالد) : القوى البحرية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة أحمد عيسى ، ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (بدون تاريخ) .

٤٥ – ليون الإفريقى (جان : الحسن بن محمد الوزان الزياتى) : وصف إفريقيا : ألفه بالإيطالية ، وترجمه إلى الفرنسية أ. إيبولار ، وترجمه من الفرنسية إلى العربية عبد الرحمن حميدة ، منشورات كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، الرياض، ١٣٩٩هـ .

٤٦ – ماركو بولو : رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد (عن الترجمة الإنجليزية لوليم مارسدن) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٧م) .

٤٧ – محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربى بمصر (بدون تاريخ) .

٤٨ – « « « : الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره ، القاهرة ١٩٣٨م .

٤٩ – محمد محمد أمين : وثائق وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون : كتاب وقف بتاريخ١٢ جمادى الأولى ٧٢٦ هـ، فى: ابن حبيب، تذكرة النبيه ، ج٢.

٥٠ - محمد مختار (اللواء) : كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية ، ١٣١١هـ .

٥١ - محمود الفلكى : الإسكندرية القديمة ، ترجمة محمود صالح الفلكى ، دار نشر الثقافة ، الإسكندرية ١٩٦٧م .

٥٢ - ميور (سير وليم Sir William Muir) : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، مطبعة المعارف بمصر ، ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤م .

٥٣ - نظير حسان سعداوى : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، ملتزم الطبع والنشر، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦١م .

٥٤ - هرنشو (F.J.C. Hearnshaw) : علم التاريخ ، ترجمة وعلق حواشيه وأضاف إليه فصلاً فى التاريخ عند العرب (هو الفصل الثالث) عبد الحميد العبادى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٤م .

٥٥ - ويستنفلد (ف) : جداول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ، ترجمة عد المنعم ماجد وعبد المحسن رمضان ، الطبعة الأولى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م .

٥٦ - يحيى الشهابى : معجم المصطلحات الأثرية (بالفرنسية والعربية) دمشق ١٩٦٧م.

رابعًا : المراجع الأجنبية :

1 - Adb Ar - Ráziq (Ahmad) : Les Governeurs d'Alexandrie au Temps des Mamlûks, dans : Annales Islamologique, t. XVIII (1982), Imprimerie de L'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire1982 .

2 - Atiya (Aziz Suryal) : The Crusade in the Later Middle Ages, Oxford 1938.

- Crusade, Commerce and Culture, New York, 1966 .

3 - Auge (Claude) : Petit Larousse Illustré, Paris 1921 .

4 - Bocthor (Ellious) : Dictionnaire Français - Arabe, revu et augmenté par caussin de Perceval, 4 eme edit., Paris 1869 .

5 - Bornecque (H.) et Cauet (F.) : Le Dictionnaire Latin - Français, Deuxiéme Édition, Paris 1936 .

6 - Breccia (E.) : Alexandrea ad Aegyptum, Bergamo, 1914 .

7 - Calmette (Joseph) : Atlas Historique, II : Le Moyen Age, Paris, 1941 .

8 - Clarke (D.) : " Alexandrea ad AEgyyptum. A Survey", in : Bulletin of the Faculty of Arts, Vol V (1949), Alexandria Imprimeries, Ramesés, 1949. (pp. 99-102) .

9 - Combe (Et.) : " De la Colonne Pompée au phare d' Alexandrie", dans : Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie No.3 (1934), Alexandrie 1934. (pp. 104-112) .

- " Le Sultans Mamoûks Ashraf Sa'bén (764 - 778 H., 1363 - 76 A.D.) et Ghauri (906-911 H. 1501 - 16 A.D.,) " , dans : Bulletin de la Société Royale d'Achéologie d'Alexandrie No. 30, (1936), Alexandrie (1936), Alexandrie 1936. pp. 34 - 48 .

- " Les Levés de Gravier d'Ortiers A Alexandrie (1696) ", dans : Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol, I (May 1943), Association of Authorship, Translation and Publication Press, Cairo 1943 (pp. 52 - 67) .

- " Notes Sur Les Forts d'Alexandrie et des Environs", dans : Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie, No. 34 (1940), Alexandrie 1940. (pp. 95 - 103) .

10 - Danil (N.A.) : The Sack of Alexandrie", in : Archaeological and Historical Studies, 6 (1979), Publication of the Archaeological Society OF Alexandria 1979. pp. 39 - 66 .

11 - Debbane (Max) : " A Propos de deux Colonnes Atribuées Á L'Eglise de Theonas", dans : Bulletin de la Société Archéologique d'Alexandrie, No. 42 (1967), Imprimerie de L'Institut Français d'Archéologie Orintale, Le Caire 1967. pp. 81-84.

12 - Diehl, Oeconmos Guilland et Grousset : " L'Europe Oriental De 1081 A 1453", dans : Historie du Moyen Age, Tome IX Premiére Partie, Paris 1945 .

13 - Dozy (R.) : Supplement aux Dictionnaires Arabes, 2 Vols., Byrouth 1968 .

- Dictionnaire Détaillé des Noms des Vétements Chez les Arabes, 1845.

14 - Edbury (Peter W.) : " The Crusading Police of Peter I of Cyprus, 1359 - 1369 ", in : Holt, P.M. (Editor), The Eastern Mediterranean Lands in the Period of the Crusades, Warminster, England, 1977 pp. 90 - 105 .

15 - Ferrand (Gabriel) : " Les Monuments de L'Egypte au XIIe Siécle s'Apres Abu Hâmid Al-ANDALUSI ", dans : Mélanges Maspero, III, Orint Islamique, Tome LXVIII (1940), Imprimerie de L'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire 1940. pp. 57 - 66 .

16 - Forster (E.M.) : Alexandria : A History and a Guide, Alexandria 1939 .

17 - Fowler (H.W.) and Fowler (F.G.) : The Concise Oxford Dictionary of Current English, Oxford 1934 .

18 - Goitein (S.D.) A Mediterranaen Society, 2 Vols., Los Angles 1967 , 1971 .

19 - Grousser (René) : L'Empire du Levant, Historie de la Question d'Orient, Paris 1949 .

- Histoire des Croisades et la Royaüme France de Jerusalem, Jerusalem, 3 Vols., Paris 1934, 1935, 1936 .

20 - Hamdi (Abdel Hamid) : " Philippe de Méziéres and the New Order of the Passion, 3Parts", in : Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria University: Part I, Vol. XVII, (1963), Parts II, III, Vol. XVIII (1964), Alexandria University Press , Alexandria 1964, 1965 . (Part I, pp. 45 - 56; Parts II and III) pp. 1 - 104 .

21 - Herreros (de Don Enrique Garcia) : Quatre Voyageurs Espanols a Alexandrie d'Agypte Benjamin de Tudela 1166 - 71 - Ibn Goubair 1183 - 85 - Pero Tafur 1435 - 39 - Ali Bey El-Abbassi (Domingo Badia 1803 - 7), Société Archeologique d'Alexandrie, Alexandrie 1982 .

22 - Holt (P.M.) : The Ages of the Crusades. The Near East from the eleventh Century to 1517, London 1988 .

23 - Jorga (Nicolas) : Histoire des Croisades, Paris, 1924 .

- Philippe de Méziéres (1327 - 1405) et la Croisade de XIVe Siécle, Paris 1896 .

24 - Jouguet (P.) : L'Impérialisme Mecédonien et L'Hellénisation de L'Orient, Paris 1937 .

25 - Kahle (Paul) : " Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandrie", dans : Mélange Maspero, III, Orient Islamique, Tome LXVIII (1940), Imprimerie de L'Institut Français D'Archéologie Oriental, Le Caire 1940 (pp. 161-71) .

26 - King (Colonel E.J.) : The Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1931 .

27 - Kubiak (Wladyslaw) : " Les Fouilles Polonaises Á Kôm El-Dick, en 1963 et 1964", dans : Bulletin de la Société Archéologique D'Alexandrie, No. 42 (1967), Impriméie de L'Institut Français d'Archéologie Orientale, le Caire 1967. pp. 47 - 80 .

28 - Lane - Poole (Stanley) A History of Egypt in the Middle Ages, 4 th edition (New Impression, London 1968) .

29 - Levi - Provençal (É) : " Une Description Arab Inédite du phare d'Alexandrie", dans : Mélanges Maspero, III, Orient Islamique, Tome LXVIII (1940), Imprimerie de L'Institut Franéais d'Archéologie Oriental, Le Caire 1940, pp. 161 - 71 .

30 - Lopez (Robert) : " Les Influences Orientals et L'Éveil Économique de L'Occident", dans : Cahiers D'Histoire Mondiale, Vol. I. No.3 (Janvier 1954), Paris 1954. pp. 594 - 622 .

31 - Mas Latrie (De, M.L.) : Histoire de L'Ile de Chypre sous le Régne das princes de La Maison de Lusignan, Vol.I, Paris 1861.

32 - Mayer (Hans Edarhard) : The Cursades, translated by John Gillingham, Oxford Uneversity Press, 1972 .

33 - Molinier (Auguste) : " Description de deux manuscrits Contenant la régle de la Militia Passionis Christi de Philippe de Philippe de Méziéres", dans: Archives L'Orient Latin, Tom I, Paris 1881 . pp. 335 - 364 .

34 - Morris, Whithead (Publishe) : Services Gyide to Alexandria, Second edition, Alexandria 1940 .

35 - Muller - Wiener (Wolfgang) : Castels of the Crusades, (translated from the German by J. Maxwell Brownjohn) London 1966 .

36 - Paris (Gaston) et Jeanroy (A.) : Chroniqueurs Français, Quatorziéme Édition, Paris 1928,

- Chrestomatie du Moyen Age, Quinziéme Édition, Paris (n.d.) .

37 - Renouard (Eves) : La Papauté A' Avignon, Paris 1954 .

38 - Runciman (Steven) : A History of the Crusades, 3 Vols. (Vols. 1-2, England 1978; Vol 3, Cambridge University Press, 1955) .

39 - Smail (R.C.) : Crusading Warfare (1097-1193), Cambridge, 1956.

40 - Toussoun (Price Omar) : " Note sur les Forts d'Alexandrie et de ses Envirans", dans : Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie, No. 34 (1941), Alexandrie 1941. pp. 20 - 26 .

41 - Uden (Grant) : A Dictionary of Chivalry, London, 1968 .

42 - Wiet (Gaston) : L'Agypt Arabe de la Conquête Arabe a la Conquête ottomane 642 - 1517 de L'Ere Crétienne, dans : Histoire de la Nation Egyptienne, Vol. IV, Paris 1937 .

36 - Wojciech and Teresa Kolataj : Polish Excavations at Kom el Eikka in Alexandria, 1967, Report on the Construction of the " Theatre" (with 12 Plates and 4 Plans)", in : Bulletin de la Société Archéologique d'Alexandrie, No. 43 (1975) Imprimérie de L'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire 1975. pp. 79 - 97 .

37 - Wright, Thomas (editor) : Early travels in Palestine, Ams Press, New York 1969 .

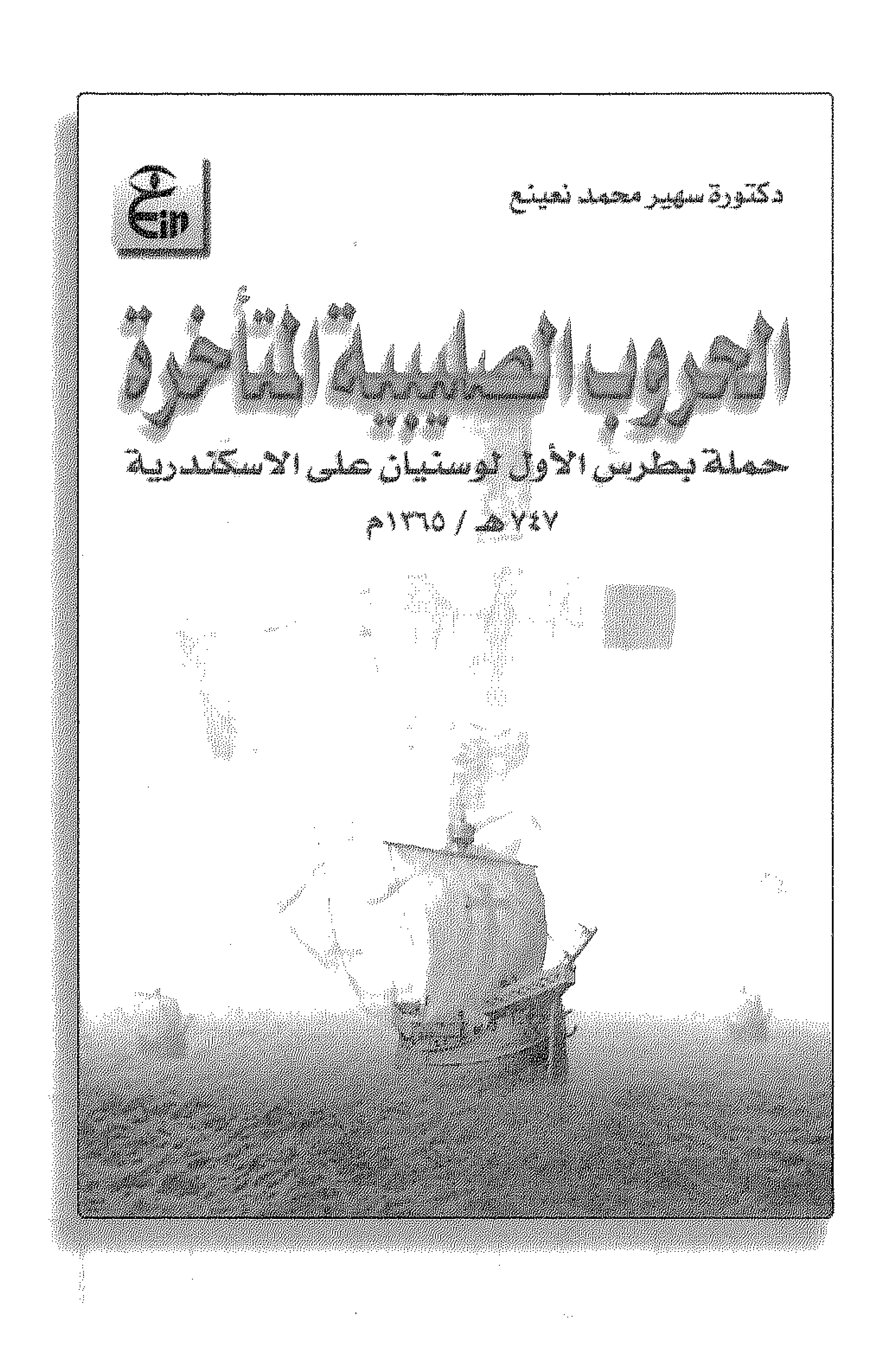
رقم الإيداع ٢٠٠٢/٥٢٩٧

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 322 - 083 - 4

دار روتابرينت للطباعة ت : ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

مهندس / يوسف عز

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق





للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES